فريدون هويدا

الإسلام معطلاً

العالم الإسلامي ومعضلة الفوات التاريخي

ترجمة: حسين قبيسي

رابطة العقلانيين العرب

l'islam bloqué

fereydoun hoveyda

édition robert laffont
paris 1992

فريدون هويدا، كاتب ومؤرّخ ودبلوماسي إيراني، وُلِد في دمشق العام ١٩٢٤، حيث كان والده سفيراً لإيران في سوريا. شقيق أمير عباس هويدا الذي شغل منصب رئيس الحكومة في عهد شاه إيران.

نشأ وتعلّم في بيروت حيث درس الحقوق، وتابع تحصيله العلمي في أوروبا وأميركا.

بدأ حياته الدبلوماسية بالاشتراك في أعمال مؤتمر سان فرنسيسكو الذي أقرّ ميثاق الأمم المتحدة، العام ١٩٤٥.

شارك على مدى العامَين ١٩٤٧ و١٩٤٨ في الأعمال التحضيرية للإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وقد وقّعه باسم بلاده بوصفه ممثلاً دائماً لإيران في الأمم المتحدة.

من مؤلفاته:

- «**تاريخ الرواية البوليسية**» (كتب مقدمتها جان كوكتو) صدر بالفرنسية العام ١٩٥٦ وتُرجِم إلى اليابانية والإسبانية،
- «**سقوط الشاه**»، صدر بالفرنسية العام ١٩٨٠ وتُرجِم إلى الإنجليزية،
- «**الدين والشعب**»، صدر بالفرنسية العام ١٩٨١ وتُرجِم إلى الإنجليزية،
- «**ماذا يريد العرب؟**» صدر بالفرنسية العام ١٩٩١ وترجم إلى الألمانية واليابانية.
- «**ثلوج سيناء**»، رواية صدرت عن غاليمار، باريس ١٩٧٣، وحازت جائزة ليوبولد سنغور.

توفي فريدون هويدا في الثالث من شهر تشرين الثاني-نوفمبر ٢٠٠٦.

الإسلام معطّلاً

العالم الإسلامي ومعضلة الفوات التاريخي

فريدون هويدا

ترجمة : حسين قبيسي

مراجعة : مروان الداية

رابطة العقلانيين العرب

* اسم الكتاب: الإسلام معطَّلاً: العالم الإسلامي ومعضلة الفوات التاريخي
* تأليف: فريدون هويدا
* الطبعة الأولى ٢٠٠٨
* موافقة وزارة الإعلام رقم: ٩٧٣٩٤
* الإخراج الفني: بترا للنشر والتوزيع
* الناشر: **دار بترا للنشر والتوزيع**
www.darpetra.com
سوريا. دمشق
هاتف: 011 6616947
جوال: 0944 507106
ص. ب 10250
رابطة العقلانيين العرب
arabrationalists@yahoo.fr
* التوزيع: **دار بترا للنشر والتوزيع**
darpetra@gmail.com

*** جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو استعماله بأي شكل، إلكتروني أو ميكانيكي، بما في ذلك النسخ، التسجيل، أو عبر أي أداة تخزين أخرى، من دون إذن خطي من الناشر.**

المحتويات

المقدمة

ألغاز العالم الإسلامي ٩
الإسلام الذي يخيف... .... ١٢
أي إسلام؟ ١٤
وهم التآمر والمؤامرات ١٦
«إسلامي» من القرن الرابع عشر ١٩
تغييب التاريخ ٢١

الفصل الأول

صعود الحضارة الإسلامية ٢٣
الإيمان والغنيمة ٢٤
إمبراطوريتان قيد الاحتضار ٢٧
التسامح وروح الانفتاح ٢٩
الحوار المفتوح ٣١
سوق واسعة وموحدة ٣٥
الأمة المقسومة ٣٦
التشيّع والتسنّن ٣٧
الوحدة والتعدّد ٤٠
رعب العام الألف ٤٣

الفصل الثاني

جمود العالم الإسلامي ٤٧
قضاء وقدر وتخلّف ٤٨
إما ببغاوات وإما بلداء ٥١
عبادة الشكل والحَرف ٥٣

التطور الاقتصادي والاجتماعي ٥٤
البيئة وأحوال المرأة ٥٦
قصر نظر المثقفين ٥٩
الاستعمار ٦٣
الانحطاط منظوراً إليه من أوروبا ٦٤
الجمود والخوف من التجديد ٦٧

الفصل الثالث

المنعطَف الكبير في القرن الثاني عشر ٧١
العالم الإسلامي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ٧١
انتحار ثقافي ٧٦
مثقف «ملتزم» ٧٨
المتصوفة ضد العلم ٨٠
عملاق من عمالقة الفكر ٨٢
مشكلة السلطة ٨٦
التاريخ يعيد نفسه ٨٨
عالم جامد ٩٢
سخرية التاريخ ٩٧

الفصل الرابع

صعود الغرب ١٠١
آنية مستطرقة ١٠٢
إسهام العرب في الحضارة الغربية ١٠٥
دفن ابن رشد ١٠٧
العوامل الاقتصادية والاجتماعية ١١٠
الخوف من المطبعة ١١١
الروح العلمي ١١٥
عودة الفكر الإغريقي ١١٧

العلم والديموقراطية ١٢٢

الفصل الخامس

أتحديث أم لعنة ١٢٨
«سبات» مضطرب ١٢٨
سقوط غرناطة ١٣١
وسط العالم الإسلامي وشرقه ١٣٥
صعود العثمانيين ١٣٦
صدمة عنيفة ١٣٩
والغرب، بدوره... .... ١٤١
ردود الفعل الفكرية ١٤٣
من النظرية إلى الممارسة ١٤٥
السفر إلى المريخ! ١٤٨
خطيئة الصراطية ١٥١
الصراطيّة إغراء يراود الجميع... .... ١٥٣
اتهامات ومطالب ١٥٦
هل يمكن التحديث من دون هلاك؟ ١٥٩

الفصل السادس

الهوية الإسلامية والحداثة ١٦٤
ظلّ كارل ماركس ١٦٤
السياق الغربي ١٦٦
تعقيدات الحضارة التقنية ١٦٨
الأزمتان ١٧١
التراث والهوية ١٧٤
من النقيض إلى النقيض ١٧٧
مثال على التحوّل مع مراعاة التراث ١٨٠
التوفيق الممكن ١٨٢

تاريخ وخيال ١٨٦
جائزة نوبل المصرية ١٨٨
كيف يمكن زحزحة الجمود الذي يعطّل العالم الإسلامي؟ ١٨٩
ماذا يؤخذ من الغرب؟ ١٩٢
الاستمرارية الثقافية الحقيقية ١٩٤
الهوية الثقافية ١٩٦

الفصل السابع

آفاق للمستقبل ٢٠١
العرب أصل الملاحة الفضائية ٢٠٢
زحزحة الجبال ٢٠٣
اللباس يصنع الملا ٢٠٥
كفوا عن النظر في المرآة العاكسة ٢٠٦
«المتغَرْبِن» (*L'occidentalite*) ٢٠٨
«ثقالات» العالم الإسلامي ٢١٠
أندريه جيد ودور المثقفين المسلمين ٢١٢
المسلمون في الغرب ٢١٦
الغرب والعالم الإسلامي ٢١٨
ماذا يمكن للغرب أن يفعل لفك عطالة العالم الإسلامي ٢٢١
مسألة زائفة ٢٢٣
الرهان الحقيقي ٢٢٥
«إسلام متحجر» ٢٢٧
إسلامٌ «منفتحٌ وأخوي» ٢٢٨
ما العمل؟ ٢٣٠
الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية ٢٣٢
معركة ثقافية ٢٣٤

المقدمة

ألغاز العالم الإسلامي

في ختام الألف الثاني الميلادي، هذا هو العالم الإسلامي، من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي ومن جنوب شرق آسيا إلى قلب أفريقيا، يبدو في صورة من التخلّف المريع؛ فلا يزال المسلمون، وهم يعدّون بمئات الملايين، يعيشون في الفاقة، يتفشى فيهم الجهل وتنتشر بينهم الأمراض. تُرجَم الزانية في هذا البلد الإسلامي، وتُدَقّ أعناق العشاق في ذاك البلد الإسلامي الآخر، وفي بلد إسلامي ثالث تُقطع يد السارق، وفي بلد رابع يُجلد السكّير، وفي خامس يُغتال المثقّف، وفي سادس يُرمى به في السجون، وفي كل مكان تُفرض الرقابة على الكتب، وهذا حينما لا تُرمى طعماً للنار. وفي بعض البلدان الإسلامية تشجع الحكومات العمل الإرهابي، وتنظم عمليات خطف الرهائن... وفي الجملة، يتحكم القمع والاستبداد بمصير المسلمين، من دون أن تفلح مآثر النفط وظلال ناطحات السحاب والمصانع الجاهزة، من ألِفها إلى يائها، في إخفاء انتهاكات حقوق الإنسان[١].

١- الأمثلة كثيرة على انتهاك حقوق الإنسان. نذكر من بينها: المفكّر السوداني محمود محمد طه الذي أعدمه الطاغية النميري في العام ١٩٨٥ وهو في السادسة والسبعين من العمر، وذلك لأنه احتجّ على تطبيق بعض أحكام الشريعة (كالجلد وقطع اليد والرجم، ...الخ)؛ وعلى مستوى أقل وحشية، نذكر: منع الأقباط في مصر من تربية الخنازير؛ إرغام الفتاة الجزائرية منصورية هربيات من قبل أهلها في فرنسا على العودة إلى الجزائر، وإرغامها بالقوة على زواج ممن لا تحب (١٩٨٨)؛ منع رواية **ألف ليلة وليلة** في مصر بحجة أنها رواية «خلاعية»؛ ...الخ.

إلا أنه، وبرغم هذا كلّه، فقد كان العالم الإسلامي في بداية الألف الثاني الميلادي، بؤرة الازدهار ومنطلق التقدّم في العالم. وكانت إنجازاته تُضيء آنذاك سماء التاريخ؛ كان نتاجه العلمي وروح التسامح التي تسوده، موضعَ إعجاب العالمين.

ولكن ها هي تلك الحضارة المشرقة تخبو وينطفئ نورها وتكفّ منذ القرن الثاني عشر عن الإشعاع والتطوّر، ثم تغرق في التخلّف. فلماذا؟ كيف حدث هذا الانقلاب الفجائي؟ ذاك لغز من الألغاز التي تكتنف تاريخ العالم الإسلامي؛ وهو أحد ألغاز شتى تواجهنا كل يوم. ألا يثير التساؤل والاستغراب أن يعمد نظام الحكم الديني في السعودية، وهو الأكثر تشدداً وأصولية، إلى التنديد بـ«الإسلاميين»؟ أليس من المستغرب أن تقوم مصر وهي بلد ليبرالي نسبياً، فتمنع إعادةَ نشر كتاب **ألف ليلة وليلة**، إلا بعد حذف المقاطع التي اعتبرتها الرقابة الدينية «إباحية»؟ أليس غريباً أن يُفتي رجل دين من وزن آية الله الخميني بهدر دم الروائي سلمان رشدي؟ أليس عجيباً أن يُرغِم «العلماء» نجيب محفوظ، حائز نوبل للآداب، على سحب مأثرته الأدبية «**أولاد حارتنا**» من المكتبات؟ أليس غريباً أيضاً أن ينغمس المسلمون في حروب محلية أهلية طاحنة؟ ألا يبعث على التساؤل والحيرة أن تستسلم شعوب بأكملها لمشيئة متلاعبين بمصيرها، يريدون إدخالها في دوامة الدمار الذاتي، بدعوى العودة إلى الأصول؟

كيف يمكن تفسير هذه الأمور التي لا تنسجم مع استعداد العالم للدخول في الألف الميلادي الثالث؟ كيف يمكن فهم حالة التخلّف المهيمن على العالم الإسلامي اليوم، وكيف يمكن تفسيرها؟ ولا بدّ من القول، منذ الآن، إن الكلام عن المجتمعات الإسلامية ومؤسساتها القائمة على الشريعة الإسلامية والسنة النبوية أمرٌ غير يسير؛ فالتحليل النقدي يكاد يكون، في نظر المسلم، شتيمةً وكفراً. لذا، تلافياً لكل إشكال، فلن أتناول بالبحث والتحليل إلا الصعيد التاريخي وحده، ووحده فقط.

من هذا المنظور، تقودنا جميع الاتجاهات إلى النتيجة نفسها، وهي أن مسؤولية الوضع الذي تعاني منه المجتمعات الإسلامية إنما تقع على عاتق زعماء السياسة والدين الذين، بتحالفهم في القرن الثاني عشر، سجنوا المسلمين في شرنقة الانغلاق والأصولية والجمود. فمنذ ذلك الزمن القديم والمسلمون غير قادرين على التخلّص من أسْر التزمّت المعتقدي، على الرغم من الجهود التي بذلها بعضهم في القرن التاسع عشر، وعلى الرغم من محاولات «التحديث» أيضاً. ومن المؤكد أن الإسلام بالذات لا يتحمل، بوصفه ديناً، تبعات انتصار الأصولية وثباتها: فالقرآن هو في أساس ولادة الحضارة الإسلامية وتطورها؛ وإنما تأويلات الفقهاء الدينية، المُغرِقة في المبالغة والتشدّد، تعززها السلطات السياسية، هي التي عطلت مسيرة العالم الإسلامي على طريق التقدّم.

هل يفلح المسلمون في إدراك تخلفهم واستدراكه؟ تتوقف الإجابة على الخيارات التي سيعتمدونها خلال السنوات القليلة التي تفصلنا عن نهاية القرن العشرين هذه! وإلا فاتهم بعد ذلك قطار الثورة العلمية والتكنولوجية الذي سوف يمضي بسرعة لا يعود معها اللحاق به ممكناً. ولا تبشّر الحركات «الإسلامية»، في هذا السياق، بأي خير. فبدلاً من مواجهة الأمور، يتبادل أنصار التقليد وأنصار التجديد الاتهامات متجاهلين جميعاً وقائع التاريخ. ومما يزيد الطين بلة أن المثقفين الغربيين (معظمهم على كل حال) يتغنّون بفضائل إسلام يتخيّلونه تخيُّلاً. لذا، لا بدّ من عملٍ جادّ يوضح الأمور، ويُزيل عنها اللبس وينزع الأوهام. ولأني مقيم في الغرب، فإن أصول اللياقة تقتضي مني أن أبدأ بحثي هذا ببيان التصورات الشائعة لدى من أنا ضيف بين ظهرانيهم.

الإسلام الذي يخيف...

حتى الأمس كان الإسلام موضع افتتان الغرب. فقد أدّت تصفية الاستعمار، في الخمسينيات والستينيات، إلى انحسار الصراعات القديمة؛ وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٢ اعترف المجمع الڤاتيكاني الثاني رسمياً برسالة القرآن التوحيدية. وكان المستشرقون يقدمون صورة عن العالم الإسلامي متسامحة مسالمة، لدرجة أن عدداً كبيراً منهم اعتنق الإسلام. ثم جاء الخميني فقلَب، بين ليلة وضحاها، كل شيء رأساً على عقب. ومع ذلك، هرول المثقفون الغربيون (وبخاصة اليساريون منهم) يتخذون موقفاً ـ وما أسرعهم في اتخاذ المواقف! فنظراً إلى أن كلمة «ثورة» كانت ولا تزال تسحرهم وتخلب لبّهم، وهي عينها التي كان يتباهى بها إسلاميّو طهران، فقد بادروا يدخلون الخميني محراب الحرية والتقدّم. فميشال فوكو كان يُبدي إعجابه بتلك الثورة ويقول: «إنها محاولة لفتح ثغرة روحانية في جدار السياسة»[١]. لكن الأحداث الدامية في بعض الأحيان، والعنيدة في كل حين، كانت تتلاحق وتتراكم: الإعدامات الجماعية، قمع الأكراد، الدعوة إلى الجهاد المقدّس، خطف الرهائن، ... الخ. وهكذا، ما لبث المتملّقون أن تراجعوا إلى مواقف أكثر تحفظاً، فصاروا يفرّقون في كلامهم بين إسلام «حقيقي» وإسلام «مزيّف»، ويتحدثون عن «ثورة استولى عليها الملالي».

١- راجع مجلة Le Nouvel Observateur ١٦ تشرين الأول-نوفمبر ١٩٨٧. إن ما فعله فوكو يشبه إلى حد بعيد، ما فعله سارتر وسيمون دي بوفوار اللذان ـ في مقالاتهما التقريظية التي امتدحا فيها الاتحاد السوڤياتي، بعد زيارتهما له في فترة ما بعد الستالينية ـ اتهما لازاريف Lazaref وزوجته بأنهما استندا في تحقيقاتهما التي أجرياها في الاتحاد السوڤياتي على مقابلات وحوارات صحافية مع سائقي التاكسي. وقد ثبت اليوم أن مديرَيْ تحرير صحيفة فرانس سوار (France Soir) ومجلة إلّ (Elle) كانا أكثر صلة بالواقع وأقرب إلى الحقيقة من الفيلسوف وصديقته.

لم ينتبه أحد إلى أن الإيرانيين (شأنهم في ذلك شأن شعوب إسلامية أخرى سبقتهم أو لحقتهم) مثّلوا على مسرح التاريخ، بثورتهم هذه، «سيناريو» كتبه فقهاء القرن الثاني عشر وأخرجه متعطشون إلى السلطة. أما مثقفوهم (الانتلجنسيا)، الذين أعماهم الحقد على نظام الشاه (وهو نظام لم يكن، على أية حال، أكثر بطشاً من أنظمة أخرى) فلم يروا الجدار الذي كانت تتكسّر عليه أمواج الآمال في الحرية والليبرالية، موجة بعد الأخرى. ومع ذلك، تكررت الظاهرة نفسها، مع فروق بسيطة، في باكستان والسودان وأفغانستان والجزائر.

واليوم كما بالأمس، ومنذ أربعة عشر قرناً، لا يزال الإسلام يثير المخاوف في الغرب. وثمة ما يثيرها حقاً: رهائن، اغتيالات، متفجرات، تهديدات، إرهاب أعمى... أعمال عنف تستثير بالمقابل ردود فعل غالباً ما تكون متطرفة هي الأخرى، وباعثةً لنزاعات وصراعات تعود إلى القرون الوسطى، كالعنصرية وإلقاء التبعات والمسؤولية على جماعات المهاجرين والعمال الأجانب... الخ. ففي العام ١٩٧٩ صرح الآية الله: «ستكون الحرب المقبلة حرباً بين المسلمين والمسيحيين». وعلى الفور نشط المنجمون والدجالون في الغرب، فادعوا أنهم اكتشفوا صحة النبوءة المشؤومة في رباعيات نوستراداموس! فالأصوليون، بدعوتهم شعوبهم للعودة إلى القرون الوسطى، يسعون في الوقت نفسه إلى دفع العالم كله للمشاركة في هذه العودة. ويبدو أنهم ينجحون في سعيهم هذا: فـ«ذوو الرؤوس الحليقة»، المتظاهرون في ألمانيا، لا يتركون مجالاً لـ«ذوي اللحى» الحاقدين في شوارع طهران والجزائر وإسلام آباد وغيرها، ليعتبوا عليهم وليبزّوهم في «العقلية البدائية». وهكذا، يُصيب اليمينُ نجاحاً مطرداً في النمسا وفرنسا، ويقوم أنصاره بقتل العرب في «حوادث متفرقة»، ...الخ.

أي إسلام؟

لكن عن أي إسلام نتحدث؟

خلافاً لرأي شائع، ليس الإسلام أحادي الوجه ولا مقدوداً من قدّة واحدة: فمنذ فجر الإسلام تعددت تفاسيره وتأويلاته. وعلى الرغم من غلبة الاتجاهات الأصولية منذ القرن الثاني عشر، بقيت الفروق قائمة في أوساط المفكرين المسلمين وحلقات الصوفية. غير أن أولئك الذين يستفيضون في الحديث اليوم عن الإسلام، ويلقون فيه المحاضرات والخطب المطوّلة، لا يحفلون بهذه الأمور «المستدقة». ومن هنا كان مصدر سوء الفهم.

إن ما يبعث مخاوف الغرب هو بلا شك الإسلام الجهادي. بيد أن الغريب في الأمر أن هذا الإسلام يثير أيضاً مخاوف زعماء مسلمين ــ كالسعوديين مثلاً ــ يدعون إلى الأصولية، ويطبّقون الشريعة الإسلامية تطبيقاً حرفيا. ذلك أن «المجاهدين» في سبيل الله لا يستهدفون «الكفار» الغربيين وحدهم، بل يستهدفون، وعلى نحو متزايد، الحكّام المسلمين الذين يتهمونهم بالفساد والتحالف مع «الأعداء» اليهود والنصارى. والواقع أن الأوهام الفردية والجماعية تكثر بين المسلمين: عرفات، مثلاً، راهن على انتصار صدام حسين، وهذا الأخير ما كان يتراءى له أن الأميركيين جادّون في استعادة الكويت، و«الإسلاميون» الباكستانيون والأفغانيون والجزائريون على يقين من أن العودة إلى شريعة «السن بالسن والعين بالعين» هي الحل النهائي والأكيد للمشكلات السياسية والاقتصادية جميعاً...

ليس التطرّف وقفا على العالم الإسلامي وحده: فالقومية الإرلندية، والصراعات الإثنية بين الصرب والكرواتيين، والعصابات الإرهابية، والحركات العنصرية... جميعها متطرفة. بيد أن توافر حرية التعبير وحقوق الإنسان واستقلال السلطة القضائية وأجهزتها حيال السلطات الأخرى في البلدان الديموقراطية ــ وكلّها

من شأنها أن تحدّ من خطر السير في ركب العنف ـــ لا وجود لها في البلدان الإسلامية؛ فالقادة في هذه البلدان ليسوا متسامحين، ولا يطيقون الحوار، ولا النقد بصورة خاصة! فمنذ وقت قريب أجاب رئيس دولة عربية حين سُئل عن السجناء السياسيين في بلاده: «لا يوجد في سجوننا سجناء سياسيون، بل يوجد خونة». ولعلّه لا يعلم أنه أجاب بالإجابة نفسها التي سبقه إليها شاه إيران قبل عشرين عاما. وحينما يُسمَح بالمعارضة، فلا يُسمح لها بممارسة نشاطها إلا ضمن حدود ضيقة جداً. لذا، يتزايد نزوح المعارضة أكثر فأكثر إلى البلدان الغربية لتعبّر فيها عن آرائها، في ظل ما تتيحه لها الحريات الدستورية؛ فثمة نفر كبير من الانتلجنسيا والمثقفين المسلمين يعيشون في عواصم أوروبية وأميركية حيث يتسلّون بنقد زعماء بلدانهم، وكذلك بنقد قادة البلدان التي يقيمون فيها!

ما هي مآخذ المسلمين على أنظمة بلدانهم السياسية وعلى أنظمة الحكم في الغرب؟ يمكن إيجازها بما يلي: أنظمة بلدانهم تابعة وخاضعة للأنظمة الغربية التي تسببت، عن سابق وعي وتصميم، في تخلّف المسلمين، ولا تزال تعمل على إبقائهم في حالة من التخلّف، وتخدم مصالح إسرائيل والصهيونية!

لا ريب في أن العالم الإسلامي غارق في التخلّف الاقتصادي على الرغم من ثرواته النفطية الهائلة. ولا شك أيضاً في أن معظم زعمائه يغازلون الحكومات الغربية، وأن أنظمته تقليدية ومستبدّة، باستثناء عدد قليل جداً منها. وسواء أكانت هذه الأنظمة ملكية أم دكتاتورية عسكرية أم مدنية، فإنها لا تسمح للمواطنين (أو تسمح لهم ولكن إلى حد ضئيل جداً) بممارسة أدنى حقوقهم. ويتوقف عمر الحكومات وبقاء الحكّام في السلطة على مدى لجوء المواطنين إلى العنف؛ فهمّ الحكام الأول هو البقاء أطول مدة ممكنة في السلطة. ولا ريب كذلك في أن الاستعمار والإمبريالية نهبا خيرات البلدان الإسلامية وثرواتها زمناً طويلاً، ودعما الحكام الذين تمقتهم شعوبهم، وعملا على إبقائهم في السلطة أطول مدة. غير أنه ينبغي ألا ننسى أنه لا يمكن استعمار إلا ما هو قابل

للاستعمار(•). لذا، فإن المسألة الفعلية التي ينبغي البحث فيها، هي التالية: ما الذي أوهن العالم الإسلامي وجعله ضعيفاً إلى هذا الحدّ؟

وهم التآمر والمؤامرات

غالباً ما يعزو المسلمون المآسي التي تحلّ بهم إلى الأعداء في الخارج، أي إلى الغرب المسيحي والصهيونية العالمية. ولا شك في أن دولاً قوية وشركات اقتصادية هائلة تسعى إلى احتلال مواقع تضمن مصالحها في مختلف البلدان، عبر التدخل في شؤونها الداخلية على نحو مباشر أو غير مباشر. فالمناورات الخارجية والدسائس الأجنبية أمر قائم ولا ريب فيه. إلا أن ذلك لا يصلح تفسيراً دائماً لكل شيء، لاسيما أن ذلك التدخّل لا يحالفه النجاح إلاّ بفضل تأييد البعض من الداخل، وإلاّ لأن هذا الداخل قابل لمثل ذلك التدخل.

إن قصور نظرية التآمر تلك، حتى وإن وُجدت لها بعض المبررات، يكمن في كونها تحول دون ممارسة النقد الذاتي (وهي ممارسة نادرة الوجود في العالم الإسلامي) الذي هو بوابة الخلاص. إن إلقاء اللوم والتبعات على الخارج يرفع كل مسؤولية عن الحكام والمسؤولين في الداخل. ولا يتوانى العالم الثالث في جملته عن التمسك بذلك الوهم؛ فلا يستغربَنْ أحدٌ إذن، إذا استخدم الحكام المستبدون هذا الوهم واستغلّوه إلى أقصى حدود الاستغلال. حتى الأنظمة الديمقراطية لا تنجو من مغريات هذا الوهم: ففي الولايات المتحدة يسود الاعتقاد بأن الأزمة الاقتصادية ناتجة عن المنافسة اليابانية غير المشروعة، كما يسود البلدان الأوروبية اعتقادٌ بأن هذه الأزمة سببها العمال المهاجرون. غير أن هذه

•- مقولة المفكر الجزائري مالك بن نبي: «قابلية الاستعمار» (راجع مؤلفاته، ضمن سلسلة «مشكلات الحضارة»: الصراع الفكري في البلاد المستعمَرَة، شروط النهضة، دور المسلم ورسالته، ...الخ).

الآراء في البلدان المتقدمة هي مجرّد آراء بين أخرى كثيرة غيرها تناقضها وتنقضها؛ فالصحافة تحفل بآراء تذكّر على الدوام بالمسؤوليات الجسيمة في الداخل. أضف إلى ذلك أن الصحافة والخصوم السياسيين لا يتوانون عن التذكير بالمسؤوليات الداخلية.

خلافاً لذلك، نجد في العالم الإسلامي رغبة جامحة في تبرئة صدام حسين من جرائر أعماله بالقول بأنه كان ضحية مؤامرة أميركية ـــ صهيونية. والأدهى من ذلك أن صدام حسين نفسه انتهى إلى الاقتناع بصحة ذلك: فهو لا يبدي أي ندم على ما لحق بشعبه من آلام وعذابات بفعل ما اقترفه من أخطاء سياسية واستراتيجية قاتلة. في العام ١٩٤٥ عمد هتلر وبعض جنرالات اليابان إلى الحكم على أنفسهم بالإعدام، ونفّذوا الحكم وانتحروا. إلا أن القيم البدوية لا تنطوي على فضيلة شبيهة بفضيلة الانتحار اليابانية (هارا كيري). يحفل تاريخ العالم الإسلامي برؤساء دول علّلوا هزائمهم بالاستناد إلى نظرية التآمر: ويكفي أن نذكر جمال عبد الناصر الذي عزا كل مصائب النكبة إلى التحالف الإسرائيلي ـــ الأميركي، كذلك شاه إيران الذي اتهم الشركات النفطية الكبرى بالتآمر لإسقاطه عن العرش. أما «الإسلاميون» فإنّهم، على اختلاف مشاربهم، لا يتحدثون إلا عن مؤامرة كبرى، عمادها الغرب المسيحي-اليهودي، تهدف إلى إلغاء الإسلام ومحوه عن وجه الأرض.

ومهما يكن من أمر التآمر الخارجي واتساعه وتلاحق وتيرته، فإن الأسباب الداخلية هي أساس العلّة في معظم الأحيان، وهي المسؤولة بخاصة عن جمود الحضارة الإسلامية التي توقفت فجأة في القرن الخامس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وتحوّلت عن خطّها الصاعد لتشرع بالانحدار السريع.

فماذا حدث بالضبط بين منتصف القرن الحادي عشر ومنتصف القرن الثاني عشر؟ أمور شتى في آن معاً، وفي ميادين مختلفة: سياسية، دينية، اقتصادية، ثقافية واجتماعية... لكن الحدث الأكبر، الذي كان في رأيي حاسم

الأهمية لأنه وقع في أقطار العالم الإسلامي كافة، هو التحالف «الموضوعي» بين السلطة ورجال الدين؛ فقد كان من شأن هذا التحالف أن يجعل المجتمع سجين بنية جامدة تقوم على تفسيرٍ ضيّق للدين، وعلى تأويلات متزمتة.

هكذا، فجأةً، بلا مقدّمات ومن دون أي إنذار، تخلّى العالم الإسلامي عن إنجازاته ومكتسباته جميعاً، وانغلق على نفسه كما لو أنه بات في إناء محكَمِ الإقفال؛ عطّل نفسه بنفسه؛ وعوضاً عن الاستمرار في التطور، أخذ يراوح مكانه ويدور حول نفسه.

بيد أن احتكاك العالم الإسلامي بأوروبا المصنِّعة والمحارِبة دفعه إلى الأخذ بالحداثة؛ فقامت فيه بضع محاولات للتحديث. على أن التزمت ظل مهيمناً داخل العالم الإسلامي، برغم بعض الإصلاحات التي كان لا بد منها. وما زالت المواقف الفقهية والدينية التي ترسخت في القرن الثاني عشر هي هي، يتمسّك بها فقهاء الشرع والشريعة كالعميان، فلا يتوانون عن إدانة أية مخالفة لتلك المواقف مهما كانت طفيفة. هذا التزمت في مواجهة عالم غير إسلامي، سريع التطوّر، يفسّر الظهور الشاذ للاتجاهات والمسالك التي ذكرتها أعلاه.

ليست الحركات الإسلامية، التي تُقلِق الغربيين والحكام العرب على حد سواء، بجديدةٍ، ولا هي تختلف كثيراً عمّا حدث في الزمن الماضي؛ وإنما هي النّبْتُ نفسُه، وقد فرّخ من جديد في ظروف مؤاتية! والفارق الوحيد بين المواقف الإسلامية في الماضي والحركات الإسلامية اليوم هو الصدى الإعلامي الواسع الذي يحظى به نشاط «الإسلاميين» من قبل وسائل الإعلام كالتلفزيون والراديو والصحافة المكتوبة... لذا ينبغي ألا تخدعنا نجاحاتهم المباغتة؛ فالشعوب لا يمكن لها أن تعيش في حالة استنفار دائم؛ والتقيد بالقوانين الصارمة يتراخى لا محالة مع الزمن؛ والأصولية الإسلامية، شأنها في ذلك شأن كل صراطية دينية أو علمانية، تنام بين الفينة والفينة، لتصحو بعد ذلك وتنتفض فجأة. من هنا منشأ الانطباع بأن كل هبّة تنطوي على جديد ما، أو تبشّر بيقظةٍ ما.

«إسلاميّ» من القرن الرابع عشر

في ما يلي بعض الأمثلة التي تُثبِتُ ذلك: ليس من قبيل المصادفة أن يجعل «الإسلاميون» مرجعاً لهم فقيهاً أصولياً متشدداً، هو ابن تيمية الذي عاش في دمشق (١٢٦٣-١٣٢٨)، والذي لا يعترف إلا بشريعة عمادها القرآن بحرفيته والحديث النبوي بحذافيره. كان عدواً لدوداً لكل اجتهاد أو تجديد، نزق الطباع، شديد التقشّف، لا يبالي بضعف الإنسان وعجزه، ولا تأخذه رأفةٌ حيال شيء البتة. قضى شطرا طويلا من حياته يحارب فكر ابن عربي، «أحد أهم فلاسفة التصوّف في كل العصور»[1]، مكرّساً معظم كتاباته للتنديد به. كان لا يعرف التسامح؛ فقد أفتى بقتل عربي مسيحي متّهمٌ بشتم النبي (قبل سبعة قرون من فتوى الخميني بقتل سلمان رشدي)؛ غير أن الحكام اكتفوا في ذلك الوقت بإلقاء المتّهم في السجن، تفادياً للفتنة بين الطوائف.

كان ابن تيمية هذا مرجعاً لأصوليّ إسلامي آخر في القرن الثامن عشر، هو محمد بن عبد الوهاب (المتوفى عام ١٧٩٢). فقد سافر بين الحجاز وسوريا والعراق (وكانت آنئذ جزءاً من السلطنة العثمانية) واستفظع ما لاحظه فيها من «تراخي» العادات والتقاليد. وقد بدا له الإسلام، على ضوء ما كان يمارسه المسلمون في ذلك الوقت، ديناً منتهَكَ القدسية! فحمل حملة شعواء على كل ما رآه انحرافاً عن الأصول الدينية، ونذر نفسه لتقويم العوج الذي لحق بالدين «القويم». وبعد أن لفظته الأوساط المدينية لجأ إلى أرياف البدو، فاحتضنته قبيلة آل سعود التي كانت تسيطر على منطقة نجد وسط الجزيرة العربية. ثم تزوج بابنة شيخ القبيلة وحمل لواء الحرب ضد الهاشميين (أجداد الملك حسين ملك

١- تاريخ الفلسفة الإسلامية (بالفرنسية):

Henry Corbin, Histoire de la philosophie islamique, Bibliothèque de la Pléiade, tomes I, II, Gallimard, Paris, 1969.

الأردن) الذين ينتسبون إلى آل النبي، والذين كانوا يبسطون سلطانهم على مكة. وتمكن آل سعود من إنشاء مملكة «وهابية» استمرت لفترة من الزمن، إلى أن قام محمد علي باشا، والي مصر، بهدمها بإيعاز من السلطان العثماني، وشتت شمل آل سعود. وفي العام ١٩٢٥ عاد ابن سعود إلى رفع راية القتال من جديد، فطرد الهاشميين وأنشأ المملكة العربية السعودية، معتزاً بكونها «وهابية» نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب تلميذ ابن تيمية النجيب. وهكذا ما فتئ الأصوليون المعاصرون يتَّخذون مرجعاً لهم أفكارَ المتزمتين من قدامى الفقهاء.

أهي إذن استمرارية؟ كلا بالتأكيد! بل مراوحة في المكان نفسه بالأحرى، هذا إن لم تكن تقهقراً ونكوصاً. أو فلنقل: «إسلاموية ضد الإسلام»، حتى نستعير عنوان كتاب ألّفه قاض مسلم جليل القدر[1]. فكثرة من المسلمين وأصحاب الاختصاص الغربيين يرون في الحركات الإسلامية الأصولية نقيض الإسلام «الحقيقي»، لكنني لا أولي ذلك أهمية؛ ففي رأيي أن تخلّف العالم الإسلامي مسألة لا يمكن فهمها إلا إذا وضعناها في سياقها التاريخي.

سأعود، على امتداد صفحات هذا الكتاب، إلى أحداث قديمة لا تزال آثارها فاعلة في مستقبل المجتمعات الإسلامية جميعاً. أحد هذه الآثار هو العجز التام عن اجتياز عتبة التطوّر الاقتصادي والعلمي الحديث، وهو عجز ناجم أساساً عن عملية «تعطيل» للإسلام حدثت في نحو القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

١- راجع كتاب القاضي المصري الكبير محمد سعيد العشماوي، الصادر عام ١٩٨٩، بالعربية، في القاهرة بعنوان **الإسلام السياسي**، وبالفرنسية، في باريس بعنوان **الإسلاموية ضد الإسلام** L'islamisme contre l'islam، في العام نفسه.

تغييب التاريخ

عزل العالم الإسلامي نفسه بنفسه عن التاريخ في مرحلة معينة من مراحل تطوره، حين جعل نفسه سجين تصور أصولي لثقافته الخاصة، فنبذ منها كل ما لا يوافق ذلك التصور. كان ذلك انتحاراً فكرياً حقيقياً! إن الكشف عن أسباب هذا الانتحار وتبيان كيفية حدوثه يسعفان في فهم حمّى الأصولية الراهنة، وربما يساعدان أيضاً في العثور على علاج لها.

منذ وقت قريب أبدى أحد منظّري جبهة الإنقاذ الإسلامي إعجاباً «لا حد له» بالمسلمين العظام الذين استطاعوا أن «يوفّقوا بين القلم الأصولي وحدّ السيف» مثل ابن تيمية الذي «جمع بين قمة العلم الديني والعمل بلا ملل»[1]. هذا الإعجاب يوضح بما فيه الكفاية تحالف «السيف والعمامة» إن صحّ التعبير!

قد يردّ بعضهم بالقول إن النبي محمداً نفسه لم يتوانَ عن الانخراط في ساحات الوغى، وهذا صحيح. لكن النبي لم يكن قاضياً ولا فقيهاً، بل كان، خلافاً للمسلمين جميعاً، الأمس واليوم وغداً، يتلقى رسالته من الله! وهل يمكن تقليد من هو غير قابل للتقليد؟! أفليس معنى ذلك أن «الإسلاميين» الذين يدّعون تقليد النبي يقترفون إثم الاستكبار والاغترار، بل يقترفون معصية «الكفر» إذا اعتمدنا مصطلحاتهم هم أنفسهم؟

مهما يكن من أمر فسأبقى في نطاق التاريخ، وسأتحدث في الفصول الأولى من هذا الكتاب عن أسباب صعود الحضارة الإسلامية وأسباب انحدارها. وفي الفصول اللاحقة سأطرح مسألة البحث في ما إذا كان المسلمون قادرين على فك الكوابح التي تشلّ عالمهم وتعطّله، وعلى الانخراط في «التاريخ» تعويضاً عن ثمانية قرون من التخلّف.

إن أقل ما يمكن قوله في هذا الصدد هو أنه لا يمكن التقدم إلى الأمام

١- علي بلحاج، في حديث لمجلة: Politique international, automne 1990.

بالرجوع إلى الوراء، ولا يمكن الدخول في المستقبل بالعودة إلى الماضي! إن «العودة إلى الإسلام»، التي نجدها مدرجة في برامج الأصوليين جميعاً، هي بمثابة «برق خلّب»، لأن القرآن، شأنه في ذلك شأن التوراة والإنجيل، لا يقدّم وصفة جاهزة لنظام الحكم السياسي والتنمية الاقتصادية، ولا يتضمّن «كل ما ينبغي للمسلمين أن يتعلّموه»، وذلك لسبب بسيط، وهو أن القرآن يحثّ المسلمين على طلب العلم ويدعوهم إلى السعي وراءه أينما كان. وليس القرآن، كما زعم الخميني، «مائدة مُدَّت عليها مأدبة تكفي خلق الله جميعاً من إنسان وحيوان»[١]. لا يقدّم أيُّ دين وصفاتٍ جاهزةً في ميدان «الإدارة والأعمال»؛ فإدارة الاقتصاد الحديث علم جديد تماماً يتم تحصيله عبر الدراسات الجامعية.

لا مناص من أن تصل ذات يوم الثورة العلمية والتكنولوجية الرائعة والمتواصلة إلى المجتمعات الإسلامية، بطريقة أو بأخرى. ولكن لكي تصيب هذه المجتمعات أوفر قسط من فوائد هذه الثورة، عليها أن تتهيأ لها بأفضل التهيؤ؛ وستكون من هذا المنظور بحاجة إلى التعاون مع الغرب. ولن ينفع سُعارُ العداوة للغرب، الذي يعصف بالأصوليين، في تهيئة المناخ المؤاتي.

هل سيؤدي الجهاد «الإسلاموي» إلى مجابهات دامية؟ هل تَصدق نبوءة الخميني وتنشب الحرب التي بشّر بها بين الإسلام والمسيحية؟ يقول مؤدلج جبهة الإنقاذ الإسلامي الذي سبق ذكره: «في رأينا أن العلاقات مع الدول والشعوب في العالم الثالث تقوم على قناعة راسخة: ينبغي نشر الإسلام في العالم وبين جميع الأمم والشعوب».

لا أمتلك الكأس السحرية التي كانت تتيح لأبطال الأساطير الفارسية، والتي كانت تتيح لهم رؤيةَ المستقبل. بيد أنني أميل إلى رأي الفيزيائي نيلز بوهر Niels Bohr الذي كان يقول: «التنبّؤ صعب، وأصعبه التنبّؤ بالمستقبل»! ومع ذلك، فإن مراجعة التاريخ وقراءته قراءة نقدية تزوّداننا بمفاتيح مهمة في معرفة المستقبل.

١- أطلقها الخميني من مدينة قم، في العاشر من شهر كانون الثاني-يناير ١٩٨٠.

الفصل الأول

صعود الحضارة الإسلامية

كان التوسّع السريع الذي عرفته الإمبراطورية الرومانية وأتاح لها «بسط سلطانها على جميع أقطار المعمورة تقريباً، في مدى أقل من ٥٣ عاماً»، قد شغل فكر المؤرخ بوليبوس (Polybe) ودفعه إلى كتابة مؤلّفه الشهير[١]. فماذا كان عساه يكتب لو أنه شاهد الفتوحات العربية في النصف الثاني من القرن السابع؟! ففي حين كانت جيوش الرومان لا تُحصى عدّاً، كان المقاتلة المسلمون لا يعدّون أكثر من أربعين إلى خمسين ألف رجل، موزّعين على جبهات القتال جميعاً، في الشرق والغرب معاً. وقد أنشأوا، خلال نصف قرن، إمبراطورية أكثر اتّساعاً من الإمبراطورية الرومانية، عبر حروب خاطفة سريعة، كانت الخيل فيها والجمال بمثابة آليات مجنزرة!

إذا أضفنا سرعة تقدّم الفتح الإسلامي إلى سرعة نشوء الحضارة الإسلامية التي شملت مناطق متباينة ثقافياً، وأصقاعاً متعددة الانتماءات العرقية والإثنية، أفلا يصحّ الكلام عن «معجزة عربية» حقيقية، كما يقول بعض المؤرخين؟ لم يكن هيغل ليخفي إعجابه بتلك المأثرة حين كتب: «لم يسبق أن أسفر الاندفاع والحماس عن إنجازات بهذه العظمة». وقد سبقه قبل قرن من الزمن المستشرق الفرنسي غاستون ڤييت (Gaston Wiet) إلى تسجيل الملاحظة إياها، حينما كتب: «وتلك إحدى أروع الملاحم التي سجلتها البشرية في تاريخها»[٢].

١- بوليبوس، **التاريخ** (بالفرنسية):

Polybe, Histoire, Bibliothèque de la Pléade, Gallimard, Paris, 1970.

٢- **التاريخ الكوني** (كتاب جماعي، بالفرنسية):

Histoire universelle, tome II, Bibliothèque de la Pléade, Gallimard, 1957.

على أن العرب، بتوسعهم السريع هذا ــ وهم شعب صحراوي فظّ الطباع، ليست له تلك الثقافة الخارقة ــ كانوا يبدون للوهلة الأولى كأنهم غزاة برابرة يجتاحون حضارات زاهرة فيأتون عليها ويدمّرونها تدميرا. كما كان تدفقهم يبدو أيضا ضربة قاصمة للإنجازات الحضارية التي أنتجتها إمبراطوريتان في ذلك الزمن؛ فقد تعطّل الإنجاز الحضاري والإبداع الفكري والفني في هاتين الإمبراطوريتين وتوقف فجأة؛ لكنه سرعان ما عاد ينشط من جديد، وبحيوية أشدّ مما كان عليه من قبل؛ فما أن أطلّ منتصف القرن التالي حتى كانت الحضارة الجديدة تتفتّح وتُزهر رفيعة الشأن، غنية، مشرقة على العالم الممتد من نهر الهندوس حتى المحيط الأطلسي وجبال البيرينيه. فكيف يمكن تفسير هذه المعجزة؟ لا يكفي القول بأنها أعجوبة أو بأنها كانت عملاً من أعمال الخالق.

لنمضِ إذاً في نبش وقائع التاريخ، كي نفهم ما حدث.

الإيمان والغنيمة

كان مهندس تلك الحروب الخاطفة، ولنسمّه «رومل الصحراء الأول»، هو خالد بن الوليد الذي خلع عليه الرسول لقبَ «سيف الله المسلول». دخل خالد الإسلام في سن متأخرة، وكان أرستقراطي المولد والمحتد، بهيّ الطلعة، عاشقاً للنساء، محبّاً لأطايب الطعام واللحوم، وينتمي إلى قبيلة قريش[1]. وكان إيلاؤه

١- منذ مولِد النبيّ تزايدت أهمية قبيلة قريش (سمك القرش). وكانت قريش عشائر أهمها أميّة التي كانت تسيطر على مكة، مدينة التجارة ومقام آلهة يحجّ إليها أبناء الديانات الوثنية. أما النبيّ محمد فكان من هاشم التي منها يتحدّر العاهل الأردني الملك حسين، كما أن العاهل المغربي الملك الحسن الثاني يُعيد نسبه إلى سلالة النبي. وعلى مدى قرون كان الخلفاء ينتسبون إلى قريش، فكانوا من أمية في عهد الأمويين، ثم من هاشم في العهد العباسي.

الحسن في ساحات الوغى، والحظوة التي يلقاها عند النساء، يثيران حسد الكثيرين ويؤججان غيرتهم، ولاسيما عمر بن الخطاب الذي غدا فيما بعد خليفة المسلمين الثاني؛ فقد كان عمر يمقت خالداً، ويُضمر له الحقد والضغينة. وفي حين كان توحيد الجزيرة العربية يجري على قدم وساق لنشر الإسلام في ربوعها وترسيخه في قبائلها (وقد كانت هذه القبائل، تعيش قبل الإسلام، في غزو متبادَل وقتال دائمَين)، كان خالد بن الوليد يُحرز النصر تلو النصر، ويُدخِل المستسلمين والمهزومين، على يده، في دين الله أفواجاً.

وحدث أن وقع خالد في عشق زوجة زعيم قبيلة عربية استسلمت له وأسلمت. لكن خالداً ما لبث أن اتّهم الزوج بالارتداد عن الإسلام، فضرب عنقه. إذاك، أمرَ الخليفةُ خالداً بالتنحّي عن قيادة جيش المسلمين، لأنه قتل مسلماً بغير حق (ما كان المسلمون يقتتلون آنذاك بعد!).

وذات مرة، كان خالدٌ عائداً من إحدى حروب الفتح، ويهمّ بالدخول على الخليفة الأول أبي بكر الصدّيق، فاعترض عمر سبيله، في باحة مسجد المدينة، وانتزع من عمامته ريشةً (وكان عدد ريشات العمامة يدلّ على مستوى الرتبة العسكرية في قيادة الجيش). غير أن خالداً خرج من لقائه بالخليفة وقد ازدانت عِمّته بريشتين عوضاً عن الريشة التي انتزعها عمر، ممّا زاد هذا الأخير سخطاً وغضباً.

بعد شهر واحد، وكان خالد قد فرغ من فتح بلاد ما بين النهرين، أمره الخليفة أبو بكر بأن يخفّ لنجدة جيش المسلمين الذي كان يواجه صعوبات في فتح بلاد الشام. وكان اجتياز الصحراء في مدة أقصاها عشرة أيام هو بحدّ ذاته عملاً عسكرياً خارقاً: فقد اقتاد خالد بن الوليد قافلة من الجمال الهرمة، استخدم جوفها خزانات ماء لريّ الأحصنة، ثم استخدم لحمها قوتاً للمقاتلين. وبعد أن استولى على دمشق، هرع إلى فلسطين لقتال البيزنطيين. في ذلك الوقت بالذات، توفي الخليفة أبو بكر، وخلفه عمر بن الخطاب، فعزل خالداً على الفور.

ويُروى أن الرسول الذي بعثه الخليفة عمر إلى خالد لإبلاغه نبأ العزل، أبلغه النبأ ووطيس الحرب على أشدّه، فلم يكترث خالد للخبر، بل واصل القتال غير مبالٍ بما قاله المبعوث. فصرخ به هذا الأخير، بأعلى صوته: ويحك يا خالد، أما سمعت؟، فأجاب خالد: والله إني لأقاتل في سبيل الإسلام ولا أقاتل من أجل عمر.

تلك كانت عقلية المسلمين في ذلك الزمن؛ كان الإيمان يضاعف من قوتهم ويشدّ عزائمهم، تشحذها قيم بدوية كالشجاعة والتضحية؛ إضافة إلى المقتضيات الاقتصادية أيضا. وفي هذا الصدد يروي الطبري حادثة غريبة وقعت في مستهل عهد عمر بن الخطاب: فمن أجل تحريض القبائل وحثها على الانضواء تحت لواء الجهاد خاطب عمر شيوخ القبائل: [أيها المسلمون إن الله وعد رسوله بأن قومه سيفتحون سوريا وبلاد الروم وفارس، والله لا يُخلِف وعدَه. فسيروا إلى العراق](•). لم يستجب أحد من المسلمين لهذا النداء. فأعاد عمر الكرّة منادياً بينهم: [من باذلٌ نفسَه وماله في سبيل الله؟]، فلم يلقَ منهم جواباً. فلما كان اليوم التالي، أخذ عمر يعظهم بآيات من القرآن، ولكن من دون جدوى. وفي اليوم الثالث، ألقى عمر خطبة عصماء ليلهب الحماسة في قلوب الرجال ويحملهم على القتال، ولكن عبثاً... فابتأس عمر لتخاذل شيوخ القبائل وقال لهم: [منذ البداية، والحجاز يتاجر مع سوريا والعراق والحبشة واليمن، يأخذ منها الحنطة والفاكهة وبضائع أخرى... تلك كانت حياة الناس... أما اليوم، فالعالم كله عدوكم، فإذا تواكلتم وتخاذلتم عن قتال العدو فبادروه بالسلام، وإلا فلن يكون

•- بترجمتي وليس بنصّه؛ النصوص الموضوعة بين قوسين معقوفَين [...] هي في الأصل نصوص عربية نقلها المؤلّف مترجمةً إلى الفرنسية. والأصل أن تحقق هذه النصوص لتنقل بحرفيتها، لا أن تترجَم من الفرنسية. لكن المؤلّف يكتفي في بعض المراجع التي يعتمدها، بذكر اسم المرجع، من دون ذكر أية تفاصيل أخرى، كرقم الصفحة مثلاً أو رقم الطبعة ...الخ، ما اضطرني إلى ترجمتها من الفرنسية. أما النصوص التي قمتُ بتحقيقها، فمتحررة من القوسين المعقوفين. (المترجم).

لكم حياة ولا بقاء، في ظلّ الجوع والشقاء]. فلما بدا لهم ما سمعوه من عمر معقولا، أعلنوا جميعهم عن استعدادهم للالتحاق بجيش الجهاد.

إلى الإيمان الديني والضرورات الاقتصادية يضاف الطمع في الغنيمة التي كان قسم منها يذهب إلى الخليفة (بيت مال المسلمين) والباقي يتقاسمه المقاتلون وقادتُهم. يروي الطبري أن سعد بن أبي وقاص الذي كان على رأس الجيش العربي في بلاد فارس استولى على رداء القائد الفارسي، مع أن الذي قتل القائد الفارسي وظفِر بردائه هو مقاتل يدعى زهرة، وقد شكا زهرة هذا أمره إلى الخليفة فكتب عمر إلى سعد: «تعمد إلى مثل زهرة وقد صلّى بمثل ما صلّى به، وقد بقي عليك من حربك ما بقي، تكسر قرنه وتفسد قلبه، أمض له سلبه». وختم بأمره سعدا أن يزيد نصيب زهرة من الغنيمة خمسمائة درهم.

إمبراطوريتان قيد الاحتضار

واجه الفرس والبيزنطيون العربَ بتراخٍ وضعف، حتى أن القائد الفارسي رستم استعدّ للهرب عندما رأى أن الهزيمة واقعة لا محالة، كما يقول الطبري؛ فجعل ثروته كلّها على ظهر قافلة من ثلاثين جملاً كانت تنتظر بعيداً عن ساحة القتال. لكن مقاتلاً عربياً باغته، في غمرة عاصفة رملية، ودقّ عنقه. فكان نصيب هذا المقاتل من الغنيمة رداء القائد الفارسي الذي يبلغ «ثمنه ألف دينار، وثمن الحزام الذي يزنّره سبعون ألف درهم». كانت الانهزامية قد تفشّت في صفوف الفرس والبيزنطيين؛ فقد أنهكت الحروب هاتين الإمبراطوريتين طيلة قرون، واستنزفت طاقاتهما ومواردهما البشرية والمادية، فباتتا ظلاً لماضيهما العريق الذي أخذ ينهار منذ زمن. وكان رجال الدين المسيحيون والمزدكيّون يفرضون عقائدهم الدينية بقوة السيف ويقمعون بالحديد والنار كل انحراف عنها: كانت الأصولية تنهش الإمبراطوريتين كلتيهما، ولم تكن شعوبهما لتبدي أدنى حماس للذود عن أنظمة تسحقها بالضرائب الفادحة والقمع الدموي.

من ناحية أخرى، كانت ممارسات العرب جديدة، مختلفة عن ممارسات سواهم من المحاربين، فلم يفرضوا ديانتهم فرضاً على المهزومين في الحرب، بل كان هؤلاء يحتفظون بدينهم إن هم شاؤوا ذلك لقاء دفع جزية خاصة. يوضح ذلك نص استسلام الشام إلى خالد بن الوليد: [«بسم الله الرحمان الرحيم، هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها، أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شيئاً من دورهم. لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله (صلعم) والخلفاء والمؤمنين. لا يعرض لهم إلا بالخير إذا أعطوا الجزية»][١].

وقد غدا هذا النص بمثابة دستور استمرّ العمل بموجبه طيلة زمن الفتوحات.

إن روح التسامح التي تحلّى بها العرب ضَمِنت لهم تعاون الشعوب والجماعات التي رأت فيهم مخلّصين ومحررين لا غزاة! ففي حين كانت الحروب والغزوات في ذلك الزمن تدمّر كل شيء، كان العرب يحترمون الملكية الفردية ويترفعون عن إساءة معاملة الأهلين. فمنذ الفتوحات الأولى لبلاد ما بين النهرين (أرض السواد)، كان الخليفة أبو بكر يوصي الجنود المسلمين: «لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة (...) وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له »[٢].

لهذه الأسباب استقبل السوريون خالد بن الوليد بالترحاب والخطاب: «لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم»[٣].

وعلينا ألا ننسى أن نزعة المساواة بين البشر، والنزوع إلى العالمية

١- زوترمان، **الخلفاء الأربعة الأوائل** (بالفرنسية):

H. Zoterman, Les Quatres Premiers Califes, Paris, Sindbad, 1981.

٢- فيليب حتّي، **تاريخ العرب** (بالإنجليزية):

Philip K. Hitti, History of the Arabs, London & New York, 1960.

٣- فيليب حتّي (المرجع نفسه).

والكونية اللذين ينطوي عليهما القرآن، حملهما المسلمون في تلك الفترة من تاريخ الإسلام بصدق وأمانة عزّ نظيرهما.

التسامح وروح الانفتاح

لم تكن للعرب خبرةٌ في الحكم عندما وجدوا أنفسهم يحكمون مجتمعات ذات تراث عريق في نظام الحكم، وذات بنى اقتصادية وإدارية رفيعة، فتبنوا مؤسساتها، وأفادوا من خبراتها، واجتهد فقهاؤهم لتبرير هذا التبني بتفسيرهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بما يتلاءم وهذا الاتجاه.

لم يسئ العرب إلى أشكال التنظيم القائمة في البلاد التي فتحوها، بل أظهروا براعة ذرائعية فائقة في التعامل مع الواقع وتفهّمه. فقد اعتبروا مثلاً المزدكية ديناً من الأديان السماوية، على الرغم من أن ذكرها غير وارد في القرآن الذي أدان بالمقابل «عبدة النار» (التسمية التي تطلق بالعربية على الزرادشتيين). هكذا استمرت الأحوال كما كانت في السابق، باستثناء المناصب العليا في الحكم التي تبوّأها الخليفة والولاة والقادة. ونتيجة لهذا الغياب المرموق للإكراه، فسادت الطمأنينة وانصرف الناس إلى أعمالهم وأشغالهم... وأكثر من ذلك، إن العرب تمثلوا الثقافات المحلية وحملوها معهم عندما يمّموا وجههم شطر الغرب.

وعلى الرغم من أن العرب كانوا واثقين من كونهم حَمَلَة «الرسالة الحق»، آخر رسالة يرسلها الله إلى البشر، فإنهم لم يستهينوا بالحضارات غير الإسلامية، ولم يستخفوا بها؛ فقد ورثوا حضارات كانت لها أمجاد عريقة، غذّتها الحضارة الإسلامية بدم جديد وأتاحت لها تطوراً جديداً؛ وارتسمت دائرة واسعة لتداول الأفكار وتلاقحها عبر عملية توحيد لأقاليم مترامية الأطراف من خلال الدين واللغة الرسميّين. ومن هنا كان ذلك الغليان الفكري الذي أنتج المآثر الفلسفية والعلمية المعروفة.

أذكر على سبيل المثال نموذجا على انفتاح الذهنية العربية في القرون الأولى من الإسلام، هو الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور (٧٥٤-٧٧٥): فقد أكرمَ أحد علماء الفلك والرياضيات، وهو هندي كان يزور بغداد، ثم بعد أن سمع منه الشرح ووقف على سعة علمه، أمر على الفور بترجمة مؤلّفاته في الرياضيات وباعتماد نظام العدّ الذي يتضمن الرقم صفر، وهو النظام الذي أطلقت عليه أوروبا فيما بعد تسمية «الأرقام العربية»[١]. وقد فتحت الأفكار والمناهج الهندية آفاقاً واسعة في ميادين الفلك والجبر وعلم المثلثات (trigonométrie) والعلوم الأخرى. وقد وضع الخوارزمي، وهو عالم مسلم من أصل فارسي، كتاباً شرح فيه، بالأمثلة العلمية، كيفية استخدام «الرياضيات الجديدة»، وهو بعنوان «الجبر والمقابلة». وقد احتفظ المترجم اللاتيني بالعنوان كما هو بالعربية، ولذا دخلت في اللاتينية كلمة الجبر نفسها (Algèbre). أما اسم الخوارزمي فقد حُرّف ليغدو باللاتينية ألغوريتم (Algorithmes)!

لا يشار بما فيه الكفاية إلى أهمية هذا الانفتاح على العالم الذي تميّز به الإسلام في عصوره الأولى، والذي بات اليوم عديم الوجود (وبخاصة لدى الحركات الأصولية التي تسعى إلى إحكام قبضتها أكثر فأكثر على المجتمعات الإسلامية)؛ فإلى ذلك الانفتاح تُعزى أسباب الازدهار السريع الذي عرفته الحضارة الإسلامية. فالفاتحون العرب الذين كانوا يستقرون ويقيمون في البلدان التي يدخلونها فاتحين، كانوا قلّةً من حيث العدد، لأن معظمهم كان يواصل الفتح سواء في اتجاه الغرب أو في اتجاه الشرق؛ لذا لم يكن بمكنتهم أن يحكموا تلك البلدان، من دون أن يضعوا في حسبانهم أماني الشعوب المحلية وتطلعاتها. وقد

١- ابن الآدمي، **عقد الدرّ**، ذكرته المستشرقة الألمانية سيغريد هونكه في كتابها **شمس الله تسطع على الغرب**. راجع الترجمة الفرنسية: Le soleil d'Allah brille sur l'Occident, Paris, 1963. وحول سبب تسمية «الأرقام العربية» بهذا الاسم تكفي مقارنة الأرقام المستخدَمة في الغرب بتلك المستخدمة في الشرق.

احتفظ الإسلام في بداية صعوده بحيويته الثورية: ألم يكن الإسلام، في مستهلّ عهده، نوعاً من الانتفاض على أثرياء مكة، وردّ فعل على غزو قبائل البدو، وعلى تهتّك أهل المدن وسلوكهم الخليع؟

ما أن تخلّصت «خلايا الذهن» من البنى الصنمية التي تقمع العقول وتسحقها، حتى أخذت تعمل بنشاط لا مثيل له. تحررَ الفكر بعد أن ظلّ مكبلاً لزمن طويل، وانطلق العلماء بشغف وحماسة إلى البحث وإعمال الفكر، فشغلهم ذلك عن كل ما عداه، حتى عن أهلهم وذويهم. يُروى عن عالمٍ عاش في بداية القرن الثامن أن امرأته شكت إليه انشغاله الدائم عنها بتأليف الكتب بقولها له: [«والله، إن كتبك هذه لَهِي عندي أسوأ من ثلاث ضرّات»][1].

الحوار المفتوح

عاش العالم الإسلامي عصوره الأولى في مناخ حرية التفكير والتعبير، وكان مناخاً فريداً في ذلك الزمن. وقد امتدّت هذه الحرية إلى ميدان التأويل الديني (ولا يمكن تصوّر مثل هذه الحرية اليوم في العالم الإسلامي).

كيف يمكن تفسير هذا المناخ «التحرُري»؟ ثمة عوامل عدة يمكن الإشارة إليها: قبل كل شيء، لو تأملنا ــ ولو بنظرة سريعة ــ تاريخ الصحابة، وهم الجماعة المؤمنة التي التفّت حول النبي في المدينة، لرأينا كيف استنّ لهم النبي القوانين، ووضع القواعد انطلاقاً من حاجاتهم وأوضاعهم، بحرية لا تقيم وزناً لأي اعتبار يدعو إلى التحجّر والجمود، مثبتاً بذلك قدرةً رفيعة على التفكير الحكيم في التوفيق بين المقتضيات الدينية وحاجات الجماعة ومتطلّباتها المعيشية والحياتية. أما المؤسسات الجامدة وما يسمّى اليوم بـ«قدرة الإسلام على التحكّم بالنظام السياسي الاجتماعي» فلم توجد إلا بعد وفاة النبي. ولا نجد إلا إشارة

١- فيليب حتّي، مرجع مذكور.

باهتة إليها في النصوص المنزلة، وغالباً ما يردّد الفقهاء الآية المعروفة: «وأمرهم شورى بينهم». ويوم كان النبي على قيد الحياة كانت أقواله تعتبر بحد ذاتها تشريعاً لأنه كان هو من يتلقى الوحي من عند الله.

بوفاة النبي، تهشّمت الوحدة الهشّة التي ولدت مع الدين الجديد في الجزيرة العربية، فبادرت القبائل إلى طرد الولاة الذين عينهم النبي، وظهر الأنبياء المزيّفون في شتى أنحاء الجزيرة، كما ظهرت نساء «مقاتلات» دفعْنَ الرجال إلى القتال ضد جند المسلمين في المدينة. يروي الطبري، وهو من كبار مؤرّخي القرن التاسع الميلادي، أخبار امرأة تدعى سلمى أثارت المتاعب في وجه الخليفة أبي بكر. فسلمى هذه هي ابنة شيخ قبيلة متمردة، فلما وقعت في أسر الجنود المسلمين جعلها النبي أَمَةً لزوجته عائشة التي ما لبثت أن أعتقتها وأجازت لها زيارة قبيلتها. في تلك الأثناء توفي النبي؛ فلمّا بلغ سلمى خبرُ وفاته، أوعزت إلى قبيلتها بعصيان الخليفة أبي بكر. في بادئ الأمر لم يفطن خالد بن الوليد، الذي كان مكلّفا من الخليفة بحفظ النظام في الجزيرة، إلى خطورة نوايا سلمى، استخفافا منه بما يمكن أن تفعله امرأة. لكن عندما تعاظمت مقاومة هذه المرأة وأخذت الأمور تسوء، جرّد خالد عليها وعلى قبيلتها حملةً قادها بنفسه وقتل سلمى بيده. توضح هذه الحادثة، فيما توضحه، أن المرأة العربية كانت، في العهد الأول للإسلام، تعيش مناخاً من الحرية والتحرر لا نجد لهما اليوم مثيلا! حتى أن زوجة النبي عائشة لم تكتفِ، بعد وفاة زوجها، بالتدخل في الشؤون السياسية، بل عمدت إلى الإشراف بنفسها على سير القتال أثناء المعارك، كما حدث مثلاً في «وقعة الجمل» التي نشبت بين علي وخصومه، حيث تولّت عائشة إدارة هذه المواجهة من فوق هودج جملها.

واجهت الخلفاء الأوائل عقبات وصعوبات جديدة شتى. وبما أن هؤلاء الخلفاء ما كانوا يتلقون الوحي من السماء، فقد حاولوا تسويغ قراراتهم من خلال ربطها بالقرآن وتأويل آياته بما يلائم الوجهة التي يرتأون، مستندين في فعلهم التأويلي هذا إلى كونهم صحابة النبي. وفيما بعد، عمد الخلفاء اللاحقون

وولاتهم في مختلف الأنحاء، بمساندة الفقهاء، إلى إنشاء المؤسسات التي كانت الحاجة ماسّةً إليها. لم يكن العالم الإسلامي جامداً إذاً، بل استمر يتطوّر طيلة القرون الأولى التي أعقبت ظهور الإسلام.

من ناحية أخرى، ولكون الإسلام لا يعترف بوسيط بين الإنسان وخالقه، خلافاً لما هي حال المسيحية، فقد نشأ جدال كثير حول مسائل مختلفة في أمور الدين والكتب السماوية. فنشأت منذ القرن الثامن أربعة مذاهب فقهية لا تزال قائمة إلى يومنا هذا[١]. كان المفسّرون والفقهاء يعرضون آراءهم ويشرحون أفكارهم في المساجد حيث كان لكل منهم عمود يتحلّقون حوله، ويختلف إليه المعارضون والأتباع على السواء؛ وكان الحوار يدور حتى بين حلقة وأخرى. وكان يحدث أيضاً أن يدعو الخليفة أتباع الديانات التوحيدية إلى تطارح الآراء والحوار في أفضلية الإسلام على اليهودية والنصرانية. وهكذا كانت أجواء الحوار والنقد تشكل تربة خصبة لنمو الآراء وتعدّدها النسبي، كما كانت ضمانة

١- المدارس الفقهية أو المذهبية الأربع، وهي:

- المذهب الحنفي (مؤسسه أبو حنيفة، المولود في الكوفة، العام ٨٠٢) ويذهب إلى أن مصادر التشريع والأحكام القضائية هي: القرآن وسنة النبي وإجماع الرأي والقياس على الأحكام والآراء التي صدرت عن النبي والصحابة.
- المذهب المالكي (مؤسسه مالك بن أنس، المولود العام ٨١٧) وهو يُقرُّ مصادر التشريع في المذهب الحنفي، لكنه يُضيف إليها ما يسمّيه الاستحسان (مجموع القواعد التي تقتضيها المصلحة العامة وتُمليها الضرورات الظرفية).
- المذهب الشافعي (مؤسسه الإمام الشافعي المولود العام ٨٧٢) لا يعترف إلا بالقرآن والسنّة مصدرين شرعيين للتشريع. لكنه يُضيف إليهما الاستدلال (الرجوع في ما ليس فيه نص إلى ما فيه نص).
- المذهب الحنبلي (مؤسسه ابن حنبل المولود العام ٨٨٦) وهو أكثر المذاهب تشدداً وتزمتاً. وتأخذ بهذا المذهب المملكة العربية السعودية وتطبّق أحكامه. ومن ابن حنبل استقى كلٌّ من ابن تيمية وابن عبد الوهاب.

للحيلولة دون تعطّل الفكر وجموده. ومن بين المذاهب الدينية التي ظهرت في القرون الإسلامية الأولى، نذكر منها بخاصة مذهب المعتزلة، وهو تيار كان يعطي الأولوية للعقل ويشدد على مبدأ المسؤولية الفردية، ومذهب الأشعرية (نسبة إلى مؤسسه الأشعري) الذي كان يتمسك بأهداب السنّة.

كانت المعتزلة تؤمن بمبدأ وحدانية الله المطلقة، على الضدّ من مبدأ «التثنية» في المزدكية ومبدأ «التثليث» في المسيحية، وتسهم في إذكاء المناقشات التي يعقدها كبار العلماء في المنازل (وهذا دليل إضافي، إذا كان الأمر يحتاج إلى دليل إضافي، على تعدد الآراء في تلك الفترة من تاريخ الإسلام). وكان المعتزلة يبذلون قصارى جهدهم لدحض مقولة «أزلية القرآن» التي تعني أن القرآن موجود منذ الأزل في السماء (وهذا أمرٌ مهمٌ جداً، لأن المقولة المذكورة تجعل النص القرآني عقيدة جامدة، خارج الزمان والمكان، وتحول دون تطوّر تفسير القرآن).

على النقيض من ذلك، كانت الأشعرية ترفض عقيدة خلق القرآن وتُصِرُّ على عقيدة أزليته وعلى مقولات السنّة ومواقفها. وكان الأشعري (المولود في العام ٨٧٣)، مؤسس هذا المذهب في الإسلام، ينتمي في صباه إلى مذهب المعتزلة، ثم ما لبث أن انشقّ عنهم بعد عزلة طويلة قضاها في التأمل والتفكير. وذات يوم دخل المسجد، وكان أئمة المعتزلة يتحاورون، فقطع حوارهم ليخبرهم بأنه كان يدعو إلى الاعتزال لأنه كان يقول بخلق القرآن، وأنه تخلّى الآن عن هذا المذهب وطلب أن يكونوا شهوداً عليه. هذا التحوّل في المواقف دليل قاطع على مدى تسامح المسلمين في ذلك الوقت مع الآراء المغايرة لآرائهم، وعلى مدى إيمانهم بالحوار والسجال الفكري.

زدْ على ذلك أن الدين نفسه كان يوصي، بشكل ما، بالانفتاح، لأن القرآن يعترف بالديانات السابقة على الإسلام كاليهودية والنصرانية، وينعت كلاً من هاتين الديانتين بأنها «دين كتاب». وصحيح أن محمداً، الذي جاء بعد موسى وعيسى، بشّر برسالة سماوية أحدث عهداً، وبات كلامه، باعتباره «خاتم الأنبياء» متقدماً على كلام الأنبياء الذين سبقوه، غير أن الديانتين السابقتين تتضمّنان

عناصر من الحقيقة قائمة على وحي إلهي لا يرقى إليه الشك. فكان لزاماً إذن أن تكونا موضع إجلال وتبجيل. وبالفعل، ظل اليهود والنصارى يتمتعون طيلة القرون الأولى من تاريخ الحضارة الإسلامية بحقوق المسلمين إياها، باستثناء دفعهم الجزية.

سوق واسعة وموحدة

ثمة أسباب سياسية واقتصادية أسهمت أيضاً في خلق هذا المناخ الليبرالي النسبي في العالم الإسلامي. فمنذ أواخر القرن السابع امتدّت سيطرة العرب على مناطق عديدة ومساحات شاسعة ذات طاقة إنتاجية زراعية وحرفية هائلة، مجهّزة بشبكة من طرق القوافل والموانئ البحرية، فكانت ديار الإسلام على تواصل تجاري مباشر مع البلدان غير الإسلامية.

وأثمرت اللغة العربية، التي غدت لغة التواصل التجاري والعلمي، صلات مباشرة بين شعوب البلدان المختلفة، وحوّلت هذا العالم الواسع إلى سوق مشتركة واسعة حتى من قبل أن يقبل الناس جماعات على اعتناق الإسلام. وعرفت المبادلات التجارية قفزة نوعية بفضل المراكز التجارية في المدن التي تصل بينها طرق القوافل، وتعدّدت طوائف التجار وتنوعت أعمال التجارة، فازدهرت أولا داخل ديار الإسلام ثم مع «بلاد المشركين»، وتحولت الخلافة إلى مركز يجمع بين أطراف التجارة الدولية في ذلك العصر.

على صعيد آخر، كانت السلطة الإسلامية تمارس نوعاً من الهيمنة الفعلية بفضل عملتها النقدية وثروتها الذهبية التي عظمت إلى حد هائل أثناء الفتوحات. يقول أحد إخباريي القرن العاشر إن مبعوث الخليفة الحكَم الثاني (قرطبة) إلى الغرب أخذته دهشة عظيمة عندما شاهد في يد تاجر في مدينة إكس لاشابيل قطعاً ذهبية مسكوكة في سمرقند قبل مائة عام. ويروي أيضاً أنه أثناء رحلته «تملّكه العجب لوجود أنواع من الأفاويه والتوابل في مدينة مايانس الواقعة

أقصى الغرب، وهي أنواع لا توجد عادة إلا في أقصى أقاصي الشرق كالفلفل الأسود والزنجبيل وأعواد القرنفل وجذور الخولنجان والقلقاس»[١].

استطاع العالم الإسلامي من خلال موقعه الجغرافي بين عالمين اقتصاديين واسعين (المحيط الهندي والبحر المتوسط)، وبفضل انفتاحه الفكري، أن يوحّد العالم الاقتصادي كله؛ فقد كانت تتنقّل بين أرجائه الواسعة البضائع على أنواعها والمنتوجات المختلفة: القطن، الأرز، السكّر، البرتقال، الورق، الحرير، ...الخ، وشهد حركة نقل واسعة ونشيطة شملت تبادل السلع والتقنيات والعلوم والأفكار!

بيد أن العالم الإسلامي كانت تعوزه الوحدة السياسية على الرغم من المظاهر التي قد توحي بعكس ذلك. فمنذ زمن مبكّر، كانت الخلافات تذرّ بقرنها بين القبائل العربية وتشق صحابة النبي وآل بيته. وبعد ذلك لم يتمكّن الخلفاء قط من بسط سلطانهم في أرجاء الخلافة كلها. ومنذ وقت مبكر أيضاً ظهرت دويلات أسستها سلالات محلية أفلح بعضها في إنشاء خلافات مناوئة. لكن بدلاً من أن تسيء هذه الصراعات والانشقاقات إلى نمو الحضارة الإسلامية، فقد أسهمت إلى حد بعيد في إذكائها وازدهارها. وللتثبّت من أن هذه مفارقة ظاهرية ليس إلا، يكفي أن نلقي نظرة سريعة على التاريخ.

الأمة المقسومة

توفي النبي محمد عام ٦٣٢ في المدينة قبل أن يتسنّى له تسوية مسألة خلافته في قيادة أمة المسلمين الصغيرة التي أنشأها. ولم تمضِ ساعاتٌ على وفاته حتى كان أبو بكر والد عائشة، أصغر زوجات النبي سناً، قد أرسى نظاماً للخلافة. وبديهي أنه ما كان يمكن لأحد أن يخلف النبي بوصفه رسول الله، وإنما كانت مهمة الخليفة أن يواصل الاضطلاع بوظيفته كرئيس للدولة وحامٍ

١- شمس الله تسطع على الغرب (مرجع مذكور).

للدين. وتلافياً للشقاق، ارتأى أبو بكر أن من المستحسن الأخذ بالتقاليد والعادات القبلية العربية: وهكذا اجتمع زعماء القبائل وشيوخها وبايعوه لأنه كبير السن وحمو النبي. بعد سنتين فقط توفي أبو بكر، فخلفه عمر، لكنه قُتل عام ٦٤٤ على يد مسلم من أصل فارسي، فانتقلت الخلافة إلى عثمان وهو من أمية، لا من هاشم (التي ينتمي إليها آل بيت النبي)، وإن يكن كلاهما من قريش.

مذّاك نشأت حركة معارضة احتجَّت على مبايعة عثمان بالخلافة، وبايعت مع بعض العرب والمسلمين الجدد علياً، صهر النبي وابن عمّه. وجمَعَ عثمانُ آيات القرآن في مصحف واحد هو القرآن الرسمي والنهائي. وقضى عثمان مقتولاً على يد جماعة من المسلمين جلّهم من مصر (٦٥١)، فحلّ عليٌّ محله في الخلافة. لكن والي الشام، معاوية، وهو من أميّة، اتّهم علياً بالتواطؤ مع قتلة نسيبه عثمان، وأبى مبايعته. وما لبث عليّ أن مات هو الآخر مقتولاً أيضاً (٦٥٦). وأفلح معاوية، بدهائه الذي لا حد له، في تبوُّء كرسيِّ الخلافة. وسرعان ما دبّت الخلافات داخل أمة المؤمنين بين أنصار معاوية وأنصار علي، ثم تطورت فيما بعد وتحوّلت إلى ما يعرف بالفتنة الكبرى بين السنّة والشّيعة. وما لبث معاوية أن جعل عاصمة الخلافة دمشق، واعتمد أساليب الحكم البيزنطية، وأسس دولة الأمويين التي انتقلت فيها الخلافة بالوراثة بين أبنائه وأحفاده.

لم يهدأ شيعة علي، يؤازرهم الفرس الذين لم تنطفئ شعلة حماسهم القومي، ولم يكفّوا عن مناوأة الأكثرية السنيّة دينياً، وعن مقاومة الخلافة الأموية سياسياً.

التشيّع والتسنّن

هكذا ولد التشيع الذي ما فتئ أهل السنة ينظرون إليه على أنه بدعة وهرطقة؛ فالقرآن، كما يرى أهلُ السنة، هو آخر رسالة بعث بها الله إلى البشر، لأن محمداً هو «خاتم الأنبياء». أما الشيعة فيرون أن عهداً آخر بدأ بانتهاء عهد النبوة والأنبياء، هو عهد الإمامة والأئمة. كما يرون أن القرآن، فيما يتعدّى

معناه الظاهر، يخفي معنى باطناً لا يدرك أسراره إلا الراسخون في العلم الذين بإمكانهم، وحدهم، الإفصاح عن مكنونها تدريجاً، وأن محمداً أوكل إلى علي وذريته القيام بهذه المهمة، كما أوكل إليهم قيادة أمة المؤمنين. لكن الإمام الثاني عشر اختفى مذ كان طفلاً، غير أن عودته مؤكدة وسيظهر مهما طالت غيبته ليملأ الدنيا عدلاً بعد أن ملئت جورا[1].

السنّة بدورهم نشأ عندهم، فيما بعد، تصوّر مختلف لـ«مخلّص» منتظر هو

١- الشيعة والإسماعيلية: تاريخياً، ارتبط التشيّع بالحركات السياسية التي كانت، بعد وفاة النبيّ، ترى أن الخلافة لعليّ ابن عمّ النبي وصهره. وقد تبوّأ عليٌّ الخلافة بالفعل العام ٦٦١، لكنه قُتِل العام ٦٦٦، فما كان من خصمه معاوية إلا أن نصَّبَ نفسه، في دمشق، خليفةً على المسلمين وأميراً للمؤمنين. أنكر أنصار عليّ الخلافةَ على معاوية، وعارضوه معارضةً شديدة، ما لبثت أن تحوّلت إلى عقيدة مذهبية.

الفكرة الأساسية في عقيدة التشيّع هي التالية: تقول السنّة إن النبي محمداً، بوفاته في العام ٦٣٢، كان خاتم الأنبياء، وأن الله لن يرسل نبياً من بعده. ويقرّ الشيعة بما في القرآن من أن محمداً هو «خاتم الأنبياء». ويرون أنه، بانتهاء سلسلة النبوّة والأنبياء، بدأت سلسلة الإمامة والأئمة: إذ أوكل النبي إلى عليّ وأبنائه من بعده تعليم أتباعهم، تدريجاً، «المعاني الحقيقية» لآيات القرآن (لأن القرآن يتضمن معاني باطنية، لا يفقهها إلا الأئمة وحدهم، وهي معانٍ تتعدى حدود دلالات الألفاظ).

اختفى الإمام الثاني عشر وهو بعدُ طفلٌ؛ لكن رجعته مؤكدة لا ريب فيها، فهو سيظهر ليملأ الدنيا عدلاً ويُعلي كلمة الله في الأرض. لذا ينتظر الشيعة الإثنا عشرية عودته (بعد ثورة ١٩٧٩ الإسلامية في إيران، كان بعض أنصار الخميني يحسبونه الإمام المنتظر).

قرر الإمام السادس حرمان ابنه البكر إسماعيل من ميراثه ووراثته لأنه عاقر الخمرة، وسمّى ابنه الثاني وريثاً له. فأعلنت فرقة من الشيعة رفضها لهذا القرار وانفصلت عن باقي الشيعة. والحال، أن إسماعيل توفى قبل والده بخمس سنوات. وفي نظر تلك الجماعة أن إسماعيل هو الإمام السابع والأخير. لذا عُرِفت هذه الفرقة باسم «الشيعة السبعية» أو «الإسماعيلية». ويأتمر معظم أتباع هذه الفرقة الشيعية اليوم بأوامر الآغا خان، ولهم عقيدة باطنية، ويقولون بتطبيق التعاليم الدينية تطبيقاً «رمزيا».

الآخر، أسموه «المهدي» استناداً إلى بعض «الأحاديث» النبوية. لذا تظهر من حين لآخر حركات أصولية يزعم زعماؤها أن كلاً منهم هو المخلّص المنتظر.

واصل العرب فتوحاتهم في العهد الأموي، فاتسعت الإمبراطورية الإسلامية لتشمل تونس والجزائر والمغرب وإسبانيا. ولم يفلح هذا التوسع في الحؤول دون استمرار الخلافات الداخلية بل استفحالها، ولكن من غير أن تعيق تلك الخلافات استمرار النمو الاقتصادي والفكري.

كان الإيرانيون يوظفون في هذه الخلافات الداخلية روح «الثأر» المعتملة فيهم منذ سقوط الإمبراطورية الساسانية، فيدعمون الحركات المناهضة للأمويين، وفي المقام الأول شيعة عليّ. وليس من قبيل المصادفة أن يكون أبو مسلم الخرساني، زعيم الحركات المناهضة لخلفاء دمشق، قد جعل مقرّه الرئيسي في مرو بخراسان الإيرانية، حيث قُتل آخر الأباطرة الساسانيين! كان هدف أبي مسلم الخرساني أن يجعل أبا العباس، سليل عم النبيّ محمّد، خليفة للمسلمين. وكانت لديه فرق مقاتلة اشتُهرت بارتدائها السواد، فسيطرت على خراسان وعلى جزء من بلاد ما بين النهرين. وفي العام ٧٥٠ أنزلت بالأمويين هزيمة ماحقة، وأسس أبو العباس السلالة العباسية، ومعها بغداد عاصمة لها، وواصل ملاحقة فلول الأمويين، فقتلهم حيثما وجدوا، ثم قتل حليفه أبا مسلم عندما شعر بأنه يعارض خطته السياسية.

كان لتغيّر سلالة الخلفاء من الأمويين إلى العباسيين نتائج عميقة، لم يكن أقلها حلول النفوذ الفارسي محل النفوذ البيزنطي. فقد شغل الفرس المناصب العليا في إدارة الدولة، وتجلّت الثقافة الفارسية في الحضارة الإسلامية أكثر مما كانت ظاهرة في العهد الأموي. وواصلت الحضارة الإسلامية تقدمها وازدهارها، وبخاصة في عهد الخليفة هارون الرشيد الذي كفلت له حكايات ألف ليلة وليلة شهرةً كونية.

الوحدة والتعدّد

رجل واحد فقط نجا من المجزرة التي نفّذها العباسيون في الأمويين، هو عبد الرحمن الذي فرّ إلى إسبانيا حيث أسس إمارة في قرطبة، بمؤازرة عدد من الأتباع والأنصار التحقوا به من سورية واليمن وشمال أفريقيا. بعد وفاة عبد الرحمن، سار خلفاؤه على نهجه، فواصلت الدولة القرطبية نموّها في مناخ التسامح والحرية الدينية النسبية. على أن التنوع العرقي كان يطرح على المعنيين بشؤون الحكم والإدارة مشكلاتٍ ناشئةً عن تفوُّق البربر على العرب، من حيث العدد، وبخاصة في الجيش. علاوة على ذلك، كان معظم السكان من أصل محلي، اعتنق بعضهم الإسلام وبقي بعضهم الآخر على الدين المسيحي، فعاشوا في ظل الحكم الإسلامي وسُمّوا «موزاراب» (Mozarabes)، لكنهم أخذوا جميعاً باللسان العربي والأزياء والعادات والتقاليد العربية. على أن بعضهم كان أحياناً يقاوم الوضع السائد أو يتمرّد، لكن في معظم الأحيان كان هناك تعاون، بقدر أو بآخر، مع نظام الحكم العربي في قرطبة.

كان المسيحيون، في شمال إسبانيا، يتكتّلون شيئاً فشيئاً ليشكّلوا مملكة الأستوريين (Asturies) أولاً، ثم مملكتي أراغون (Aragon) ونافار (Navarre). ولم يتهاونوا قَطّ في العمل على تحقيق هدفهم النهائي: تحرير شبه الجزيرة الإيبيرية كاملة؛ فأخذوا يشنون، بين الفينة والفينة، هجمات على المناطق الإسلامية. وعملياً، بقي شمال أفريقيا، وبخاصة المغرب، مستقلاً عن بغداد؛ وسرعان ما انقلب البربر على العرب، على الرغم من اعتناقهم الإسلام، وارتدّ بعضهم إلى دينه السابق، ولم يعد إلى الإسلام إلا في عهود صار الحكم فيها للبربر.

عرفت الأندلس الأموية أوج مجدها في عهد عبد الرحمن الثالث الذي أعلن نفسه خليفة (٩١٢م)؛ فهو لم يكتف بإخماد صوت المعارضة في الشمال بل استخدم بنجاح كبير سلاح المزج بين القوتين الدبلوماسية والعسكرية، فغدا

الحَكَمَ الوحيد بين المسيحيين الذين كثرت بينهم النزاعات بعد موت ألفونس الأكبر ملك الأستوريين.

عندما عجز العباسيون عن فرض سلطتهم على أقاليم الغرب البعيدة، حملوا أميراً عربياً على تأسيس دولة في تونس أرادوا أن يجعلوها «سداً» يصدّ عنهم الهجمات[1]. وكانوا في بغداد منغمسين في حياة البذخ تأسياً بالملوك الساسانيين، فانقطعوا عن عادات البداوة العربية وتقاليدها، وتخلّوا عن بساطة العيش على نحو ما كانت عليه في عهد النبي يوم لم يكن هناك فروق تميّز نمط عيشه وصحابته عن نمط عيش باقي المسلمين في المدينة. أما في بغداد فقد أحاط الخلفاء أنفسهم بامتيازات ومراسم شتى؛ وكان كبارهم يرتدون ثوب الوجاهة، ويسمى «الخلعة» (ولعل هذا هو أصل معنى كلمة «gala» بالفرنسية التي تعني مهرجان أو احتفال).

منذ القرن التاسع تأسست في مصر دولة إسماعيلية (شيعية المذهب) جعلت القاهرة عاصمة لها. وفي القرن العاشر، حين بلغت الحضارة الإسلامية أوجها، كان هناك ثلاثة خلفاء في آن واحد. ورغم انقسام العالم الإسلامي ثلاثة أقسام، والتعددية القائمة داخل كل قسم، استمر الدين واللغة الرسمية في لعب دورهما التوحيدي الثقافي. كان كل من الخلفاء الثلاثة يسعى لأن يكون الأفضل في كل شيء وفي الميادين كلها. وقد أسهم هذا التنافس بين الخلفاء إسهاماً كبيراً في إنعاش الحضارة الإسلامية وازدهارها.

كانت القاهرة وقرطبة تفعلان كل ما هو ممكن في سبيل اجتذاب العلماء والفنانين والفن من العراق وفارس. أذكر، على سبيل المثال، الموسيقي والمغني الفارسي زرياب[2] الذي كانت له حظوة كبيرة عند هارون الرشيد. كان زرياب

١- دولة الأغالبة.

٢- زرياب، ومعناها بالفارسية «ماء الذهب» (زار: ذهب، آب: ماء) وهي كنية أبي الحسن علي بن نافع. راجع في ذلك: المقري، **نفحُ الطّيب في غصن الأندلس الرطيب**، (ذكره فيليب حتي في كتابه المذكور أعلاه).

شاعراً ومتبحرا في مختلف العلوم. وكان اتساع معرفته العلمية يثير الغيرة والحسد في قلوب الفنانين والشعراء وغيرهم في قصر الخليفة، فيكيدون له لدى الخليفة، ولا يتورعون عن تهديده بالقتل في رسائل مغفلة. وحين تلقى دعوة من الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الثاني، غادر بغداد خلسة متنكّراً، حتى وصل إلى الأندلس في العام ٨٢٢. ويقول مؤرخ عربي، عاش في القرن السابع عشر، إن أمير الأندلس أغدق على زرياب أموالاً طائلة وخصّه بممتلكات واسعة. وقد ابتدع زرياب أزياء خاصة بكل فصل من فصول السنة، تختلف لوناً ونسيجاً من فصل إلى فصل، وغيّر تسريحات شعور الرجال والنساء، وصار مهندس الأناقة الأندلسية، فدشّن صناعة أدوات ومواد التجميل التي درّت عليه أرباحاً طائلة، وأبدع في فن الطبخ، وكان له فيه تأثير مباشر، فقد عمّم أكل الهليون وجعله أكلة شعبية. ومن المعروف أن زرياب أضاف إلى أوتار العود الأربعة وتراً خامساً، وأسس في قرطبة معهداً لتعليم الموسيقى والغناء.

كان الخلفاء الثلاثة يتنافسون في حماية العلم وتشجيع العلماء والفنانين والفلاسفة وفي منحهم الجوائز والمكافآت. ولعلّ الخلافات السياسية كانت تسهم في تقدّم الحضارة الإسلامية ولا تعيقها. وكان الفكر والفن مزدهرَيْن حتى إبّان الانقسامات «الإقطاعية» وظهور الأسر الحاكمة الصغيرة. وكان أهل العلم والفن يجدون على الدوام ملاذاً يكفل لهم الرعاية والحماية من آثار الانقلابات السياسية ومن تطاولات فقهاء الشرع. يروي الفيلسوف الكبير والطبيب الشهير ابن سينا في سيرة حياته كيف كان يهرب من بلاط أمير ليحتمي بأمير آخر في إيران، التي كانت مقسّمة والتي كان السلاطين يؤيدون فيها هذا الأمير في وجه ذاك الأمير، أو هذا الفريق من أفرقاء الحروب المحلية ضدّ ذاك الفريق. وتقول روايات معادية لابن سينا إن سبب هربه الدائم من مكان إلى مكان هو تفادي غضب الرجال الذين كان ينكح زوجاتهم؛ فقد كان مولعاً بالخمرة والنساء، وكان يستعدي العلماء وحاشية الأمير في كل بلاط يستضيفه ويُكرمه. لم تكن لدى أي

أمير من الأمراء قوة كافية لبسط سلطانه خارج إمارته. وفي ظل هذا الوضع، أمكن للعلماء أن يجدوا، على الدوام، مكاناً يلجأون إليه لمواصلة أعمالهم. في الوقت نفسه، لعب الإسلام دور اللحمة الجامعة بين الإمارات المختلفة في إطار وحدة ثقافية جامعة. على أن كل إمارة أو مقاطعة كانت تتميّز بخصائص تنفرد بها. وكان العالم الإسلامي بعامة يقدّم، وربما على نحو غير إرادي، صورةً للوحدة في إطار التنوّع، أو في إطار وحدة تسودها تعدّدية خصبة.

رعب العام الألف

كان الإسلام يشيع، في كل بلد يصل إليه، مناخاً من الحرية؛ وكان المسلمون يغلّبون الانفتاح والتبادل على الانغلاق والانطواء، ويشجعون حرية انتقال الأفكار والبضائع. وكان العالم الإسلامي في قمة ازدهاره، في القرن العاشر، في قمة ازدهاره ومنفتحا باعتزاز وثقة على الثقافات الأجنبية. وقد تعمّقت النخب المثقّفة والفئات الحاكمة في معرفة الفكر اليوناني والرياضيات الهندية وأساليب الإدارة الفارسية ...الخ، وهضمت عناصر الثقافة «الأجنبية» وتمثلتها جيّداً، واستأنفت البحث والتنقيب في علوم الأقدمين. ولم تجد تلك النخبُ في ذلك «التوليف»، أو بالأحرى في ذلك «التوليد»، ضَيْراً على «هويتها الإسلامية»، أو ضياعاً أو إضعافاً لها، بل كانت، على العكس من ذلك تماماً، تعتز بالعمل المشترك من أجل تطوير حضارة متجانسة حيوية ومنفتحة.

ألّفت هذه الحضارة الجديدة تأليفاً بالغ النجاح بين المعارف المتراكمة منذ أقدم العصور، وأضافت إليها إنجازات جديدة نشرتها في أقطار العالم كافة. فلم يحمل الفتح العربي إلى البلدان التي وصل إليها دماراً، على غرار ما كان يفعل الغزاة البرابرة في أوروبا قبل ذلك بقرون... بل كان، خلافاً لذلك، يطلق المبادرات ويشكّل في كل بلد منطلقاً نحو آفاق زاهرة.

في حوالي العام الألف راج في بغداد «فهرست» ابن النديم (المتوفى في

العام ٩٩٥) الذي يقع في عشرة أجزاء. ويشتمل هذا المؤلف الضخم على أسماء المؤلفين وأسماء مؤلفاتهم ومخطوطاتهم العلمية والأدبية والفلسفية، ويذكر نبذة مختصرة عن أهم ما ورد في كل منها. ويذكر ابن النديم، على نحو خاص، صاحبَ مكتبة في بغداد كان يحتفظ في «أدراج» مكتبته (لم تكن رفوف المكتبات معروفة في ذلك الوقت، وكانت الكتب تحفظ في أدراج) بالعديد من «المخطوطات النادرة التي تحمل تواقيع أصحابها. وكانت هذه المكتبة تضمّ أيضاً مجموعة كبيرة من أوراق البردى التي يعود عهدها إلى فراعنة مصر، كما تضم نصوصاً صينية قديمة»[١].

في ذلك العصر بالذات كتب ابن سينا أولى مؤلفاته، وأنجز البيروني كتابه الشهير عن الهند (حيث كان يرافق السلطان محمود الغزنوي في فتوحاته). وكانت مكتبة الخليفة الحكَم الثاني في قرطبة تضم أربعماية ألف كتاب. وفي القاهرة عيّن الخلفاء الفاطميون مئاتٍ من أمناء المكتبات، للسهر على ملايين المخطوطات الموجودة في مكتبتهم[٢]. وفي ذلك الوقت أيضاً، اكتشف ابن الهيثم قوانين البصريات...

في حوالي العام الألف بالمقابل كان الغرب يعيش حالةً من الرعب القاتل، ويتنبّأ بفناء العالم بين لحظة وأخرى[٣]!

ولكن ما كان، ويا للأسف، لروح الإبداع أن تستمر في العالم الإسلامي؛ إذ ما لبثت تلك الروح أن أخذت تضمحلّ وتتلاشى بعد مضيّ أربعة قرون على الفتح العربي، وبدأ الانهيار بوتيرة متسارعة يكتسح العوامل والظروف التي أتاحت تفتّح العلوم وازدهار الفلسفة. وباستثناء بعض الحالات النادرة والمحدودة،

١- فيليب حتّي، المرجع السابق.

٢- **شمس الله تسطع على الغرب** (مرجع مذكور).

٣- يشير المؤلف هنا إلى الرعب الألفي الكبير الذي عرفه الغرب المسيحي بتوقعه نهاية العالم في العام ١٠٠٠(م).

في الزمان والمكان، لم تقْوَ الحضارة الإسلامية على تدارك الانهيار الشامل. ولعل العجز الذي يسود العالم الإسلامي ويمنعه من التصدّي للتخلف الذي يجتاحه اليوم، يجدُ مفتاحه في جملة الأسباب التي أدت إلى ذلك الانهيار الكبير السريع.

لست من القائلين بأن التاريخ يسير وفق حركة دائرية، لأن هذا القول يُخفي وراء النبرة «العلمية» إيماناً عتيقاً بالقضاء والقدر. وينبغي التوكيد على أن الحضارة الإسلامية كان بإمكانها أن تبقى مستمرة في صعودها لو أن المسلمين أنفسهم رفضوا الخضوع للأصوليين.

بينما كانت قرطاجة تحترق، همس اسقبيون الأفريقي في أذن بوليبوس: «كم هي عظيمة هذه اللحظة! لكنني أخاف أن تلقى بلادي ذات يوم هذا المصير المُفجع عينه». وبالفعل، عرفت الإمبراطوريات الآشورية والميدية والفارسية، التي كانت أعظم إمبراطوريات ذلك الزمن، هذا المصير عينه.

وقد استسلم المسلمون، تماماً مثلما فعل اسقبيون، لأسطورة الانهيار الذي لا مناص منه.

الفصل الثاني

جمود العالم الإسلامي

في العام ٦٨٠، ولم يكن قد مرّ سوى ٤٨ سنة فقط على وفاة النبي محمد، وفيما كان معاوية، مؤسس الدولة الأموية، يعيّن ابنه وليّاً للعهد ليرث الخلافة من بعده، تمكّن واحد من قادة جيوشه من الوصول إلى شواطئ الأطلسي. ولكن على الرغم من هذا الانتصار على مناوئيه في الداخل، وعلى الرغم من فتح أصقاع جديدة في الشرق والغرب، كانت تتآكل معاوية الرغبة في أن يضاهي ويتجاوز الخليفة الأول أبي بكر والخليفة الثاني عمر بن الخطاب. ولكن هل فعل من شيء آخر سوى أنه أحبط المؤامرات التي كان يدبّرها له خصومه واتقى هجمات «الكفار»؟ لقد كان عاجزاً عن التخلّص من شعور الخيبة الذي يسكن أعماقه. ولما أحسّ بدنوّ أجله، أسرّ إلى أحد مقرّبيه، من أسرته، بأنّ «انهيار الخلافة الإسلامية قد بدأ»[1].

بديهي أن عوامل التفسّخ والانحلال كانت موجودة من البداية في الجسم الاجتماعي مثله في ذلك مثل الجسم البشري. بيد أن الخليفة الخامس لم يكن بمِكْنته معرفة ذلك. ولعلّه كان من طبعه التطيُّر الذي عُرِفت به قبائل البدو؛ فقبل ذلك بنصف قرن، وفيما كان يحضر قطعَ رأس شهيدٍ مسلم، استنزل ذلك المسلم اللعنات على الحضور جميعاً. ولعلّ معاوية كان أيضاً يعتقد، ككثير من المسلمين، بأن الانحلال والخراب قادمان لا محالة.

١- راجع كتاب **الخليفة معاوية** الذي وضعه بالإيطالية مؤلّفاه ليفي ديللا فيدا وأ. بينتو، استناداً إلى كتاب **أنساب الأشراف** لأحمد يحيى البلاذري (بالإيطالية):

G. Levi Della et O. Pinto, Il Califi Mu'awia, Rome, 1938.

قضاء وقدر وتخلّف

تمثيلاً على نزعة التشاؤم هذه، سأورد بعض أمثلة انتقيتها من بين أمثلة كثيرة. كان الخليفة الأموي هشام (٧٢٤-٧٤٣) يأخذ مأخذ الجد نبوءةَ أحد المنجمين في شأن قرب سقوط الحكم الأموي وإعادة تأسيسه في بلاد أخرى بعيدة. وفي بلاط الخليفة العباسي المهدي (٧٧٥-٧٨٥) كان كبير المنجمين يحدّد مدة دوام «الحكم الإسلامي» بـ٩٦٠ عاماً، بدءاً من السنة التي ظهر فيها الإسلام. وفي القرن التاسع قدّر العالِم والفيلسوف الكندي مدّة هذا الحكم بـ٩٦٣ عاماً، ابتداءً من السنة السابقة لسنة الهجرة (٦٢٢). وهكذا تكون سنة نهاية الحكم الإسلامي، وفقاً لحسابات الأول، العام ١٥٣٠، ووفقاً لحسابات الثاني، العام ١٣١٥. المدهش في الأمر أن التاريخ الأول قريب جداً من تاريخ سقوط غرناطة، آخر الإمارات الإسلامية في اسبانية (١٤٩٢) ومن تاريخ انقطاع المسلمين انقطاعاً تاماً ونهائياً عن وضع الكتب وإنتاج الأعمال العلمية، وأن التاريخ الثاني قريب جداً من انتصار المغول ودمار بغداد وإحراقها (١٢٥٨). ثمة تطابق آخر يسترعي الانتباه: ففي العام ٧٥٧، أي بعد ٧ سنوات من انهيار الحكم الأموي، استطاع عبد الرحمن، الناجي الوحيد من الأسرة المالكة، أن يؤسس إمارة أموية مستقلة في قرطبة[1].

١- في شأن هشام، راجع كتاب دوزي **الإسلام الإسباني** (بالإنجليزية):

R. Dozy, Spanish Islam, Londres, 1979.

وفي شأن المهدي والكندي، راجع مداخلة ويلي هارتنر كيف ومتى توقف الازدهار العلمي في الإسلام؟ في الكتاب الجماعي: **النهوض والأفول الثقافي في تاريخ الإسلام** (بالفرنسية):

Willy Hartner, Quand et comment s'est arrété l'essor de la culture scientifique dans l'islam?, in Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'islam, Paris, 1957 et 1977.

قضاء وقدر أم مجرّد مصادفات ليس إلا؟ ليس هنا محلّ الجدال في صحة نبوءات المنجمين وزيفها؛ فما يهمنا هو أن الحكام العرب، رغم أمجادهم وانتصاراتهم، كانت لا تفارقهم القناعة بهشاشة ملكهم وسوء عاقبته. وبالإضافة إلى المنجّمين، نشأت مدرسة من المفكّرين «السلفيين»، استطاعت أن تبقى على قيد الحياة إلى يومنا هذا؛ فانتعاش الأصولية يتغذى اليوم من هذا المصدر بالذات، علاوةً على مصادر أخرى.

كان أتباع تلك المدرسة يفكّرون على النحو التالي: لمّا كان القرآن يحتوي على «الحق»، كل الحق، فإن التجديد الذي يأتي بعد القرآن لا يمكن إلا أن يقود إلى الباطل. علاوة على ذلك، فإن الجيل الذي عايش النبي وصَحْبِه، وعاش في زمن نزول القرآن، هو جيلٌ لا يماثله جيلٌ آخر، فلا يمكن بالتالي للأجيال اللاحقة أن تكون مثله. ولذا، فإن الأمة الإسلامية، التي أنشأها النبي محمد، لا بدّ أن تنحلّ من بعده وتنهار. وهكذا تحوّل التنكّر للتجديد إلى عقيدة جامدة شلت الفكر في العالم الإسلامي وعطّلت التفكير العلمي.

ينطوي هذا الطرح، ضمناً، على تلك «القدرية» التي غالباً ما عُلِّلَتْ بها حالةُ الجمود التي أصابت الإسلام. «هذا قدر مقدَّرٌ ومكتوب»، عبارة تجري على لسان معظم المسلمين. ولا ريب في أن القرآن يقرّ بالقضاء والقدر، كما في الآية ١٣ من سورة الإسراء: «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه». وبالتأكيد ثمة أحاديث نبوية أخرى يذكرها الفقهاء في هذا السياق نفسه. عليه، هل يجب التخلي عن فكرة الحرية والتقدّم؟ ليس بالضرورة. إن بعض آيات القرآن تحضّ على المسؤولية الفردية، كما في الآية ١٧ من سورة غافر: «اليوم تجزى كل نفس بما كسبت». وفي حديث نبوي آخر: «اعملوا، فكلّ ميسّر لما خلق عليه». والواقع أنه لا يمكن تفسير انحطاط الحضارة الإسلامية بإيمان المسلمين بالقضاء والقدر، لأن تاريخهم بالذات يكذّب هذا التفسير. فلئن كان الموقف السلبي الناتج عن هذا الإيمان هو المهيمن عند العرب، فكيف استطاعوا إذن أن

يعبئوا مثل تلك الطاقة الهائلة فيهم، وأن يشحذوا تلك العزيمة الصلبة في سبيل الفتح؟ وكيف استطاع المسلمون الإسهام في بلورة حضارة عظيمة، إذا كانوا يكتفون بالإيمان بالقضاء والقدر؟ إن ما يسمى بالقضاء والقدر في الإسلام اليوم هو نتيجة تدهور الحضارة الإسلامية، وليس سبباً له! يتأتى جمود الحضارة وخمودها، من تضافر أسباب كثيرة تتصل بميادين متعددة، في مراحل متعددة أيضاً. ويذكر مؤرخ عربي، في معرض كلامه عن الدولتين الأموية والعباسية، أن من بين الأسباب التي آلت إلى خمود الحضارة الإسلامية الانحطاط الأخلاقي والاجتماعي الذي دبّ في صفوف الأسر الحاكمة والشرائح العليا في الحكم، كالإفراط في شرب الخمور والفجور والإسراف في الترف[١]؛ لكن ذلك كله لا يختلف عن الآفات التي تولد مع كل حضارة، وتواكبها من غير أن تعيق تفتحها وازدهارها؛ فقد كان الخلفاء والأثرياء يبذلون ما في وسعهم لمساعدة العلماء والفنانين. على أن المؤرخ نفسه يذكر التراجع الاقتصادي بين تلك الأسباب. كما تَرِدُ في معرض تفسيره عباراتٌ مثل «ضمور النشاط الفكري» و«اختناق الفكر». ولا بد أن نضيف أيضاً أن العالم الإسلامي، خلال انهياره الاقتصادي، استمرّ في إشعاعه الفكري، ولو لمدى زمني قصير، وبخاصة في ميادين العلم والفلسفة[٢].

يحشد المؤرخون الغربيون والمسلمون على السواء عدداً كبيراً من الأسباب الداخلية والخارجية لتعليل انهيار الحضارة الإسلامية، وكلٌّ يأخذ بالسبب الذي يلائم تحليله. وأُقرّ هنا بأن هذه اللائحة الطويلة من الأسباب كانت تحيّرني. ففي كل مرة أنهي قراءة كتاب رصين أو مقالة جادّة تبحث في هذا الموضوع، أجد

١- فيليب حتّي (مرجع سابق).

٢- راجع كتاب موريس لومبار، **الإسلام في عظمته الأولى** (بالفرنسية):

Maurice Lombard, L'Islam dans sa première grandeur, Paris, Flammarion, 1971.

نفسي أكثر ضياعاً وحيرة. كيف يمكن الخروج من حالة التخلّف التي يعيشها العالم الإسلامي، مادامت ناتجة عن تراكم هذا القدر الكبير من الأسباب؟ ليس من الممكن أن نطلب من المسلمين أن يحاربوا على عددٍ كبيرٍ من الجبهات في آن واحد! وأظن أنه ينبغي أن نبحث عن قاسمٍ مشترك بين ذلك العدد الكبير من العوامل التي تسببت في تراجع الحضارة الإسلامية. على أنه لا بد أن أتوقف هنا، ولو بسرعة، عند أبرز الأسباب التي يعللّ بها المؤرخون هذا التراجع.

إما ببغاوات وإما بلداء

سأبدأ باستعراض قطاع التعليم، نظراً لأهميته. إن أساليب التعليم القائمة على حشو الذاكرة تلعب دوراً رئيسياً في شلّ حيوية العالم الإسلامي. يحفظ الأطفال القرآن والنصوص الأخرى عن ظهر قلب ومن غير اهتمام بفهم وتحليل ما يحفظونه. فمنذ الصغر، تُجهَد الذاكرة حتى الإنهاك على حساب المزايا العقلية الأخرى. يصبح الحفظ غيباً (وبخاصة حفظ القرآن) قمة العلم والثقافة.

ومنذ زمن بعيد لم يتغيّر هذا الوضع. فحتى أيامنا هذه لا يزال طلاب المدارس والجامعات يحملون في يدهم الكتاب ويذرعون الأروقة والممرات جيئة وذهاباً، وهم يخطفون إلى الكتاب نظرات سريعة، الواحدة بعد الأخرى، رافعين رأسهم تارة، وتارة أخرى مردّدين، بصوت خفيض أو عال، ما لمحوه في الكتاب من كلمات وجمل ليحفظوه غيباً. وقد شاهدت بأمّ عيني مشهداً عجيباً في مدينة «بام» Bam شرق إيران، وذلك في العام ١٩٧١. فإبان الحرب الدامية التي دارت، في القرن السابع عشر، بين الإيرانيين والأفغان، كان الناس يرغمون على الهرب من بيوتهم وأحيائهم. وعندما يعودون إليها ويجدونها مدمَّرة، يكون من الأسهل عليهم بناء مدينة جديدة قرب أنقاض المدينة القديمة. وفي الأزقة الضيقة المتعرجة من المدينة المهجورة كنتُ أسمع صوتاً كأنه طنين الهوام. ولشدَ ما كانت دهشتي عارمة حين رأيت، عند اقترابي من مصدر

الصوت، صبياً لابساً مريلة يترنم بصوت رتيب بأبيات للشاعر «حافظ». لم يعرف أن يفسر لي معنى بيت واحد، واعتذر مني قائلاً: «إن العلامة التي تُعطى لنا تُحسَب على أساس مدى الحفظ غيباً فقط!».

هذا مثال ساطع على مبدأ «التقليد» الذي يلقّن للتلاميذ: لا بد من تقليد إمام أو نصّ أو أسلوب ...الخ. إن آيات الله في المذهب الشيعي هم «مراجع للتقليد»! هذا النظام التربوي الذي يقوم على الذاكرة، ليعيد إنتاج الأساليب والأفعال، يغذي الفكر الشكلي والحرفي، أي «كلام السلطة». إنه نظام ينتج ببغاوات! ينتِج تطوراً «إلى الخلف» إن جاز التعبير، ويجعل الجنس البشري شبيهاً بالقردة. أتكلم بصيغة الحاضر لأن «أسلمة» التعليم المزعومة في إيران تؤدي إلى خفض مستوى التعليم في المدارس والجامعات إلى حدّ مخيف. كذلك، فإن ما يسمى في الجزائر «تعريب» التعليم، هو أحد الأسباب الرئيسية لأزمة الجزائر. فقد كتبت إحدى الصحافيات العارفات بشؤون شمال أفريقيا والشرق الأوسط تقول في صدد أحداث الجزائر: «إن التعليم الابتدائي والثانوي يكرر أخطاء المدارس القرآنية»[1].

فما هي المدارس القرآنية؟ إنها المدارس الرسمية أو «الكتاتيب» التي أقامتها السلطات المحلية في القرن الحادي عشر، لجعل التعليم مقصوراً على الدين وتأهيل العلماء والموظفين ليكونوا خاضعين للسلطة، موالين لها. وفي رأيي أن هذه «الكتاتيب»، باستخدامها أسلوب المذاكرة الحرفية والحفظ غيباً، كانت بمثابة ضربة قاصمة للفكر وملكة التفكير. وهكذا، وبعد فترة قصيرة من الانفتاح وحب المعرفة، انطوت الحضارة الإسلامية على نفسها! طغى «مبدأ مرجعية» العلوم الدينية على الميادين الدنيوية، فصار الشعراء يقلّدون الأقدمين وينسجون على منوال الشعر القديم، مما جعل اللغة المحكية والعامية تنفصل أكثر فأكثر عن لغة القرآن والثقافة، فتدنّى مستوى الفكر والتفكير تدنياً مخيفاً.

١- جوزيت آليا: المدجلّون باسم الله، في مجلة «نوفيل أوبسرفاتور»: Josette Alia, Les apprentis sorciers d'Allah, in Le Nouvel Observateur, 18 jan. 1992

عبادة الشكل والحَرف

طغت النزعة الشكلانية الحرفية وعمّت، وغزت العلوم الفقهية والقضائية. تؤكد النظرية التقليدية في الفقه الإسلامي (الذي انبعث حياً في الأوساط الأصولية المعاصرة) أن الشريعة الدينية هي القانون الأوحد الذي يحتكم إليه المؤمنون، وهو قانون كامل متكامل لا يشكو من أي نقص، حتى في التفاصيل الدقيقة. بل إن الفكر الديني نفسه أصابه الجمود، وخبا الجدال الفلسفي (محرّك تطور العلم في كل زمان ومكان).

نحَتْ الثقافة العلمية منحى التخلّف عينه، منذ العقود الأخيرة من القرن العاشر. فلننظر في الشكوى المريرة التي جرت على لسان أبو حيان التوحيدي: «هذه المعرفة نتاج الفكر الصحيح، آتية بالحق، جلوبة للرشد، هيهات سماء العلم وأظلم جوّ البيان، وانكسر فقار الدين، وتحطم عمود الشباب، وقلّ نصير الأدب، وتقوّض بناء الخير، وبلِيَ صوب المروءة، وغارت عين الحياة، وعقمت أمّ الوفاء»[١].

لا يبالغ هذا الوصف في تصوير الواقع السيّئ. فإذا نظرنا إلى مسار الأمور عن كثب، نرى أن نزعة الجمود غلبت وسيطرت، ابتداءً من القرن الحادي عشر، في مشرق العالم الإسلامي على الأقل؛ فقد انتصر وسادَ المذهب الأشعري السني المتزمّت بفضل فقيه إيراني الأصل، درّس المذهب وشرحه في الجامعة النظامية في بغداد، هو أبو حامد الغزالي. ولكن ماذا كان يقول الأشعري؟ كان يُنكر وجود القوانين الطبيعية، لأنه يعتبرها مخالفة لروح القرآن ونصّه، ويرى أن المجرى الاعتيادي للظاهرات التي نلاحظها في الطبيعة لا

١- أبو حيّان التوحيدي، **رسالة الحياة**، راجع مجلة الدراسات الشرقية، (بالفرنسية) الصادرة عن المعهد الفرنسي بدمشق:

Bulltin d'études orientales, Institut Français de Damas, XVIII,1963.

يحصل بالضرورة، بل بمشيئة الله وحدها. فالأشياء لا تجري على عاداتها إلا بقدر ما يشاء الله ألا تتغيّر. إذ لو لم يكن الله هو الخالق في كل لحظة فسينهار الكون؛ ولأن الله يخلق باستمرار وبلا توقف، فإنه يتدخل في كل شيء، في كل مكان وفي كل زمان. إذاً، ليس ثمة علل ثانوية (من خارج إرادته)، وبالتالي ليس هناك قوانين طبيعية يمكن أن تتدخل بينه وبين خلقه. وهذه الفلسفة الأشعرية التي ما زالت رائجة تقضي، في نظر المسلم، بألا يكون هناك ترابط معقول في الأسباب: فالله هو الذي ينسج «مسار الأحداث العجيب في كل لحظة»(١).

كان من نتائج انتصار هذه النزعة الوثوقية (الدغمائية)، أيضاً، أن الأمراء والحكّام أهملوا رعاية العلوم والآداب، وتخلوا عن حماية العلماء والمفكرين من الحملات الشعواء لفقهاء الدين (إلا في حالات استثنائية تثبت القاعدة ولا تلغيها، كما حدث مثلاً في بداية دولة الموحّدين أو في عهود بعض السلاطين المغول).

التطور الاقتصادي والاجتماعي

كانت فترة الإشعاع الثقافي للعالم الإسلامي (بين القرنين الثامن والحادي عشر) فترة ازدهار تجاري، وفترة تفوّق نقدي أيضاً. لكن اقتصاداً كهذا، مبنياً على التبادل التجاري الدولي، كان مشروطاً بالقدرة على صيانة طرق المواصلات الكبرى. منذ أواخر القرن العاشر، انتقل الثقل الرئيسي في التجارة العالمية إلى مصر، التي غدت بدورها مركز إشعاع ثقافي بارز. وطفق تجار بغداد وأثرياؤها يضعفون ويتراجعون شيئاً فشيئاً. وبدأت موارد خزينة الدولة تشحّ وتنضب. رافق سوء الأوضاع الاقتصادية اضطرابات سياسية واجتماعية، وغدا الحكام بأمسّ الحاجة إلى قوة عسكرية يثقون بإخلاصها. في تلك الفترة

١- العبارة للوي ماسينيون Louis Massigno.

صار أمراً اعتيادياً أن يبحث وكلاء السلطان في أنحاء البلاد وأريافها عن أطفال يشترونهم ويعدّونهم إعداداً خاصاً ليكونوا أقوياء أشدّاء. هذا النوع من «العبيد»، كانوا يدرَّبون ويربَّون تربية خاصة تجعل منهم محاربين محترفين لا همّ لهم إلا حماية الدين وخدمة أسيادهم حتى الموت في سبيلهم. وبعد الانتهاء من إعداد هؤلاء «الجنود/الآلات»، كان يجري عتقهم كي لا يبقوا عبيداً، فكانوا يحصلون على مكتسبات مادية، أسوةً بسائر الذين كانت السلطة تعتمد عليهم في تأطير الجماهير وتطويعها (كالفقهاء وعلماء الدين مثلاً). وفيما بعد استخدم العثمانيون هذا الأسلوب نفسه في بناء جيشهم الإنكشاري الذي ذاع صيته. وكان رجال الدين يشكلون جزءاً من هذه الجماعات ذات الامتيازات، والمولجة بالدفاع عن «النظام».

كان من الطبيعي أن ينبعث في الجيش وبين الفقهاء ورجال الدين شعور بأن كلاً منهم ينتمي إلى جماعة واحدة متماسكة ومستقلة. وسرعان ما تحوّلت هاتان الجماعتان إلى طبقتين، وصار الحفاظ على الوضع القائم مسألة حياة أو موت تعنيهما مباشرة، بقدر ما تعني الحكام أنفسهم. هكذا غدا الوقوف في وجه أي تجديد ضرورة متعاظمة الأهمية يوماً بعد يوم، واقتصر عمل الفقهاء ورجال الدين، الذين واصلوا اضطهادهم للفلاسفة والعلماء، على جمع تعاليم الماضي وتصنيفها وشرحها، بعد تصفيتها من كل ما يمكن أن يكون مثاراً للجدال.

كان هذا التواطؤ بين رجال الدين والعسكر والحكام يتخطى إلى حد بعيد ما كان المناضلون العلمانيون في الغرب يسمّونه في القرن التاسع عشر تحالف «السيف والمبخرة». فهو يستبعد كل عناصر المجتمع الأخرى ويحرمها من أي نفوذ في قمة الهرم الاجتماعي، ويرسخ استبداد السلطة، ويعزز تكلّس المؤسسات. في الوقت نفسه كان مركز الثقل في التجارة العالمية يميل شيئاً فشيئاً ليرجّح الكفة لصالح الغرب.

البيئة وأحوال المرأة

من العوامل التي أدّت إلى الانحطاط لا بد من أن نذكر «الحوادث البيئية» التي وقعت بسبب سوء الإدارة العامة والخاصة للثروات والموارد الطبيعية. بالطبع، لم يكن هناك مشكلات تلوث، ولكن، منذ القرن الحادي عشر، بدأت حركة استنفاد بعض الموارد الطبيعية كالغابات مثلاً، وامتدت من إيران إلى إسبانيا.

كان الخشب يستخدم لغايات مختلفة، للبناء والمطبخ، والتدفئة، ...الخ، وخلافاً لما كانت عليه الحال في العصور الأولى، لم يكن أحد ليفكر بالتشجير والتحريج. من ناحية أخرى، أدّى خنق الفكر وتراجع العلوم إلى التخلّي عن تشجيع البحث عن بدائل للموارد الطبيعية. فنتج عن ذلك نقص كبير في الفحم الخشبي الذي دعت الحاجة إلى استيراده من بلاد بعيدة، وبأسعار باهظة. وأدّى النقص في الغابات، على المدى البعيد، إلى تبدّل طبيعة المناخ. واتّسع تصحّر المناطق على حساب الأراضي الزراعية. في هذا الصدد نستغرب ما يَردُ في كتابات مؤرخين تُكيل المديح للسلاطين المماليك، في حين أننا نعلم أن هؤلاء السلاطين كانوا يُتلِفون موارد مصر الطبيعية[1].

وفي مضمار النقل والمواصلات بقيت الدواب كالبغال والحمير أداة النقل الوحيدة بسبب انعدام صيانة الطرقات الرومانية وعدم شق طرقات جديدة، وبقي استخدام الجمل «سفينة الصحراء» يؤجّل استخدام «الدولاب». ولا ريب في أن الفارق بين التكلفة الباهظة التي يقتضيها إنشاء شبكة طرقات في بلاد مترامية الأطراف، والكلفة البسيطة للنقل بالقوافل، كان يلعب دوراً كبيراً في ترجيح الكفّة. كان إغراء الربح المباشر يُعمي النظر إلى المدى البعيد ويعيق التخطيط

١- انظر مداخلة غاستون ڤييت (Gaston Wiet) في الكتاب الجماعي: Histoire Universelle، مرجع مذكور.

للمستقبل. ومهما يكن من أمر، كان قصر نظر المسلمين في هذا الصدد يسهم في توسيع الشقة بينهم وبين الغرب ويزيد تخلفهم.

ثمة سبب آخر لتراجع الحضارة الإسلامية، يتجسّد في تدهور أوضاع المرأة. في الثقافة البدوية لم يكن وضع المرأة محموداً، فتحسّن وضعها كثيراً من خلال الاحتكاك بالحضارات الأكثر تقدماً في البلدان التي بلغها الفتح الإسلامي. ففي العصر الأموي (٦٥٦-٧٥٠) كانت المرأة تتمتع بوضع متحرر نسبياً. يذكر أحد المصنِّفين أن شاعراً من مكة شاهد وجه ابنة معاوية (أول خليفة أموي) أثناء الحج. فوقع أسير حبها من النظرة الأولى، وقال فيها أجمل قصائده، ولحق بها إلى دمشق. وبدلاً من أن يلجأ معاوية إلى استخدام القوة لردعه عنها، زوّجه امرأة من حاشية القصر ومنحه مبلغاً كبيراً من المال! ويقول المصنف نفسه إن حفيدة النبي سكينة بنت الحسين (المتوفاة عام ٧٣١) كانت لها الكلمة الفصل في أزياء الموضة في مكة، وكانت تستضيف في بيتها أهل الأدب والعلم من رجال ونساء، وكانت سافرة غير متحجّبة. وبحسب المصنِّف نفسه، كانت حفيدة أبي بكر (الخليفة الأول) تخرج سافرة الوجه وتستقبل الرجال والنساء في منزلها (الكائن في جبل قرب مكة)[١].

مع انتصار الترمت تحوّل عزل النساء عن الرجال إلى قاعدة ثابتة صارت بمثابة قانون شرعي. وبطبيعة الحال، فإن شلّ نصف المجتمع ومنعه من ممارسة أي نشاط اقتصادي واجتماعي ألْحَقَ ضرراً بالغاً بنمو العالم الإسلامي، على الصعيدين المادي والفكري. ويُجمِع المختصون في هذا الميدان على القول بأن المساواة بين الجنسين هي شرط ضروري لإنجاح برامج التنمية في بلدان العالم الثالث[٢].

١- كتاب **الأغاني**، الأجزاء ٦ و١٠ و١٤.

٢- راجع المقدمة التي كتبها ديفيد ريزمان لكتاب دانييل ليرنر **العبور إلى المجتمع التقليدي** (بالإنجليزية):

David Riesman, in Daniel Lerner, The Passing of Traditional Society, New York, 1985.

لم يحاول أيُّ مؤرخ، على حدّ علمي، أن يقدّر تقديراً صحيحاً مدى تأثير عزل المرأة على التخلّف الذي أصاب العالم الإسلامي منذ القرن الثاني عشر. ثمة دراسات حول أوضاع المرأة في المجتمعات الإسلامية، لكنها دراسات تتناول الموضوع من زاوية القانون والحقوق أكثر ممّا تناوله من الزوايا الأخرى.

حول مسألة الحجاب الذي جعله الأصوليون بمثابة حصان طروادة، أورد الطرفة التالية التي ينسبها رُواتها إلى المتصوّف الفارسي الكبير روزبهان الشيرازي وهو صاحب كتاب «ياسمين العشاق»[1] لكي أوضح مدى تباين المواقف والآراء: بينما كان هذا الشاعر يهمُّ لأول مرة باعتلاء المنبر وإلقاء خطبة الجمعة، سمع امرأة تنصح ابنتها بقولها: «يا ابنتي شدّي الحجاب جيداً على وجهك كي لا يبين جمالك، فلا يتشوّه هذا الجمال»، فاستوقفها روزبهان قائلاً: «أيتها المرأة، إن الجمال لا يُطيق عزلةً وانفراداً، فغايته أن يلتقي بالعشق، لأن الجمال والعشق تعاهدا منذ الأزل على ألا يفترقا أبداً».

اكتسب الحجاب اليوم معناه من تحوّله إلى رمز، يرفضه «العصريون» ويفرضه «الإسلاميون». ثم ألا يشكّل تعدّد الزوجات عائقاً في وجه الادّخار وتراكم رأس المال؟ إن تلبية حاجات أسَرٍ عدة، في بيوت عدة، من شأنه أن يُضعف قوة الزوج المالية. والسماح بالزواج من أكثر من امرأة (حتى أربع نساء) مشروط في القرآن بشرط يكاد يكون مستحيلاً؛ إذ ينبغي للزوج أن يكون عادلاً بين زوجاته وأن يعاملهن بمساواة تامة! ولكن الأصولية لا يهمّها الالتزام بروحية النص القرآني، بل تهدف فقط إلى تأطير المجتمع وتعبئته من أجل إخضاعه لها.

١- ابن عربي، **ياسمين المحبّين** (انظر الترجمة الفرنسية لهنري كوربان):
Henry, Corbin, Le Jasmin des fidèles d'amour, Verdier, Paris, 1991.

قصر نظر المثقفين

كانت نزعة المحافظة والجمود قد بدأت في القرن العاشر تتلف نسيج الحضارة الإسلامية، وهي في أوج ازدهارها. وانتقلت عدوى الأفول إلى رأس الهرم الاجتماعي، ثم انتشرت تدريجياً في أوساط الطبقات الاجتماعية كافة. ومع ذلك لم يبدأ المفكرون المسلمون بالتساؤل عن أسباب هذا التراجع إلا بعد انتصار الصراطية(•) بزمن طويل. ولئن كان قلّةٌ قليلة من الكتّاب قد أشاروا إلى ذلك الأفول ووصفوا أعراضه، فإنهم أحجموا عن البحث في أسبابه. كان ابن خلدون، في القرن الرابع عشر، بين الأوائل الذين طرحوا الموضوع وعالجوه، واضعاً بذلك أسس علم الاجتماع الحديث. وتثير عبقرية ابن خلدون الإعجاب لأنه كان في زمنه عملاقاً وحيداً بين مفكرين أقزام. ففي الوقت الذي كان فيه المؤرخون في جميع أنحاء العالم يؤرخون بأسلوب الحكاية وسرد الأحداث، كان عملاق الماضي العربي هذا يؤكد بأن التاريخ يجب ألا يكون حكاية بل تفكيراً في حركة المجتمعات ومسارها. ففي نظره أن ضعف «العصبية» وموت المشروع الجماعي لدى المسلمين يفسّران تراجعهم. وكان يرى أن الانتقال من البداوة إلى التحضّر تقدّمٌ، وإنما في مرحلة أولى فقط، لأنه يؤدي بعد ذلك إلى «سبات كأنه الموت» عندما يتحول إلى سبب للانحطاط.

فمن أين جاء «قصر النظر» إلى المفكرين المسلمين، قبل ابن خلدون، حتى يعموا عن رؤية انحدار حضارتهم وانحطاطها؟ في رأيي، أن المفكرين المسلمين كانوا يعيشون في حماية الأمراء والحكّام، وتحت رحمتهم، وكانوا لا

•- الصراطية orthodoxie تتألف من جذرين يونانيين: ortho (مستقيم) وdoxa (مذهب) أي «الرأي المستقيم» أو «العقيدة القويمة»، ولذا يمكن أن تُطلَق هذه الصفة لا على السنة فقط، بل على كلّ سنّة، أي كل مذهب يتمسك بأهداب الأصل ويزعم أنه يلتزم الأصول ولا يحيد عنها. (م)

يجرأون على تجاوز حدّ معيّن في نقدهم للمجتمع. حتى أن ابن خلدون نفسه لم يتجاوز هذا الحدّ كثيراً رغم الثروة الطائلة التي كان يمتلكها. فهو مولود في تونس (١٣٣٢) من أبوين قدما من إسبانيا. شغل مناصب رفيعة في فاس قبل أن يدخل في خدمة سلطان غرناطة (آخر الإمارات الإسلامية في الأندلس) عام ١٣٦١. عهد إليه السلطان بمهمات دبلوماسية عدة، وبخاصة لدى ملك قشتالة. وقد سجل ابن خلدون مشاهداته الحية وانطباعاته عن سلوك المسلمين الذين يعيشون تحت حكم المسيحيين.

أورد فيما يلي فقرة ممّا كتبه ابن خلدون، وهي تفسّر، جزئياً على الأقل، العلاقة بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية في زمن الاستعمار: «ترى المغلوب يتشبّه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه... وسائر أحواله. وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم... حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها، فيسري إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير، كما هو الحال في الأندلس لهذا العهد مع أمم الجلالقة، فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم»(١).

كان ابن خلدون موضع حسد حاشية سلطان غرناطة، فاعتزل في قصره الكائن شرق تلمسان في الجزائر عام ١٣٦٣ وعكف على كتابة التاريخ. وفي العام ١٣٨٢ اشتاقت نفسه إلى السفر، فتذرّع أمام أصدقائه بفريضة الحج إلى مكة، ولم يكن همّه في حقيقة الأمر إلا السفر. توقف أثناء سفره في القاهرة، بدعوة من السلطان المملوكي الذي أوكل إليه منصب قاضي مدينة القاهرة. وفي العام ١٤٠١ رافق السلطان في زيارة إلى دمشق، أثناء حملة المماليك العسكرية ضد تيمورلنك. وقد استقبله هذا الأخير استقبال الفاتحين.

لئن كانت مؤلفات ابن خلدون تمتاز على مؤلفات معاصريه، بل حتى على

١- ابن خلدون: **المقدمة**، طبعة دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٩١م، ص ١٥١، ١٥٢.

مؤلفات المشاهير الذين سبقوه، فإنها برغم ذلك لم تشكّل تياراً أو مدرسة فكرية في العالم الإسلامي. ولم تظهر أهمية مؤلفاته إلا في وقت متأخر جداً، في القرن التاسع عشر، بفضل بعض المستشرقين الغربيين الذين اكتشفوها!

لنعد الآن، مرة أخرى، إلى قِصر نظر المفكرين المسلمين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، لنشير إلى سبب آخر – غير ولائهم للأمراء والحكام الذين يحمونهم ويشجعونهم – وهو اعتقادهم بالتفوّق الذاتي للإسلام واستعلائه على الأديان الأخرى. وهو الاعتقاد الذي يسعى الأصوليون اليوم إلى إحيائه بين الجماهير والطبقات الوسطى. ويمكن القول إن المثقفين، في العصور الوسطى، أسهموا في نشر هذا الاعتقاد. فقد انضافت الانتصارات العسكرية إلى واقع كون القرآن آخر رسالة سماوية، لترسّخ لدى المسلمين الشعور بالفوقية والاستعلاء. ولئن امتنع غير المسلمين عن الدخول في الإسلام، فهذا معناه أنهم يضعون أنفسهم بأنفسهم في وضعية دونية، بله في وضعية الخطيئة. وهكذا غدا المسلمون وحدهم قابضين على زمام «الحق والحقيقة» بينما باقي البشر في جهلهم يعمهون!

أورد، على سبيل المثال، نصاً لعالم أندلسي كبير من القرن الحادي عشر يوضح هذه العقلية، هو صاحب مصنّف في الأمم والشعوب والأقوام، يجعل الأوروبيين في مصاف البهائم تقريباً: «إن شعوب هذه الفئة جميعاً (أي أهل الشمال) الذين لم يعتنوا بالعلوم هم أقرب إلى البهائم منهم إلى البشر»[1]. في القرن التالي عزّزت انتصارات الموحّدين على ملوك إسبانيا المسيحيين وانتصارات صلاح الدين على الصليبيين، عززت هذا الشعور بالتفوّق والتعالي

١- كتاب **طبقات الأمم** لصاعد بن أحمد الأندلسي (راجع الترجمة الفرنسية لريجيس بلاشير):

Régis Blachère, Livres des Catégories des nations, Institut des hautes études marocaines, Paris, 1935.

لدى المسلمين. وما أن تراجع هذا الشعور قليلاً أمام الغزو المغولي، في أواسط القرن الثالث عشر، حتى عاد فانبعث من جديد مع اعتناق الغزاة المغول الدين الإسلامي، ليبلغ حداً أقصى، فيما بعد، مع الفتح العثماني لجزء كبير من أوروبا الوسطى.

إن الكمال الذي أسبغته المخيَّلةُ على النظام الإسلامي أدّى إلى تهميش أي عمل يسعى إلى نقده وإصلاحه، بل أدّى أيضاً إلى منع المسلمين من معاينة انحطاط هذا النظام، وحال دون إدراكهم لواقع تخلّفه. وحتى اليوم، يأنف المثقفون من استخدام عبارات مثل أفول، انحطاط، تخلّف، ...الخ لوصف هذه الحالة؛ ففي حديث صحافي قال أحد السوسيولوجيين المعاصرين: «لمدة خمسة قرون راكمت أوروبا "فائض قيمة" تاريخي هائل هو الذي أسّس تفوّقها إلى يومنا هذا. في مقابل هذه الحركة، كان الشرق صامتاً. بل كان، كما يقولون، "في انحطاط!". والحال أن الأبحاث الحديثة قد أثبتت، خلافاً لذلك، أن السلطة السياسية بقيت مستمرة اجتماعياً وقومياً، كما استمرت العلاقات الثقافية والدينية حول مناطق الشرق الكبرى: الإسلام والبوذية. في الواقع، حافظ الشرق على نفسه، ولكنه بقي في المقام الثاني»[١].

كان لا بدّ إذن من انتظار بضعة قرون من الزمن بعد ابن خلدون لكي تبدأ فكرة «التراجع» أو «التخلّف» ثم فكرة «الانحطاط» أو «الأفول»، أو الفكرتان معاً تقلقان بال الفئات المثقفة من المسلمين. وكان أول ما وعى المسلمون تفوّق الأوروبيين عليهم في المجال العسكري. فالتفوّق الأوروبي المتزايد، براً وبحراً، كان يهدّد السلطنة العثمانية في القرن السابع عشر. وكان السلطان العثماني، خليفة المسلمين، يسعى إلى معرفة الغرب من أجل فهمه، وإلى عقد المعاهدات والاتفاقيات مع بعض ملوكه. لكن هذا العمل لم يرافقه أي شعور بالنقص والدونيّة، إذ لم يكن يدور في خلد أحدٍ على الإطلاق أن العالم الإسلامي يمرّ في حالة من

١- حديث مع أنور عبد الملك أجراه بول بالطا في صحيفة لوموند (Le Monde, 9 Déc 1979).

الانحطاط. فبعد الهزيمة البحرية القاسية التي مُني بها الجيش العثماني في معركة ليبانت (Lépante)، طلب السلطان سليم الثاني (١٥٦٤-١٥٦٦) من كبير وزرائه أن يقدّر قيمة النفقات المالية التي تتطلبها إعادة بناء الأسطول البحري، فأجاب الوزير: «إن السلطنة هي من القوة بحيث أنها قادرة، إن هي شاءت، على تجهيز سفننا جميعاً بمراسي من فضة وحبال من حرير وأشرعة من ساتان»[١].

الاستعمار

تغيّر مسارُ الأوضاع مع التوسع الاستعماري في القرن التاسع عشر. فكان غير المسلمين يكسبون المعارك، واحدة تلو الأخرى، وينتزعون من العثمانيين الأقاليم والبلدان، الواحد بعد الآخر. هذا التغيّر، الذي قلب الأمور رأساً على عقب، أرغم الكثير من المسلمين على إعادة النظر في الأمور، على نحو غالباً ما كان مأسوياً. فالهزائم المتلاحقة التي أحاقت بالجيوش الإسلامية أثبتت، بالدليل القاطع، أن السلطنة العثمانية هبطت إلى مستوى متدن جداً. إذّاك بدأ الساسة والمثقفون، في كل أقطار العالم الإسلامي، يتساءلون عن أسباب تخلّف مجتمعاتهم عن المجتمعات الغربية. وقد بقي الانحطاط المفاجئ الذي أصاب الحضارة الإسلامية لغزا محيّرا في نظر كثير من المسلمين. فقد كان المسلمون، المتمسكون بالتقاليد، يرون في ذلك الانحطاط عقاباً أنزله الله بهم، بسبب انحراف حكامهم عن سواء السبيل وسكوت شعوبهم عن هذا الشطط. وكان الحلّ الوحيد، في رأيهم، يكمن في العودة إلى الإسلام النقي، مثلما كان في أول ظهوره، وفي التمسّك بأهداب الشريعة الإسلامية. وهذا بالضبط هو موقف «الإسلاميين» اليوم.

١- برنارد لويس: **كيف اكتشف الإسلام أوروبا؟** (بالانجليزية):

Bernard Lewis, The Muslim Discovery of Europe, New York, 1982.

انظر الترجمة الفرنسية:

Comment l'islam a découvert l'Europe?, La découverte, Paris, 1984.

بعد «الصدام» مع الغرب المصنِّع والمستعمِر، تطور الفكر الإسلامي بشكل أساسي في اتجاهين متعاكسين: من ناحية، هناك الاتجاه الذي سأسمّيه الاتجاه «التقدمي»، نظراً لانعدام تسمية أكثر دقّة، وهو اتجاه يطالب بإعادة النظر في بعض المفاهيم الجامدة. ومن ناحية أخرى، هناك الاتجاه «السلفي» الذي يناضل من أجل العودة إلى «الأصول» التي يختلف مداها وموضوعها باختلاف الملل والمذاهب واختلاف أصحابها. إذ يجب، في نظر بعض هؤلاء، إعادة العمل بالأصولية الصراطية كما كانت سائدة في القرن الثاني عشر (لأنها ما اندثرت قطّ). وفي نظر البعض الآخر يجب تقليد النبي والخلفاء الأربعة الأوائل. فـ«التقدميون» يرون أن الإسلام موجود «أكثر مما يجب» وأن التفسير المتشدد للنصوص الدينية يعيق تطوّر المجتمعات الإسلامية، و«السلفيون» يقولون عكس ذلك: فهم يرون أنه «لا يوجد إسلام بقدر ما يجب»، وأن الله يعاقب المسلمين على تهاونهم هذا.

الانحطاط منظوراً إليه من أوروبا

لم تدرك أوروبا أن العالم الإسلامي آخذ في الانحدار إلا ابتداءً من النصف الثاني من القرن السابع عشر. فحتى ذلك الوقت كان الإرث العلمي الذي أفاد منه الغربيون لا يزال يبدو لهم عظيماً، ويحول دون التصوّر بأن الفكر الإسلامي قد دخل في طور انحطاط. أما على الصعيد العسكري، فلم تكن استعادة إسبانيا ذات أهمية تذكر بإزاء التوسع العثماني في أوروبا الوسطى. فمظاهر العظمة التي كانت تحيط بالإمبراطورية العثمانية ونهضة «الصفويين» في إيران، كانت تحجب حقائق الواقع عن عيون المفكرين في أوروبا، وتحول دون رؤيتهم بذور الانهيار آخذة في النمو(١).

١- روبرت برونشفيغ، **مشكلة الانحطاط** (بالفرنسية): Robert Burunchwig, Problème de la decadence، في الكتاب الجماعي **النهوض والانحطاط الثقافي** (مرجع مذكور).

كان فرنسوا برنييه، الطبيب الخاص لسلطان المغول في الهند، أول من ندّد «بالطغاة الجشعين المستبدّين المتجبرين»، وذلك في رسالة كتبها إلى كولبير. ثم ندّد فولتير بـ«الحكم البغيض...» وفضح مونتسكيو «الاستبداد» في الشرق الإسلامي.

والحق أن الانهيار المذهل الذي أصاب العالم الإسلامي بعد القرن الثاني عشر لم يُطرح كموضوع للبحث والتمحيص، سواء من قبل المسلمين أو من قبل الغربيين، إلا منذ زمن قريب نسبياً. وتتيح أحداث التاريخ، كالغزو المغولي مثلاً، تعيين المراحل التي مرّ بها تطور المجتمعات الإسلامية، لكنها لا تتيح تفسير هذا التطوّر وشرح أسبابه.

بعدما تنبّه المستشرقان روبير برونشفيك وغوستاف فون غرونباوم إلى هذه الثغرات، دعيا إلى مؤتمر دولي عقد في بوردو عام ١٩٥٦ لبحث الموضوع تحت هذا العنوان العريض: «النهوض والأفول الثقافي في تاريخ الإسلام»[١]. وقد حرص منظمو المؤتمر على عدم استخدام كلمة «انحطاط» في هذا العنوان الموضوعي، بغية عدم المسّ بمشاعر المسلمين، لاسيما إذا استخدِمت هذه الكلمة من قِبَل «غير المسلمين». كما أن المشاركين في هذا اللقاء، وهم جميعاً مختصون في «العلوم الإسلامية»، حرصوا حرصاً شديداً على مراعاة تلك المشاعر في تناولهم الموضوع، كما يشهد على ذلك المقطع التالي الذي اقتطفناه من مداخلة المشاركين في اللقاء: «تخلّفٌ لا ينال أبداً من الحيوية الخلاّقة في حضارة ما... إذ لم يصب سوى عددٍ محدودٍ من القطاعات والمؤسسات... حتى أنه يمكن تعطيل مفاعيله بالنجاحات التي تحرزها قطاعات فكرية أخرى. أما إذا امتدّ على نحوٍ خطير لينتشر في جسم المجتمع كله، وأحدث خللاً كبيراً، أو أدّى إلى الحيلولة دون ولادة أشكال جديدة أو إلى شلّ تطوّر الأشكال الجديدة، فإنه في نهاية الأمر يُحدث انحطاطاً شاملاً: هذا التراجع الشامل لا يعني أنه لا تبقى هنا أو هناك قطاعات تستمر في التقدّم، بل يعني أن القسم الأكبر والأساسي من

١- المرجع نفسه.

قوى التجديد في كافة ميادين الحياة الثقافية والفكرية يغطّ في سبات عميق. بهذا المعنى، وبهذا المعنى فقط، لا يبدو لي ممكناً القول بأن العالم الإسلامي، في نهاية العصور الوسطى وفي العصور الحديثة، لم يكن، في الجملة، عالَماً قيد الانحطاط»[١].

ما أحوج القارئ، بعد مثل هذه الفذلكة، إلى أن يتنفّس الصعداء. فذلك كله كان من أجل قول شيء لا بدّ من قوله: لم يعد العالم الإسلامي بعد القرن الحادي عشر أو الثاني عشر ما كانه قبل هذين القرنين! فمتى نعتاد على تسمية الأمور بأسمائها مباشرة؟

مهما يكن من أمر، ورغم التحفظات التي يمكن أن تثيرها آراء بعض المشاركين في ذلك المؤتمر، فإن قراءة النصوص تبدو لي ذات أهمية فائقة لإيضاح بعض العقبات التي تعترض سبيل العالم الإسلامي إلى النهوض والتقدّم. ولا يعني ذلك أني سأقوم هنا بإيجاز مجمل المسائل التي طرحها المؤتمرون وناقشوها، إذ تكفي الإشارة إلى بعض العناوين لتبيان مدى اتساع المشكلات:

«كيف تجمّد الفكر الديني في الإسلام؟»، «المرحلة التأسيسية والنزعة التقليدية وجمود الشرائع الإسلامية»، «هل يُسهم التزمت في الانحطاط؟»، «إلى أي حدّ أعاق التعليم الوثوقي (الدغمائي) تطوّر المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام؟»، «دور العوامل الاقتصادية والاجتماعية في جمود الفكر الإسلامي»، «الصوفية والانحطاط الفكري»، «كيف تجمّد الفكر الفلسفي في الإسلام؟»، «دور العلوم الغيبية في الانحطاط»، الخ...

سأكتفي الآن بما يلي: لاحظ أحد المشاركين أن المجتمع الإسلامي لم يتغيّر منذ القرن الحادي عشر، ولا يزال حتى يومنا هذا يجمع بين الحياة الحضرية والحياة القبلية دون أن يصهرهما (وقد اتضح هذا الازدواج في العراق أثناء

١- المرجع نفسه.

حرب الخليج). وتتأرجح المجتمعات الإسلامية، بحسب دراسات جديدة، بين نمطي العيش هذين، وتستعيد في فترات دورية، شبه منتظمة، أشكالَ النشاط نفسها والمؤسسات نفسها[١].

الجمود والخوف من التجديد

تخلف، أفول، انحدار، جمود، انحطاط، ...الخ، كل هذه المفردات تذكرنا بشيء واحد وهو أن المجتمعات الإسلامية تميّزت بالجمود منذ العصور الوسطى: فهي تولي ظهرها لـ«الجديد» وتتمسك عامدةً متعمّدةً بالقديم والتقليد. ويخطئ المراقبون، في اعتقادي، عندما يعزون أسباب نجاح الحركات (الإسلامية) إلى خيبة الجماهير إزاء فشل برامج التنمية الاقتصادية أو إلى المظالم الاجتماعية. ذلك أن الظروف والأحداث التي تجري في الحياة الدنيا لا شأن لها ولا أهمية في نظر المؤمن الحقيقي، بل إن ما يستأثر بالأهمية كلها هو الآخرة والجنة. لم يكن لدى الانتحاريين الذين كانوا يقاتلون تحت راية الخميني، ويلقون بأنفسهم في حقول الألغام العراقية، سوى فكرة أن المتفجرة البلاستيكية التي يطوّق واحدهم عنقَه بها هي مفتاح جنة الخلد. وقد تكونت لديّ قناعة راسخة من خلال تجارب عيشي في العالم الإسلامي، العربي وغير العربي، بأنه يوجد لدى معظم المسلمين «رفض فطريّ» لكل جديد.

أشرت في مطلع هذا الفصل إلى العقائد التي ترفض التجديد. وإيضاحاً لذلك، سأسوق هنا حواراً غريباً جرى في القرن العاشر بين مفكرَين، أحدهما من أنصار التقليد والمحافظة والآخر من أنصار التجديد و«التقدّم». فقد قال هذا

١- لوي غارديه: **كيف تجمّد الفكر الديني في الإسلام؟** (بالفرنسية):

Louis Garget, De quelle manière s'est enkylosée la pensée religieuse de l'islam?

الأخير لمحاوره بأنه تمكّن من «بلورة إنجاز فلسفي حقيقي يجهله الأقدمون» ممهّداً لذلك بقوله: «إعلمْ أن كلَّ متأخرٍ من الفلاسفة إذا صرف همّته إلى النظر في الفلسفة وواظب على ذلك واجتهد فيه وبحث عن الذي اختلفوا فيه لدقته وصعوبته، عَلِمَ عِلْمَ من تقدَّمه منهم وحفظه واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أُخَرَ؛ لأنه مَهَرَ بعلم من تقدمه وفطِن لفوائد أُخَر واستفضلها؛ إذ كان البحث والنظر والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل» (أي أن المفكر الحديث يفيد من المكتسبات التي أنجزها المفكرون السابقون ويضيف إليها شيئاً جديداً). فأجابه الآخر: «فإن كان الذي استدركه المتأخر خلافاً على من تقدّمه كما خالفتَ أنت من تقدّمك، فإن الخلاف ليس بفائدة؛ بل الخلاف شرّ زيادة في العمى وتقوية للباطل ونقض وفساد»[1].

«شرّ الأمور محدثاتها» هذا الكلام ينسبه المسلمون التقليديون (السنّة) إلى النبي. ولكن إذا كانت محدثات الأمور شراً فماذا عساها تكون أمة المسلمين وهي نفسها محدثة أنشأها النبي في المدينة؟ وماذا تكون الخلافة التي استُحدثت من بعده؟ لا بل ماذا يكون القرآن والإسلام؟

لكن لماذا لا يزال العالم الإسلامي يتمسك بالتقليد ويرفض التجديد؟ إن كل سبب من الأسباب التي ذكرناها في هذا الفصل يحمل قسطاً من المسؤولية عن هذه الحالة. وقد يؤدي النظر إلى هذه الأسباب مجتمعة، من دون ترتيبها في تسلسل معيّن، إلى حالةٍ من البلبلة وعدم الوضوح. فالواقع أن بعض هذه الأسباب يصحُّ في تفسير أفول أية جماعة بشرية، في حين أن بعضها الآخر يختص بتفسير أفول العالم الإسلامي. علاوة على ذلك، يستحسن أن نميّز بين الأسباب، في بعضها الأخير هذا، تبعاً «لتأثيرها وقوة فعلها». على أن ذلك يتطلب تبحّراً وبحثاً دقيقان يتجاوزان مقدار الجهد المتواضع الذي يقتضيه

١- حوار جرى بين الإسماعيلي أبي حاتم الرازي والسني أبي بكر الرازي (وليس بينهما من نسب). ذكره برونشفيغ (مرجع مذكور).

موضوع كتابنا هذا. لذا سأكتفي باستخلاص القاسم المشترك بين عوامل الأفول جميعاً.

إذا تفحصنا مجرى التاريخ عن كثب، رأينا أن مظاهر أفول الحضارة الإسلامية كانت تسبق أو تعقب التشدّد المذهبي والإصرار على التمسّك بالعقيدة الصراطية؛ وكان الازدهار العلمي يتراجع كلما كان يعلو صوت فقهاء الشرع لتكون لهم الكلمة الأخيرة في المجتمع. ولا أخالني مخطئاً إذا قلت إن الصراطية هي القاسم المشترك الذي يجمع بين أسباب انحطاط العالم الإسلامي. وأقول «الصراطية» لأني أرى أن صورة الإسلام الرسمية، التي يعتمدها اليوم فقهاء السنّة والشيعة على حدّ سواء، قائمة على التفاسير التي وضعت بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر وفُرضت فرضاً. ولا يعني هذا أن التيارات الأخرى التي كانت قائمة، قد زالت واندثرت تماماً، كما لا يعني أيضاً أن تاريخ العالم الإسلامي لم تتخلله، منذ نهاية العصور الوسطى، فتراتٌ من الليبرالية النسبية.

خلاصة القول أن خصومة «الإسلاميين» ليست مرتبطة بالاختلاف في التفاسير الدينية المتعدّدة التي تبقى جميعاً أصولية في العمق وفي الجوهر، بل هي موجّهة في المقام الأول ضدّ تراخي أو تواطؤ الحكّام الذين يغضون الطّرْفَ بقدْرٍ أو بآخر عن شطط الحداثة وخروجها على أحكام الشريعة. وقد بلغ من شدّة عطش الأصوليين إلى السلطة أنهم باتوا يعتقدون أن أعداء الدين هم في كل مكان، وأن العالم مليء بالمؤامرات على الإسلام، وأنها ترمي إلى محوه عن وجه الأرض! منذ العام ١٩٧٠ أعلن الخميني من منفاه في النجف (المرجع الديني الشيعي في العراق): «على الرغم من أن الشاه يتحدث عن الإسلام ويدّعي أنه مسلم، فإنه يسعى وأسرته إلى إلغاء تعاليم القرآن بالتقسيط»؛ وهو يعني، بسعي الشاه ذاك، الإصلاحات الكبرى التي جرت في الأربعينات (منع الحجاب) وفي الستينات (حق المرأة في التصويت، تعديل القوانين المتعلقة بالطلاق وتعدد الزوجات، الخ...). كذلك يتحدث «الإسلاميون» الجزائريون عن الانحراف عن الإسلام والاعتداء عليه. فقد أدلى أحدهم بحديث للصحافة جاء

فيه: «لقد شيّد هذا النصب (نصب شهداء حرب التحرير) كما شُيّدت الملاهي الليليّة! وأُنفقت الأموال على ملذات الأثرياء وفجورهم في الملاهي وبيوت الدعارة... سنطبق أحكام الشريعة الإسلامية التي لا بد منها لإحقاق الحق وإقامة العدل على الأرض... كل ما يخالف الشريعة لن نقبل به، وسنرفضه رفضاً قاطعاً»[1].

باختصار، بعد أربعة قرون من الانفتاح والتقدّم، انغلق العالم الإسلامي على نفسه وأصيب بفقر الدم فكبح التّزمتُ الدينيُّ التقدمَ العلميَّ وعطّل الابتكارَ والتجديدَ وسحَقَ الإبداعَ سحقاً تاماً.

هذا الانقلاب المفاجئ في العالم الإسلامي، يظهَرُ القرن الثاني عشر بأنه كان بداية له ومنطلقاً.

١- عباسي مدني في حديث لمجلة Politique Internationale، خريف ١٩٩٠.

الفصل الثالث

المنعطَف الكبير في القرن الثاني عشر

فَقَدَ العالم الإسلامي، بعد القرن الثاني عشر، كلّ قدرة على استعادة ماضيه المجيد. ولا شك في أن ثمة أسماء كبرى برزت في العلوم والآداب مثل ابن خلدون في القرن الرابع عشر وابن مسعود عالم الرياضيات في القرن الخامس عشر... لكن هذا البروز لم يكن إلا الاستثناء الذي يُثبت القاعدة. أما الانتصارات العسكرية التي حققها العثمانيون في القرن السادس عشر، فلم يرافقها أي ازدهار ثقافي وفكري مرموق. كذلك فإن «النهضة» الفارسية في عهد الأسرة الصفوية، في القرن السابع عشر، ما لبث وهجها أن خبا وانطفأ بسرعة.

في القرن الثاني عشر، إذاً، توقف نموّ الحضارة الإسلامية بصورة نهائية. بل إن قوة الصدمة أحدثت تراجعاً إلى الوراء. وعلينا، قبل أن نبدأ بوصف الأحداث التي أدّت إلى جمود العالم الإسلامي، أن نلقي نظرة شاملة إلى التاريخ.

العالم الإسلامي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر

منذ أواخر القرن العاشر، باتت الوحدة السياسية لديار الإسلام تنزع إلى التفكك والتشرذم (وهي وحدة لم تكن متماسكة في أي وقت من الأوقات). وكانت سلطة الخليفة العباسي في بغداد تضعف تدريجياً حتى غدت سلطة شكليّة، لا وزن لها خارج نطاق العاصمة.

وفي شمال أفريقيا، أدّت النزاعات بين قبائل البربر إلى تأسيس أسر حاكمة مستقل بعضها عن بعض، وأقرب إلى البدعة منها إلى السنّة. وفي حوض

المتوسط، استعادت بيزنطة قوتها البحرية شيئاً فشيئاً. وفي إيران، كان الشيعة (أنصار علي) يعانون من الشعور بالظلم والإحباط، لأن العباسيين صاروا يضطهدونهم على الرغم مما قدّموه لهم من الدعم والمساعدة للاستيلاء على الخلافة. وقد نشبت أيضاً ثورات كان أهمها ثورة القرامطة التي أسس أحدُ قادتها دولةً شيعية في جزيرة البحرين، ثم هاجم مكة واستولى على الحجر الأسود (المقدّس عند المسلمين). وثمة قرمطي آخر أسّس دولة شيعية أخرى في تونس، بعد أن قلب دولة الأغالبة التي كانت موالية لبغداد.

كانت هذه الأحداث تقض مضجع الخليفة العباسي الذي كان ضعيف الثقة ببني قومه من العرب، ففتح باب الانخراط في الجيش أمام أقوام أخرى. وكان هؤلاء يتقاضون أجوراً زهيدة، فكانوا يلجأون إلى أعمال النهب، فيثيرون سخط الناس. كذلك انقسمت البلدان الشرقية إلى إمارات وسلطنات صغيرة مستقلٌ بعضها عن بعض، فظهرت في وسط إيران أسرة مالكة شيعيّة (البويهيون)، كما ظهرت في خراسان (شرق إيران) أسرة السامانيين المتحدرة من الارستقراطية الفارسية، وقد تعرّضت فيما بعد، لغزو قبائل تركيّة أتت من الهضاب وأسست دولة حكمتها أسرة الغزنويين.

في القرن الحادي عشر، كان هناك ثلاثة خلفاء في آن واحد: الخليفة الأموي في قرطبة، والخليفة الفاطمي (الإسماعيلي الشيعي) في القاهرة، والخليفة العباسي في بغداد. ولئن كان هذا التناقض بين بغداد وقرطبة محمولاً على المحمل القبلي (عباسي/أموي) فإنه كان بين بغداد والقاهرة محمولاً على المحمل المذهبي الأيديولوجي (سني/شيعي).

في إسبانيا، بلغت الخلافة الأموية أوج مجدها في عهد عبد الرحمن الثالث (٨٨٩-٩٦١) حيث رافقت الانتصارات العسكرية إنجازاتٌ اقتصادية وثقافية باهرة. فقد كان في قرطبة، في القرن العاشر، مكتبة تضم أربعمائة ألف كتاب.

وكانت جامعتها ومدارسها تجمع العلماء والفلاسفة من المسلمين واليهود والمسيحيين (موزاراب) في أجواء من التسامح عزّ نظيرها. وكان الفقهاء والفلاسفة، من كل دين ومذهب، يعرضون آراءهم ويتحاورون بحرية وانفتاح، فولدت حضارة أصيلة إسبانية-إسلامية، وصل إشعاعها إلى قلب أوروبا. أما انهيارها فقد بدأ أواخر القرن العاشر.

بسقوط الخلافة في قرطبة (١٠٣٠) بدأت الأندلس تتفكك ويتقاسمها أمراء يناوئ بعضهم بعضاً، وبدأ المسيحيون محاولاتهم لاستعادة الجزيرة. فأرغم ملك قشتالة فردناند الأول (١٠٦٣-١٠٦٤) ملوك بطليوس وطليطلة على القبول به كسيّد أعلى. ولكن بعد وفاته حالت الانقسامات الداخلية التي امتدت إلى مقاطعات أخرى دون القيام بمبادرات توحيدية من هذا النوع. وخير مثال على مدى هشاشة الأوضاع في ذلك الوقت، هو مثال «السيد» (Le Cid): كان «رودريك دياز دو فيفار»، وهو من فرسان قشتالة، على نزاع مع ملك بلاده، فلجأ إلى أشبيلية ودخل في خدمة ملكها (١٠٧٧) الذي كان يخوض حرباً ضد أمير غرناطة، فأكسبته شجاعته لقب «سيدي» (أي السيد، ومنها جاءت كلمة سيد Cid)، ثم ما لبث أن ترك أشبيلية ودخل في خدمة ملك سرقسطة. وبعد ذلك اقتطع لنفسه إمارة مستقلة في بلنسية Valence فحكمها بنفسه إلى أن توفي العام ١٠٩٩.

بعد موت فردناند الأول استولى ابنه ألفونس السادس (١٠٧٢-١١٠٩) على العرش الذي نازعه عليه أخوته. ثم غزا طليطلة Tolède عام ١٠٨٥، فغدا نصف إسبانيا في أيدي المسيحيين. وقد أثارت الانتصارات المسيحية حفيظة الأمراء المسلمين الذين استنجدوا بحكام المغرب الجدد: المرابطين، وهم من أصل بربري يدينون بعقيدة أصولية ويقمعون كل ما يرون أنه بدعة، فاستجابوا على الفور لنداء أمراء الأندلس، وأبحروا إلى إسبانيا عام ١٠٨٦، أي بعد سنة واحدة من سقوط طليطلة. وألحقت قوات السلطان يوسف هزيمة قاسية بالجيوش

المسيحية في زلاّقة (Zallaka)، فثمل سلطان المرابطين بنشوة النصر وتأييد الجماهير والعلماء له، فعزل الأمراء ووحّد الأندلس تحت إمرته، وجعلها جزءاً من دولة المرابطين. لكن هذه الدولة لم تعش طويلاً (١٠٩٠-١١٤٧) إذ ما لبث هؤلاء البدو، ذوو العادات والطباع الجلفة، أن استسلموا لرخاء العيش وأخذوا بعادات مسلمي إسبانيا.

كذلك حدث في النصف الثاني من القرن الحادي عشر أنّ أسرة مالكة تركية جديدة (السلاجقة) استولت على أصقاع شاسعة ممتدة من الأناضول إلى حدود الهند، ومن سهوب الشمال إلى تخوم مصر. كان السلاجقة على المذهب السني، فتعهدوا حماية الخليفة، لكنهم لم يتركوا له سوى سلطة شكلية على العاصمة بغداد فقط. وأقاموا سداً منيعاً في وجه الدعوة الشيعية التي كان يرفع لواءها الفاطميون في القاهرة. وبفضل الوزير الفارسي الأصل «نظام الملك»، أنشأوا نظاماً تعليمياً رسمياً هو نظام المدارس الذي كان بمثابة «حصن منيع» للتعليم الديني، فكان لذلك أكبر الأثر في تعطيل تقدم العلوم.

في أواخر القرن الحادي عشر تقطّعت أوصال الإمبراطورية السلجوقية بسبب الصراع على ميراث الحكم، فانقسمت إلى عدة سلطنات قبل أن تنهار نهائياً في العام ١١٩٤ أمام سلسلة الهجمات التي شنتها سلالة تركية أخرى. في تلك الأثناء كان الصليبيون القادمون من أوروبا يحرزون انتصارات كاسحة، فقد استولوا على القدس عام ١٠٩١، وأنشأوا ممالك صغيرة وإمارات في فلسطين وسوريا. ولم يبذل الخلفاء في بغداد وقرطبة والقاهرة أي جهد لوقف هذا الزحف الذي كان يشكل تهديداً فعلياً للإسلام. وعندما أرسل صلاح الدين وفداً إلى بغداد ليطلب العون والدعم من الخليفة، اكتفى هذا الأخير بالتشجيع اللفظي وذرف الدموع الحارة على ضياع القدس وإقامة الصلوات في المساجد[١].

كان سلطان الخلفاء الفاطميين يتقلص باستمرار. وانفرد قادة الجيش أكثر

١- فيليب حتي (مرجع مذكور).

فأكثر بتسيير دفة البلاد. وهكذا نجح صلاح الدين بقلب الأسرة الحاكمة عام ١١٧٤ وأعاد تثبيت المذهب السني، واستعاد القدس.

في المغرب الإسلامي، نجحت جماعة أخرى من البربر في وضع حدّ لدولة المرابطين، وأنشأت مكانها دولة الموحدين في القرن الثاني عشر. وكان مذهب الموحدين أكثر تشدداً وأصولية من مذهب المرابطين. وكان إمام المذهب الجديد (وقد سبق الكلام عنه)[1] يزعم أنه «المهدي المنتظر» الذي سيعيد الإسلام «الحقيقي» وفقاً لمعتقدات السنة. وسرعان ما بسط الموحدون سلطانهم على المغرب كله، في حين أن الأندلس الإسلامية كانت تؤول إلى المزيد من الانقسام، بحيث باتت الأوضاع ملائمة لكي يستعيد المسيحيون المبادرة ضد المسلمين. لكن هذه المرة، لم تكن مملكة قشتالة هي الممسكة بزمام القيادة: فقد كان الصراع على العرش قد استنزفها وأخذ منها كل مأخذ. ولم يحسم هذا الصراع إلا بتتويج ألفونس السابع (١١٢٦-١١٥٧). على أن المقاطعات الشرقية انفصلت عنها في عام ١١٤٠ وشكّلت مملكة البرتغال التي ضمت إليها في العام ١١٤٧ مرفأ ليشبونة بفضل الدعم الذي قدّمه أسطول أنجليزي-فلمنكي انحرف عن هدفه صوب الأرض المقدّسة بفعل عاصفة بحرية حوّلت اتجاهه. استولى ملك الأرغون على سرقسطة عام ١١١٨ بمساعدة فرسان فرنسيين وانتزع طرطوشة Tortosa عام ١١٤٧ واتجه جنوباً.

هذه الانتصارات المسيحية أقلقت الأمراء المسلمين الذين لجأوا ــ كما فعل أسلافهم ــ إلى طلب النجدة من مراكش، فما كان من السلطان عبد المنعم إلا أن أنزل هزيمة قاسية بالمسيحيين، وبسط سلطانه ــ كما فعل أسلافه المرابطون ــ على كامل الأقاليم الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية (١١٤٦-١١٦٣). وبعدما دانت لعبد المنعم هذا ضفتا المتوسط، اتّخذ لنفسه لقب خليفة المسلمين. وحينما حاول الحكام المسيحيون في الشمال الوقوف في وجهه، سدّد إليهم ضربة قاصمة في معركة الأرك Alarces عام ١١٩٥.

١- ابن تومرت (راجع المقدمة).

في بداية عهد الموحدين استعادت الأندلس ألقها وازدهارها. وفي الوقت نفسه، كان الانحطاط يدبّ في الشرق الإسلامي. لكن خلفاء عبد المنعم سرعان ما تحوّلوا إلى التشدد الأصولي والتمسّك بمذهب ابن تومرت.

انتحار ثقافي

كان حكام العالم الإسلامي، وهو في غمرة التحولات المذهبية والسياسية، ماضين في تشجيع العلم والفلسفة على الرغم من هيمنة التشدّد الديني. ففي عهد الموحدين كان الخليفتان الأولان يحميان العلماء من بطش رجال الدين الذين كانوا يضطهدونهم. وفي أواخر القرن الثاني عشر تزايد عدد محارق الكتب واضطُهِد الفلاسفة والعلماء في إسبانيا كما في كل مكان آخر. وفي الوقت الذي كان فيه فقهاء قرطبة يهاجمون ابن رشد وكتاباته، كانت السلطات تطلب من يهود الأندلس إما أن يعتنقوا الإسلام وإما أن يغادروه. ولمّا كانت هذه السلطات تشك بتحول اليهود إلى الإسلام وبأنهم لن يقلعوا عن ممارسة شعائرهم الدينية سراً، فقد فرضت عليهم أن يخضعوا لـ«امتحان الصدق» (فقد كان يطلب من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام أن يذبحوا دجاجة مثلاً أو أن يوقدوا ناراً يوم السبت؛ فإذا رفضوا فِعل ذلك أو تلكأوا فيه، كان ينزل بهم قصاص شديد قد يصل إلى حدّ القتل).

انتهى القرن الثاني عشر بانتصار التشدد الأصولي في عموم العالم الإسلامي. ولئن كانت الأبحاث العلمية والفلسفية قد توقفت في الشرق منذ مطلع هذا القرن، فسوف تعرف في أواخره مصيراً أسوأ في الأندلس وشمال أفريقيا، وكذلك في مصر في بداية القرن التالي (بعد موت صلاح الدين وانهيار سلطنته).

في إيران وبلاد ما بين النهرين، كانت مؤلفات ابن سينا والفارابي تلقى طعماً للنار، وكذلك كان مصير مؤلفات ابن رشد (نذكر هذين الاسمين على

سبيل المثال لا الحصر) في إسبانيا. وفي سوريا أمر صلاح الدين بقتل الفيلسوف الصوفي السهروردي، وفي قرطبة كانت تحرق المخطوطات المحفوظة في المكتبة الكبرى التي أنشأها الخلفاء الأمويون.

كان المسلمون يتسابقون على إتلاف إنجازاتهم العلمية والفلسفية، وكأنما أصابهم سُعار ضد الفكر، تشجعهم على ذلك السلطات الدينية والدنيوية. كان رجال الدين يقولون: «يحوي القرآن كل الحقائق اللازمة لهداية المؤمنين في هذه الحياة الدنيا، ولفتح أبواب الجنة لهم في الآخرة». ويمكن الجزم، دون مبالغة، بأن عملية انتحار ثقافي فعلية لم يسبق لها مثيل في التاريخ حدثت في ديار الإسلام. وأشدّد على كلمة انتحار لأن إتلاف الكنوز الفكرية وإلغاء الإبداع لم يكونا من فعل الغزاة البرابرة، بل من فعل المسلمين أنفسهم. لقد أنكرت الأمة الإسلامية حضارتها طائعة مختارة، وباشرت عملية تدمير ذاتي امتدت آثاره ومفاعيله على مدى عدة قرون متواصلة.

كيف يمكن تفسير هذه الحماقة؟ ثمة أحداث مختلفة كانت قد مهّدت لهذا السلوك منذ زمن. فالفلاسفة والعلماء كانوا قد طوروا نهجاً فكرياً «عقلانياً» يناقض تعليم فقهاء الدين. أما هؤلاء الأخيرون فكانوا يرون أعمال المفكّرين تهديداً لامتيازاتهم وتعدّياً على مجالهم الخاص، أي تفسير النصوص المنزَلة. في الوقت نفسه كانت الدعوة الشيعية تنتشر بدعم من الدولة الفاطمية. فراح أهلُ السنّة، وهم الأكثرية، يؤكّدون على ضرورة التشدّد في فرض عقيدة المذهب السنّي. وهكذا اتخذت هذه الحركة في الشرق طابعِ الأصولية. وكان فقهاء الشريعة يحرّضون الناس على أصحاب البدع الذين اتُّهِموا بتشكيل خطرٍ على الإسلام «الحقيقي»؛ وراحوا من هذا المنظور يصوغون طروحات شديدة التزمت. كما كانت السلطات تشجّع هذا التشدّد لأنه يعود بالفائدة عليها ويساعدها على خنق أي احتجاج أو تمرّد ضدّها.

مثقف «ملتزم»

في هذا السياق يندرج أبو حامد الغزالي، وهو شخصية غريبة الأطوار، تجمع الذكاء الحادّ والعلم الغزير إلى الإيمان الراسخ الذي يكاد يكون تزمّتاً. وقد أشرنا إشارة سريعة إلى الغزالي في الفصلين السابقين، أما الآن فسنتوقف ملياً عند هذه الشخصية. هو من أصل فارسي، ولد في غزالة (ومن هنا كنيته) وهي ضاحية من ضواحي طوس في خراسان، شرق إيران. تيتّم وهو طفل صغير، فتعهّد تربيته مع أخيه أحمد رجلٌ كان صديقاً لوالده، وكان متصوّفاً. وخلافاً لأخيه أحمد الذي انصرف إلى التصوّف منذ نعومة أظفاره، أبدى الغزالي ميلاً شديداً إلى علم الكلام وإلى المسائل الدقيقة في الفقهيات، وهذا من دون أن يفقد الاهتمام بتعاليم معلمه الصوفي. ذلك أنه كان، منذ الطفولة، تتنازعه الرغبتان: أن يكون فقيهاً وأن يكون صوفياً في آن. كان مسكوناً منذ البداية بهذه الثنائية؛ وليست لدينا معلومات دقيقة عن حياته الخاصة، تتيح رسم صورة سيكولوجية له. غير أن الأزمة التي دفعته، وهو في السادسة والثلاثين من عمره، إلى التخلّي عن أسرته ومهنته، ليلبس خرقة الصوفية، تثبت أنه كان مضطرباً على المستوى النفسي وأن شخصيته غير مستقرة، بله مزدوجة، ولاسيّما أنه تخلى في أواخر حياته عن الصوفية وعاد إلى التعليم.

في مرحلة الصبا، ترك الغزالي معلمه الصوفي ورحل إلى نيسابور (في خراسان) ليقف على تعاليم الأشعرية التي تقدّم الكلام عنها، والتي ترفض أولوية العقل، كما ترفض القول بالقوانين الطبيعية. وفي سن السادسة والعشرين (١٠٨٥) التقى الغزالي نظام الملك، الوزير الشهير في بلاط السلاجقة. وكان نظام الملك، وهو صاحب الكتاب الشهير المعروف باسم «كتاب السياسة» (السابق على كتاب «الأمير» لميكيافيلي)، قد فرغ من تأسيس جامعة «النظامية» في بغداد، بغية ترسيخ الأصولية الدينية؛ فأسند إلى الغزالي مهمات التعليم في الجامعة، ثم ولاّه عمادتها. وضع الغزالي على مدى السنوات التي قضاها في

التعليم عدداً من المؤلفات، ومنها «تهافت الفلاسفة» الذي هاجم فيه بشراسة مفكري عصره ومفكري العصور السابقة جميعا، ممّن هجروا تعاليم الأشعرية الأصولية. ويقول الغزالي في هذا الكتاب، إن قوانين الطبيعة وظواهرها ناجمة عن نظام تحدّده مشيئة الله القادر في كل لحظة على تغييره كما يشاء، أما الأدلّة التي يأتي بها الفلاسفة، فإنها لا تدل على شيء، سوى أنها تزرع الشكّ في نفوس المؤمنين، ولذا يجب رفضها رفضاً باتاً.

إلا أن الأزمة التي عصفت به، وهو في سن السادسة والثلاثين، أسلمته إلى الشك في كل شيء! فغادر الجامعة، وهجر عائلته، وتنقّل بين حلقات الصوفية. في السنوات الأخيرة من حياته، عاد إلى الجامعة ليستأنف تعليم الفكر الديني المحافظ. مع الغزالي، غدا الحذر من العقل عقيدةً شبه راسخة.

يُجمِع عدد كبير من المختصّين، مسلمين وأجانب، على أن هذا الفارسي هو من كبار أئمة السنّة في الإسلام. ويعتبره الإيرانيون، على الرغم من كونهم شيعة، معلّماً جليل القدر في الأدب الفارسي، لأنه كتب عدداً كبيراً من مؤلفاته بالفارسية، لغته الأم، وأسهم إسهاماً فاعلاً في تطوير أسلوب الكتابة بالفارسية. بيد أن هذا «المثقف الملتزم» أوصى بإتلاف الكتب الفلسفية، وأشرف بنفسه على إحراق كتب ابن سينا، أحد نوابغ الفكر العالمي. ولكي ندرك مدى التأثير السلبي الذي أحدثه الغزالي على مستقبل الحضارة الإسلامية، يكفي أن نتصفّح الكتاب الذي يضم رسائله إلى تلامذته الذين يسألونه النصح والإرشادَ والكتبَ التي يوصيهم بقراءتها[١]. فهو ينصح أحدهم مثلاً بقراءة أصول العقيدة لا غير، وأن يتعلّم ما يتعلّق بأداء الواجبات الدينية فحسب. وينصح آخر بأن يكرّس نفسه لقراءة ما يهيّئ المرءَ للحياة الآخرة، وبأن يهمل كلّ علوم الفيزياء والكيمياء والشعر. كما ينصح شخصاً آخر بألا يضيع وقته في قراءة العلوم الطبيعية.

من الواضح إذن أنه لا يمكن أن نتوقّع ازدهاراً علمياً في العالم الإسلامي مع معلّم كبير كالغزالي، مهووس بالآخرة وبما بعد الموت. فقد كان يؤكد، شأنه

١- مكاتبي فارسي غزالي، المنشورات الفارسية، طهران، ١٩٥٣.

في ذلك شأن كثير من أمثاله، أنّ حسْب المسلم «الصالح» أن يحفظ القرآن غيباً وأن يطبّق الشريعة تطبيقاً حرفياً، لأنها القانون الإلهي الذي لا يتبدّل ولا يتغيّر. وكان يعتقد، مثلهم، أيضاً، أنه لم تعد هناك ضرورة لـ«الاجتهادّ الشخصي» الذي كان النبي قد أوصى به (وكان المقصود في نظر علماء الدين وفقهاء الشريعة في ذلك الوقت الإجابة عن الأسئلة التي لم يجِب عنها القرآن والحديث). كان الغزالي يعتقد، كسائر الأصوليين الصراطيين، أن كل الأسئلة وجدت أجوبتها وأنه ينبغي من الآن فصاعداً «الإتّباع والخضوع»، أي السمْع والطاعة. وقد كتب مؤرخ معاصر: «أدّى الجهر بالآراء الشخصية في العصر الإسلامي الأول إلى ازدهار حافل بالعمل والاكتشاف، وعندما أغلِق باب الاجتهاد، أعقب ذلك زمن طويل اقتصر فيه العِلْم الإسلامي بقضّه وقضيضه تقريباً على التكرار والاجترار»(١).

المتصوفة ضد العلم

حتى المتصوفة ما لبثوا أن ضمّوا صوتهم إلى جوقة الأصوليين الصراطيين؛ فالشاعر الفارسي الكبير «نظامي» (١١٤٠-١٢٠٣) صاحب القصائد الشعرية الروحانية الشهيرة، وصاحب ديوان «غرام ليلى والمجنون»، لم يتوانَ عن أن ينظم شعراً طرائفَ تتهكّم على العلماء والمفكرين؛ فإحدى هذه الطرائف، مثلاً، تروي قصة رحلة قام بها شاب ورجل مسنّ مختصّ بـ«فلسفة الطبيعة». أثناء الرحلة يسأل الفيلسوف رفيقه الشاب: لماذا بعض الغيوم أبيض اللون وبعضها أسود؟ فأجاب الشاب بأن الله أرادها كذلك. فهزئ الفيلسوف من الجواب وصوّبه بقوله: «إن الغيوم السود مؤلفة من الدخان والغيوم البيض من الرطوبة». أما الريح العاتية فقد عزا الشاب هبوبَها إلى مشيئة الله، في حين أن العالِم العجوز

١- برنارد لويس: **كيف اكتشف الإسلام أوروبا؟** (مرجع مذكور).

فسّره تفسيراً «علمياً». ولكي يعاقب الله العالم على سفاهته، يجعله يقع ذات مرّة في بركة ماء ويغرق. أما النهاية الهوليودية السعيدة لهذه الحكاية، فهي أن الشاب يفوز بزوجة العالِم، بعد هيام بها طال أمده، فيتزوجها في النهاية، بعد أن ترمّلت[1].

لم يكن نظامي وحده بطبيعة الحال من يهاجم العلم ويصبّ الماء في طاحون الصراطية. أسوق هنا مثالاً آخر: مثال السهروردي الذي كان يعرّف الفلسفة بأنها «مؤامرة لتدمير الإسلام». بل لقد روى في أحد كتبه أسطورة تقول بأن الله أمر جبريل بجمع طين لكي يخلق منه آدم، فداس إبليس على بعض هذا الطين؛ وما الفلاسفة والمبتدِعون والغواة (أي المفكرون) إلا من هذا الطين الذي دنّسه الشيطان![2] ويتباهى السهروردي في مقطع آخر من الكتاب بأنه «غسل حبر» عشر مخطوطات لابن سينا بناء على أمر من الخليفة الناصر (١١٨٠-١٢٢٥). لكن سخرية القدر المأساوية شاءت أن هذا الصوفي قُتِل بأمر من صلاح الدين بتهمة البدعة. ولا يعني ذلك أن المتصوفة جميعاً كانوا يقفون ضد المفكرين ورجال العلم. فبعضهم وقف ضد «دين الشريعة» ووضع مؤلفات فلسفية جليلة القدر والأهمية. ولكن في الجملة، لعب التصوّف في القرن الثاني عشر دوراً كبيراً في تدهور الحضارة الإسلامية.

لو لم تكن الحركة الفكرية ضاربة الجذور في الواقع الاجتماعي لذلك العصر، لما أمكن لها بمفردها أن تؤدي إلى «الانتحار الثقافي» للعالم الإسلامي. وفي رأيي أن مثال الغزالي يوضح الآلية التي أدّت إلى جمود المجتمعات

١- نظامي: **هفت بيكر** (بالفارسية).

٢- عنوان الكتاب Ras an-nassayah، ذكره هلموت ريتر، في مداخلته: هل للصراطية دور في الانحطاط؟ (بالفرنسية): Helmut Ritter, L'orthodoxie a-t-elle une part dans la décadence?، في الكتاب الجماعي **النهوض والانحطاط الثقافي** (مرجع مذكور).

الإسلامية وتعطيل سيرها. وهي آليةٌ قامت على تحالف بين «المثقفين» (وبخاصة الفقهاء) وبين السلطة. فقد اكتشف الحكام أن الصراطية تشكل سلاحاً فعالاً ضدّ حركات الاحتجاج والتمرّد، تماما كما كانت هذه الحركات ترى في هذه الصراطية وسيلة للوصول إلى السلطة.

صحيح أن العلماء كانوا يعملون، في الغالب، تحت رعاية الحكام، لكنهم لم يكونوا أدوات يستخدمها هؤلاء الحكام لحماية سلطانهم. فابن سينا مثلاً (٩٨٠-١٠٦٣) رفض قبول ضيافة السلطان محمود الغزنوي، كي لا يضطرّه الأمر إلى التواطؤ مع الدعوات الأصولية. ومن المفيد أن نتوقف هنا قليلاً لنتفحّص سيرة هذا العالم الكبير، فهو نموذج وصورة ناطقة عمّا كان عليه العلم في ذلك الزمن. ويمكن على ضوء ذلك أن نتبيّن مبلغ الخسائر التي لحقت بالعالم الإسلامي جرّاء الدعوات الأصولية التي أدّت إلى جمود الأنشطة الفكرية والإبداعية وتعطيلها.

عملاق من عمالقة الفكر

ولد ابن سينا في العام ٩٨٠ بالقرب من بخارى، من أسرة كان أفرادها يشغلون مناصب عالية في الدولة. فتلقى تعليماً رفيع المستوى منذ سن مبكرة، وتحصّل على دراسة موسوعية، وتعلّم قواعد اللغة والهندسة والفيزياء والطب والفقه وعلم الكلام. ونستطيع أن نستنتج من سيرته الشخصية أنه كان، وهو في العاشرة من العمر، طفلا معجزة. وقد تفوّق على معلّميه في ميادين العلم والمعرفة معاً وصار يتعلّم بمفرده. جاء في سيرته التي أملاها بنفسه: «... وكنتُ أرجع بالليل إلى داري وأضعِ السراج بين يديّ، وأشتغل بالقراءة والكتابة. فمهما غلبني النوم أو شعرتُ بضعف، عدلتُ إلى شرب قدحٍ من الشراب ريثما تعود إليّ قوتي، ثم أرجع إلى القراءة. ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها، حتى أن كثيراً من المسائل اتضح لي وجوهها في

المنام. وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني. وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن لم أزدد فيه إلى اليوم، حتى أحكمتُ على المنطق والطبيعي والرياضي. ثم عدلتُ إلى الإلهي، وقرأتُ ما بعد الطبيعة...»(•).

كان ابن سينا في السابعة عشرة مدهشاً بعلومه الموسوعية، مثيراً للعجب؛ فقد أفلح في شفاء سلطان بخارى الساماني بعد أن عجز الأطباء عن شفائه، فكافأه السلطان وفتح له أبوابَ مكتبته الخاصة، يدخلها ساعة يشاء ويقيم فيها ليل نهار. وكانت مكتبةً لا مثيل لها، مؤلّفةً من غرف تحتوي على صناديق مليئة بالكتب، وقد تكدّس بعضها فوق بعض، على ما يصفها ابن سينا نفسه. ولكن ما لبثت هذه المكتبة أن احترقت، وتقول شائعات مغرضة إن ابن سينا نفسه أحرقها «عامداً متعمّداً» لمنع الآخرين من اكتساب المعارف التي اطّلع عليها (نشير في هذا السياق إلى أن أبقراط اتُّهم في زمنه بإحراق المكتبة التي كان يرتادها).

في سن الثامنة عشرة، باشر ابن سينا كتابة موسوعة تضمّ كل العلوم الإنسانية (وقد اشتملت على عشرين مجلداً وأنهى كتابتها في ثلاث سنوات). ذات يوم ترك بخارى على الرغم من المنصب الرفيع الذي قلّده إياه السلطان. كانت «الضرورة تدفعه» إلى ذلك، كما يقول تلميذٌ له كتَبَ سيرةَ حياته. ويبدو أنه ترك العاصمة هرباً من مؤامرات الحسّاد وبدافع من حبّه للمغامرة في آن معاً؛ فقد قضى حياته بعد ذلك متنقّلاً من مكان إلى مكان؛ فكان تارةً ينزل في ضيافة أمير يكْرِم وفادته، وتارةً أخرى يختبئ في حيّ شعبي ويعتاش من الخدمات الصحية التي كان يقدّمها للناس مجاناً تقريباً.

بعد بخارى، التجأ إلى جرجان (جنوب شرق بحر قزوين) حيث سمح له حاكم المنطقة بأن يعطي دروساً عمومية. هناك كتب مؤلفه الشهير «القانون»

•- راجع: **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، ابن أبي أصيبعة، تحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص٤٣٨ (المترجم).

الذي ظلّ في الشرق، حتى عهد قريب، وفي الغرب، طوال قرون، يُعتمَد أساساً في تعليم الطب. إلا أن السلطان الغزنوي كان يطلب رأسه، فقضى بقية عمره هارباً، يتنقل من مكان إلى مكان متخفياً وراء أسماء مستعارة.

مارس ابن سينا أعمالاً ومهناً متعدّدة في حلّه وترحاله... فشغل منصب كبير الوزراء في بلاط أمير همذان (جنوب غرب إيران). في غضون ذلك لم تنقطع مراسلاته مع أمير أصفهان، فجرّ عليه ذلك التهوّر غضبَ أمير همذان الذي أودعه السجن. وفيه كتَبَ مؤلفه «حكايات صوفية»، ثم ما لبث أن فرّ من السجن، فنهب الجنود متاعه وضاع، جرّاء ذلك، عدد من المخطوطات التي كانت في حوزته، ومنها «الموسوعة» (التي لم يُعثر فيما بعد إلا على شذرات منها).

عندما وصل ابن سينا إلى أصفهان، استقبله أميرها بالحفاوة والترحاب وجعله إلى جانبه. وهناك كان لا يدّخر جهداً إلا وبذله في العمل. فكان يعطي دروساً في الفلسفة ويمارس الطبابة ويتبادل الرسائل مع علماء المناطق الأخرى. وفي العام ١٠٣٠ استولى الغزنويون على أصفهان. بعد سبع سنوات رافق ابن سينا السلطان في حملة ضد همذان، وفي هذه الحملة أُصيبَ بمرض مات على أثره، وله من العمر ٥٧ سنة.

تبدو حياة ابن سينا صورة مصغّرة لوضع العالم الإسلامي المضطرب في ذلك النصف الأول من القرن الحادي عشر. إن أكثر ما يثير الدهشة في شخصية ابن سينا هو نفَسَه الطويل الدؤوب الذي أتاح له وضع أكثر من ٤٢ مؤلفاً، على الرغم من الأحداث التي عصفت بحياته، والمهمات العامة التي كان يضطلع بها. وكانت الفلسفة والميتافيزيقا والتصوّف تحاذي، في مؤلفاته، الرياضيات والطب وعلوم الطبيعة.

لماذا تملَّكَتْ الغزالي سورةُ غضب عارمة ضدّ مؤلفات ابن سينا، حتى أضرم فيها النار بيده أمام الناس؟ لن أعودَ هنا إلى تلخيص أفكار عملاق الفكر ذاك. سأكتفي فقط بالإشارة إلى ما يمكن أن يُسمى عند ابن سينا «رفض جواز

الممكن». فما دام «الممكن» موجودا بالقوة، فذلك يعني أنه لا يمكن أن يوجد بالفعل؛ وإذا حدث أن وُجد «ممكنٌ»، فذلك لأن وجوده كان ضرورياً، ولذا لا يمكنه أن «لا يوجد». لا بد إذن من إعادة نظر جذرية في نظرية خلق الكون كما تقول بها الصراطية. فخلق الكون لم يكن «نزوة» من قِبَل الله في الأزل الأول، بل كان ضرورة إلهية لا بدّ أن تتحقق، لأنها تشكّل جزءاً من العقل الإلهي. وعليه، ما كان يمكن لـ«الخلق» أن «لا يكون» أو أن يتم تغييره بتدخل خارجي. وكان هذا التصوّر يصادم مصادمةً مباشرة تعاليم الصراطية الأشعرية التي ترى أن الله قادر ساعة يشاء أن يغيّر ظاهرات الطبيعة وفقاً لما يرتئيه (وثمة، بطبيعة الحال، نقاط كثيرة أخرى يتعارض فيها فكرُ ابن سينا مع فكر الأصوليين التقليدي).

لماذا أمكن لمؤلفات ابن سينا العلمية أن تعيش زمناً طويلاً؟ يكفي مثلٌ واحد للإجابة عن ذلك: فقد ذكر هذا الطبيب الفيلسوف في كتابه «القانون»، في معرض دراسته المياه الصالحة للشرب، أن أفضل المياه هي ماء الينابيع المنبجسة من أمكنة غير ملوثة، وأن مياه المجاري لا تصلح كلها للشرب، وأفضلها المياه المكشوفة للشمس. وفي ذلك قال: «المياه مختلفة لا في جوهر المائيّة ولكن بحسب ما يخالطها وبحسب الكيفيات التي تغلب عليها فأفضل المياه مياه العيون ولا كل العيون ولكن ماء العيون الحرّة الأرض التي لا يغلب على تربتها شيء من الأحوال والكيفيات الغريبة أو تكون حجرية فتكون أولى بأن لا تعفن العفونة الأرضية ولكن التي من طينة حرة خير من الحجرية ولا كل عين حرة بل التي هي مع ذلك جارية ولا كل جارية بل الجارية المكشوفة للشمس والرياح فإن هذا مما تكتسب به الجارية فضيلة وأما الراكدة فربما اكتسبت رداءةً بالكشف لا تكتسبها بالغور والستر».

كان ابن سينا إذن يعرف حق المعرفة الطرائق الحديثة لتنقية المياه: التقطير والغلي والتكرير وذلك قبل عشرة قرون!

هذه النظرة السريعة إلى حياة ابن سينا وفكره تُظهِر لنا، على نحو غير مباشر، تقلّبات الزمن الذي عاش فيه، كما تُلقي ضوءاً على المنازعات والحروب الدائمة التي كان الأمراء يخوضونها للاستيلاء على السلطة أو للتشبث بها، أو لتوسيع نطاق نفوذهم. كما توضح لنا أيضاً كيف أن الأصولية الدينية العاملة في خدمة الدولة تتحوّل إلى هيئة رقابة تخنق كل تفكير علمي.

مشكلة السلطة

لعبت الصراعات السياسية التي كانت تدور بين المسلمين في القرن الحادي عشر والثاني عشر دورا رئيسيا في تراجع الحضارة الإسلامية. فقد كانت كل فرقةٍ تتحزّب لتصورها الخاص للأصولية وتفرضه، عندما تمسك بالسلطة، على الآخرين فرضاً. ولكي نتمكّن من فهْم الصراعات السياسية في ذلك العصر فهما صحيحاً، علينا أن نتذكّر أن عدد «المجاهدين»، الذين كانوا يفتحون أقطاراً واسعة يضمونها إلى العالم الإسلامي، لم يكن يتجاوز ٤٠ أو ٥٠ ألفاً. لذا، فإن العرب الأقحاح كانوا أقليات صغيرة الحجم في هذه الأقطار. فكان من الطبيعي، إذاً، أن يطمح سكان البلدان المفتوحة ـــ الذين لم يكونوا فيها أكثريةً فحسب، بل كانوا يضطلعون أيضاً بمعظم وظائف الإدارة (ثم الجيش فيما بعد) ـــ إلى ارتقاء سلَّم المناصب الرسمية العالية. والحال أن المأثور الديني كان يقضي بأن يُمسك العرب الأقحاح بالمناصب المهمة والحساسة (الخليفة، الوالي، قائد الجيش، الخ...). فلم يبقَ أمام غير العرب، لتخطّي هذه العقبة، سوى اتّهام العرب بالتهاون الديني. وكانت تعبئة الجماهير في هذا الاتجاه بالغة السهولة، لاسيما أن معظم الحكام والمسؤولين، المتنعّمين بحياة البذخ والترف، ما كانوا يبالون بإخفاء مظاهر حياتهم الباذخة هذه عن العامة. يقدّم «**ألف ليلة وليلة**» صوراً كثيرة عما كان يجري في قصور الخلفاء والسلاطين، وما أشهر ولائم هارون الرشيد في بغداد. أما الفاطميون في القاهرة فكانوا يشيّدون، وسط

الحدائق الغنّاء، قصوراً على شكل مكعبات، شبيهة بكعبة مكة، ويمارسون فيها الفسق والفجور[١].

كان غير العرب، إخفاءً لمطامعهم في السلطة، يستخدمون الدين ستاراً خارجياً. بيد أن تحقيق هذه المطامع كان يقتضي سنداً مذهبياً صلباً معترفاً به. وكان «المتعطّشون للسلطة» يستندون إلى تفاسير القرآن المتشددة ويجعلونها راية وسلاحاً! هكذا رفع سلاطين السلاجقة راية «الجهاد»، وطردوا المسيحيين من آخر المواقع التي كانت لهم في الأناضول، وشنّوا على الشيعة حرباً لا هوادة فيها. وتمكّن وزيرهم الأكبر الفارسي، نظام الملك، من إكساب حكمهم شرعية إسلامية، ومن تعزيز هيمنتهم على خلفاء بغداد. وفي العام ١٠٥٥ استقبل الخليفة العباسي السلطان السلجوقي استقبال الفاتحين. ويقول المؤرخون إن الخليفة كان يرتدي بردة النبي ويحمل عصاه بيده حين دعا الفاتح التركي للجلوس إلى يمينه. وتبادل الرجلان الأحاديث بحضور مترجمين بين أيديهما. وفي ختام مهرجان اللقاء خلع الخليفة على السلطان التركي لقب «سيد البلاد وملك الشرق والغرب»[٢].

كان لا بدّ أن يؤدّي تواطؤ الكثيرين من أهل القلم مع السلطات في ملاحقة المبدعين والمجدّدين وفي تصفية المفكرين «الليبراليين»، إلى «توبة» بعض هؤلاء

١- فيليب حتّي (مرجع مذكور).

٢- البنداري: **تواريخ آل سلجوق**، مطبعة ليدن Lyden، ١٨٩٩. لعب الإيرانيون دوراً بالغ الأهميّة في الفكر الإسلامي، وكذلك في السياسة الإسلامية، وبخاصة في الشرق، في العصر العباسي. بيد أن هذا الدور كان يكتنفه شيء من الغموض؛ فالوزير الفارسي الشهير في عهد السلاجقة، نظام الملك، بذل قصارى جهوده لإضفاء الشرعية على خلافة هؤلاء السلاطين ذوي الأصل التركي، ولتثبيت سلطانهم على الخليفة في بغداد. ألا يدعو ذلك إلى الاعتقاد بأن نظام الملك، هذا الارستقراطي الفارسي، قام بعمل انتقامي من العرب؟ إذا كان لي أن آخذ بنظرية التآمر، لقلت على الفور: كان ثمة مؤامرة على الخليفة العربي!!

الأخيرين وتراجعهم العلني عن أفكارهم ومواقفهم. وعلى الرغم من أن أحدا من المؤرخين لا يشير إلى ذلك، فإن لديّ قناعة ثابتة بأن ثمة مقداراً من الشعور اللاواعي بالذنب تسبّب إلى حدّ كبير بالأزمة الروحانية التي عصفت بالغزالي، وهو في قمة مجده، عندما هجر أسرته وعمله وانقطع إلى الزهد والتصوّف. إذ لا يمكن أن يلعب مثقف من ذلك العصر دوراً مماثلاً لذلك الذي سيلعبه في عصرنا أشباه مكارثي في أميركا وجدانوف في روسيا من دون أن تنعكس عليه عواقبه. فكثير من الأميركيين والروس الذي أسهموا في «عمليات التطهير» في الخمسينات عبّروا عن شعورهم بالذنب شفاهة أو كتابة. وإني على يقين من أن مفكري القرنين الحادي عشر والثاني عشر، أنهكت مشاعر الذنب ضمائرهم لإسهامهم في إحراق المؤلفات العظيمة لمفكري الحضارة الإسلامية.

التاريخ يعيد نفسه

بعد بضع مئات من السنين التي مرّت على أحداث المشرق الإسلامي، وقعت الأحداث نفسها في المغرب عندما استولت قبيلة من البربر على السلطة، وفرضت تطبيق الشريعة الإسلامية بحذافيرها، وفقاً لمذهب ابن تومرت الأصولي. فلأول مرة يعلن فقيه ديني نفسه أنه «المهدي» المنتظر (المبعوث من الله في كتب الحديث ليقيم العدل على الأرض ويعيد الإسلام «الحقيقي»).

أسس ابن تومرت، وهو من أصل بربري، دولة الموحدين (أي أنصار التوحيد). كان أبوه خادم مسجد، وكان دميم الهيئة قصير القامة، على ما يروي المؤرخون. وكان يعيش حياة زهد وتنسّك، ويحرّم على أتباعه الاستماع إلى الموسيقى (بعد ثمانية قرون جاء علي بن الحاج ليردد الشيء نفسه: «أنا لا أسمع الموسيقى لأن الشريعة تحرمها»[1].

١- علي بلحاج، راجع مجلة Politique internationale, automne 1990.

حرّم ابن تومرت شرب الخمرة، كما حرّم كل ما يخالف الشريعة الإسلامية، وهاجم النساء اللواتي يخرجن بلا حجاب، سافرات، ودفع ذات مرة أخت أمير من المرابطين عن ظهر دابتها (أنصار الخميني اليوم يهاجمون النساء اللواتي لا يتحجبن بما فيه الكفاية إذا خرجن إلى الشارع في إيران. لا جديد تحت الشمس!). منذ عصر ابن تومرت والفقهاء (وطلاب الفقه) الطامحون إلى السلطة ينبتون في كل مكان ويفرّخون كالفطر. لا يزال الشعار هو نفسه في القرن العشرين كما كان في القرن الثاني عشر: *إقامة الدين الحنيف وتطبيق الشريعة*. ولو كان في ذلك العصر صحف تصدر في بغداد ومراكش وقرطبة، لصدرت حاملة العنوان التالي: «الإسلام في خطر»! وتحثّ المسلمين في افتتاحيتها على رصّ الصفوف لحماية الدين المهدّد.

ولا بد من القول أن الحجج كانت متوافرة بكثرة في القرن الثاني عشر. فبغداد كانت تتعرّض باستمرار لهجمات فرق الشيعة المختلفة، وفي القاهرة كان الفاطميون يشكلون تهديداً مستمراً للسنة، وفي إيران كانت هناك فرقة إسماعيلية تنشر الرعب، هي فرقة «الحشاشين». وقد لقبوا بهذا الاسم لأنهم كانوا مدمنين على تناول الحشيشة، وكان زعيمها حسن الصباح قد اتّخذ مقراً له قلعة أَلَمُوت، شمال إيران، ومنها كان يشنّ هجمات انتحارية على موظفي الدولة السنّة؛ وكان من ضحايا هذه الهجمات الوزير الفارسي «نظام الملك» بالذات.

ولد حسن الصبّاح في أسرة شيعية في مدينة قمّ. انضم في صباه إلى الفرقة الإسماعيلية في القاهرة. لكنه لم يكن على علاقة جيدة بالخليفة الفاطمي، ففرّ من مصر بحراً إلى المغرب، ونجا بأعجوبة من الهلاك بعد غرق زورقه، وانتهت به سلسلة من المغامرات إلى سوريا، ثم عاد إلى أصفهان وأقام فيها عام ١٠٨١ حيث أخذ يبشّر بالدعوة الإسماعيلية في مناطق إيرانية عدة. في العام ١٠٩٠ تمكّن مع فريق من أنصاره من الاستيلاء على قلعة أَلَموت، الواقعة قرب بحر قزوين حيث أنشأ سلطة مستقلة. وتقول إحدى الروايات إن حسن الصباح عقد

في صباه اتفاقاً، بقي سرياً، مع الشاعر وعالم الرياضيات عمر الخيام ومع نظام الملك نفسه (ولم يقتله فيما بعد إلا انتقاماً منه على نقض الاتفاق). أما حقيقة «الاتفاق» فلا يُجمع عليها المؤرخون، ويبدو أن الاتفاق نفسه من نسج الخيال: فالشاعر عمر الخيّام ورجل الدولة نظام الملك والمتمرّد الثائر حسن الصبّاح ذهب كل منهم في طريق، بعد أن جمعتهم فترة قصيرة من الزمن في مطلع شبابهم. أما الطرق التي سلكوها فمتباينة ومتباعدة، على الرغم من أنها تختصر مسالك الحياة كلها[١].

كان الإسماعيليون في سوريا وإيران يقضّون مضاجع الحكّام السنّة. وكانت للصليبيين إمارات في القدس وفي مدن سورية عدّة. وعلى الصعيد الفكري، كان الفلاسفة يميلون إلى تغليب العقل على النقل. وكان هناك من ينتقد تطبيق الشريعة (ذهب أحد خلفاء حسن الصباح إلى حد إلغاء الشريعة إلغاءً تاماً، وهاجم أنصار تطبيق الشريعة معتبراً أن الإسلام شأن روحاني ورسالة سماوية)[٢]. وفي الطرف الآخر من العالم الإسلامي كان الملوك المسيحيون في إسبانيا يشنون هجماتهم على الإمارات الإسلامية.

لهذه الأسباب كانت الأكثرية السنية تشعر بخطر داهم، وتبحث عن حلفاء يدرؤون عنها هذا الخطر، مما مهّد الطريق إلى الطامحين من السلاطين. وكان لشعار «الإسلام في خطر» صدقية راهنة، تفتح الطريق أمام الوافدين الجدد لحمايته. هكذا استقبل السنّة في بغداد – وفي مقدّمهم الخليفة العباسي –

١- راجع كتاب كريستيان جامبيه، **انتفاضة ألَموت الكبرى**، وبخاصة مقدمة الكتاب (بالفرنسية):

Christian Jambet, La Grande Résurrection d'Alamût, Verdier,Paris, 1990.

راجع أيضاً: مارشال هودغسون، **حركة الحشاشين** (بالإنجليزية):

Marshal Hodgson, The Order of the Assassins, La Haye, 1955.

٢- كريستيان جامبيه (مرجع مذكور).

السلاجقةَ بالأحضان (لاسيما أن أسلافهم أبدوا بعض التسامح تجاه الشيعة). وكذلك استنجد أمراء الأندلس بالموحدين البربر، درءاً لخطر الملوك المسيحيين.

بديهي أن الصراع على السلطة في أماكن متعددة من العالم الإسلامي كان يستقطب الكثير من المصالح الخاصة الفردية والجماعية. فبالإضافة إلى القبائل والعشائر، كانت طبقة ذوي الامتيازات التي ظهرت في مختلف أقطار العالم الإسلامي عاقدة العزم بطبيعة الحال على الحفاظ على امتيازاتها المكتسبة. فكان الأرستقراطيون، والضباط، ورجال الدين، وذوو المناصب العليا، والبيروقراطيون يوظّفون الصراطية للإبقاء على الأوضاع القائمة حفاظاً على امتيازاتهم. كما كان الحكّام وأصحاب السلطة يرون في الصراطية وسيلة لتثبيت حكمهم. كما كان الحكّام وأصحاب السلطة يرون في ذلك وسيلة لتثبيت حكمهم. كان المستفيدون من هذا الوضع متآزرين، يسدّون الطريق في وجه الفئات الوضيعة وأمام فئات الطارئين الجدد جميعاً. كانوا يخشون «تناقص الربح» الناجم عن تزايد عدد المستفيدين. وعلى الرغم من تحالف ذوي الامتيازات وأصحاب السلطة، بقيت عوامل الاستياء والاضطراب كامنة، ولذا كان الحكام ورجال الدين يمارسون الرقابة والقمع بأقسى أساليب القوة والوحشية.

كان تزايد الفرق المذهبية يخيف رجال الدين والحكماء، لاسيما عندما تسلك هذه الفرق سبيل التمرّد المسلّح، وتحذو حذو إسماعيليي ألموت. كانت الأصولية النشطة، التي ضمت علماء الدين المحافظين والأسر الحاكمة الجديدة غير العربية، وسيلة دفاع فعالة. فقد انصهرت في بوتقة الأصولية مصالح الملاّكين وفقهاء الشرع والحكام والقادة العسكريين.

كان شعار تلك المرحلة وأدَ كل فكر ديني أو علمي من شأنه أن يغذي نزعة التسامح والتعدّد ويدعو إلى إعادة النظر في بنيات المجتمع والسلطة. وقد تعاظم اندماج الدين والسياسة على نحو لم يسبق له مثيل، وذلك بغية الحفاظ على الوضع القائم من دون أي تبديل أو تعديل. فأنتج هذا الوضع نزعة

المحافظة والجمود وأدامها في آن معاً. في هذا الصدد، يشدّد مكسيم رودنسون، وهو محقّ في ذلك، على «الدور الأساسي الذي لعبته مشكلة السلطة واحتكارها وتقاسمها»[١]، وهو دور ظهر بوضوح تام خلال أحداث القرن الثاني عشر.

عالم جامد

لم تتّخذ الموجة الأصولية التي اجتاحت العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر شكلاً واحداً. ففي المغرب مثلاً رفض المرابطون، ومن بعدهم الموحدون، الغزالي، برغم الفتوى التي أصدرها في أواخر القرن الثاني عشر وأباح لهم بموجبها احتلال الأندلس وخلْع ملوكها وأمرائها. وفي موازاة ذلك لم تلْقَ أفكارُ ابن تومرت أي تجاوب من قِبَل المسلمين في مصر وسوريا، حيث بقيت أفكار الغزالي هي السائدة. فيما عدا ذلك، كان فقهاء الشريعة في كل مكان، من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي، متفقين حول المسألة التالية: إن الدفاع عن الإسلام لحمايته من المخاطر التي تهدّده يستلزم الجمود التام! هكذا جمد الإسلام في القرن الثاني عشر ولم ينبض فيما بعد، نبضة واحدة، إلا نادراً. من هنا اعتقاد بعض المراقبين بأن المسلمين معادون بطبيعتهم للتقدّم[٢].

لم يقتصر التثبيت النهائي للتأويلات والأفكار والقواعد على المجال الديني فقط، بل امتدّ ليشمل أيضاً القانون والعدالة. فقد أفتى الفقهاء بثبات الشرع الإسلامي الذي لا يحول ولا يزول. فالعقيدة التي كانت سائدة في ذلك الزمن لا تعترف بأي حق للبشر في التشريع: فالله هو المصدر الوحيد للتشريع،

١- مكسيم رودنسون، **سحر الإسلام** (بالفرنسية): Maxime Rodinson, La Fascination de l'islam, nouvelle édition, Seuil, Paris, 1989

٢- شارل بيلا، **مراحل الانحطاط الثقافي في بلدان الشرق العربية** (بالفرنسية): Charles Pellat, Les étapes de la décadence culturelle dans les pays arabes d'Orient، في الكتاب الجماعي **النهوض والانحطاط الثقافي**... (مرجع مذكور).

والشريعة تحلّ مشاكل الحياة من جميع جوانبها. ولا يمكن لأي إنسان في الحياة الدنيا أن ينسخ الشريعة أو أن يعدّلها. بإمكان البشر، وعند اللزوم فقط، أن يؤوّلوا الشريعة لتطبيق أحكامها في أوضاع مستجدّة معيَّنة لم يتوقعها الفقهاء. على أنه لا بد من موافقة هؤلاء الفقهاء على أي تأويل ليكون شرعياً ويصبح معمولاً به (لهذا السبب يحق للأزهر في القاهرة أن يطعن في شرعية أي قانون صادر عن مجلس النواب المصري ولا يكون متفقاً مع الشريعة الإسلامية. كما أن مجلس آيات الله في إيران يمتلك حق النظر في كل القوانين التي يتخذها البرلمان).

هذه النظرة الصراطية الجذرية إلى القانون هي اليوم في أساس البرامج السياسية لدى الأحزاب الأصولية السنّية والشيعية جميعاً. فقد أعلن الخميني في العام ١٩٦٥ أن «الإسلام يمتلك برنامجاً لكل مشكلات المجتمع: شكل الحكم والإدارة، تنظيم العلاقات بين الأفراد، تنظيم العلاقات بين الدولة والشعب، علاقات الدولة بالدول الأجنبية، المشكلات الاقتصادية والسياسية ...الخ، لقد كان المسجد في كل العصور مركز قيادة وتوجيه ومكاناً لدراسة المشكلات الاجتماعية وتحليلها»[١]. كما يؤكد عباسي مدني زعيم جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر: «سنطبق أحكام الشريعة التي لا بد منها لإرساء العدل على الأرض... فالشريعة هي أفضل ضمانة للمستثمر لأنها تقرّ بالملكية الخاصة وتحارب الظلم وتستأصل الفساد وتلغي البيروقراطية وتمقت التعامل بالأوراق التي تثبط همم المستثمرين»[٢].

هذان التصريحان كافيان للتثبّت من أن الأفكار التي سيطرت في القرن

١- عظة ١٤ تشرين الأول-نوفمبر ١٩٦٥ في مسجد الشيخ الأنصاري. ذكره ي.أ.هنري في: **أفكار آية الله الخميني السياسية** (بالفرنسية):

Y.A.Henry, Pensées politiques de l'Ayatollah Khomeyni, Paris, 1980.

٢- مجلة Politique internationale, automne 1990.

الثاني عشر لا تزال تسيطر اليوم في العالم الإسلامي، كما يقول أحد المختصين في شؤون الحركات الأصولية: «التشدد يحلّ محل الإيمان. المؤمن يدعو سواه لمشاطرته إيمانه. أما المتشدّد المغالي في إيمانه فإنه يندّد بمن لا يشاطره الإيمان. فإيمان الأول شعور وعاطفة، وإيمان الثاني نظام... وأن ينوب الثاني منابَ الأول فهذا يكاد أن يكون قانوناً طبيعياً وحتمياً»(١).

١- جان غرونييه، **بحث في الذهنية الصراطية** (بالفرنسية):

Jean Grenier, Essai sur l'esprit d'orthdoxie, Gallimard, Paris, 1967.

نقتطف من الكتاب المقطع التالي: «كل صراطيّة تقوم على أعراف، أولها ضرورة الوقوف مع رأي الأكثرية أو مع رأي الزعيم؛ فما أن تُعلِن هذه الأكثرية أو هذا الزعيم رأيه، فإنه يجب الوقوف مع هذا الرأي، ومعارضة كل من لا يقف معه، وطرده من الجماعة. على أية حال، ينجم عن ذلك، أن الصراطية تصبح أكثر فأكثر عرفاً متواضَعاً عليه وترتكز أكثر فأكثر على صيغ جاهزة.. هذا التبلور وهذا التصلّب، هما من مستلزمات الصراطية. فهي لا تثبت إلا إذا بقيت جامدة، لأن أي تشقق يصيبها قد يؤدّي إلى انهيار بنيانها كلّه: فلو أُفسِح في المجال أمام نقد لأي جانب منها، فماذا يحول دون نقد الجوانب الأخرى؟ وهكذا، فالصراطية متصلّبة بالضرورة إلى أقصى حدّ. وفي ظلّها يشعر المؤمن بالأمان التام: ففي عالَمٍ متحوّل متغيّر يتشبّث المؤمن بما لا يتحوّل ولا يتغيّر، ويشعر بالتوافق مع عدد كبير من الناس... ولكن عبثاً تتصلّب الصراطية وتتشدد، فليس بمِكْنتها أن تُلغي المنجزات العلمية: تتجاهلها أول الأمر، إذا كانت تخالفها، وتُحيطها بصمتٍ تام. وعندما يصبح التجاهل مستحيلاً، والصمتُ غير مجدٍ، ترفع الصراطية صوتها لتتهجّم على تلك المنجزات، وتسعى إلى إلغائها بكل ما لديها من وسائل. وفي آخر الأمر، وأمام المقاومة التي تُبديها تلك المنجزات التي لا رادّ لها، تنتهي الصراطية إلى تبنّيها، فتأخذ منها ما تأخذ، وتدمجه في نظامها. وفي النهاية تقول إن تلك المنجزات العلمية تتوافق تماماً مع النظرة السابقة إلى المعارف العلمية التي كان يُظَنُّ أنها تتناقض معها. وإذاك، تتحوّل الصراطية إلى انتقائية، لكنها تسعى جهدها كيلا تفقد شيئاً من سيطرتها وسلطانها، فتدّعي أنها لم تتزحزح عن مواقفها، في حين أنها تكون في واقع الأمر قد تحوّلَت».

إن ميزة الصراطية المتشدّدة، كما ظهرت في إيران لسنوات طويلة (وكما نراها في الجزائر)، هي تعبئة الناس. غير أنه يستحيل إبقاء الناس أبداً في خدمة العلم. فالناس يحتاجون دوماً إلى «فاصل موسيقي قصير»، بل يحتاجون أيضاً إلى عرض مسرحي. والتشدّد الأصولي يتخلّله بعض التراخي بين الفينة والفينة، كما هي الحال في إيران. غير أن الجمودية عندما تلابس الإيمان، كما يحدث اليوم في العالم الإسلامي، فإن العرض يُستأنف بعد «الفاصل الموسيقي القصير»؛ فالجهاديون يطرقون الطَرَقات الثلاث من جديد معلنين استئناف المسرحية، فتعاود الستارة انفتاحها. ومنذ انتصار النزعة المحافظة في القرن الثاني عشر لم ينقطع الأصوليون عن اعتلاء خشبة المسرح، ليلعبوا الدور نفسه، في المسرحية نفسها، بين فترة زمنية وأخرى، طالت هذه الفترة أم قصرت: ابن تيمية، ابن عبد الوهاب، المهدي السوداني، آية الله، الإخوان المسلمون، مجاهدو الإسلام، الخمينيون، حزب الله، جبهة الإنقاذ الإسلامية، ...الخ.

إذا كانت الممارسات الأصولية تتراخى أحيانا، فإن بعض نتائجها تدوم وتدوم. لقد سدّد سادة العالم الإسلامي، في القرن الثاني عشر، ضربة قاصمة إلى العلم، ولم تقم له قائمة بعد ذلك في دار الإسلام. من هذا المنظور، يمكن القول بأن القرن الثاني عشر كان بداية انهيار حقيقية في تاريخ الحضارة الإسلامية. وربما يعترض على ذلك معترض فيقول إن الانهيار بدأ قبل ذلك بزمن، وإن العلم والفلسفة تابعا تطورهما إلى ما بعد ذلك بزمن أيضاً؛ فلماذا الإصرار على اعتبار القرن الثاني عشر بداية انهيار الحضارة الإسلامية، وليس القرن الحادي عشر أو الثالث عشر؟ جوابي، ببساطة، هو أن القرن الثاني عشر شهد عمليات تخريب وتدمير منظمة لنتاج المفكرين المسلمين: إحراق الكتب، محو حبر المخطوطات، حظر الكتب وتحريم تداولها، تعقّب المؤلفين وملاحقتهم...

في جملة ما حدث مثلاً، في العام ١١٩٢، أن علماء الدين انتقموا من مكتبة

طبيب شهير في قرطبة بعدما اتهموه بالكفر والإلحاد. جرت «حفلة الانتقام» أمام حشد من الناس وبمشاركتهم وتحت إشراف فقيه علامة ألقى في الناس خطبة هاجم فيها الفلسفة والفلاسفة، ثم أخذ يلقي إليهم الكتاب بعد الآخر ليلقوا به إلى نار أوقدت لإحراق الكتب. كان يقول بضع كلمات في كل كتاب ثم يرميه في النار. يقول أحد شهود العيان: «رأيت في يد الفقيه العلامة كتاب ابن الهيثم النادر الذي يبحث في علم الفلك. وبعد أن أشار الفقيه بإصبعه إلى الدائرة التي يقصد بها المؤلف القبة السماوية، قال: "يا للمصيبة الكبرى، يا للكارثة العمياء، يا للداهية الدهماء". وبعد أن نطق بهذه الكلمات، مزّق الكتاب بيده وألقاه في النار»[1].

القرن الثاني عشر هو أيضاً عصر ابن رشد (١١٢٦-١١٩٨) أعظم مفكر «عقلاني» بين المفكرين المسلمين. يتحدّر ابن رشد من إحدى كبريات الأسر الأندلسية. وكان يشغل منصباً قضائياً، مثلما شغل والده وجدّه من قبله، هو منصب قاضي أشبيلية ومنصب قاضي القضاة في قرطبة. درس علوم الدين وبخاصة المذهب الأشعري والشريعة والفقه، كما درس الطب والرياضيات والفلسفة وعلوم الطبيعة. أفاد من الرعاية التي أحاطه بها الأميران الأول والثاني من أمراء الموحدين المستبدّين المستنيرين، فوضع في عهدهما القسم الأكبر من نتاجه الفكري، ولاسيما كتابة الشهير «تهافت التهافت» الذي ردّ فيه بعنف على كتاب الغزالي «تهافت الفلاسفة».

اعتلى العرشَ المغربي في العام ١١٩٥ خليفةٌ متمسّكٌ بأهداب الدين، رفع الحماية عن ابن رشد، فانهال عليه سخط الفقهاء ورموه بتهمة الكفر والإلحاد. ولن أسرد هنا «المحاكمة» التي خضع لها (وهي محاكمة شبيهة بمحاكمة غاليليه) بل سأكتفي بذكر حادثة تدلّ على العقلية التي كانت سائدة في ذلك

١- عبد السلام الركن، **رينان**، في الكتاب الجماعي **ابن رشد** (بالفرنسية):
Abdal Salam Al Rokn, Renan, in Averroès (ouvrage collectif).

الوقت. كان ثمة نبوءة منتشرة بين الناس تقول بأن إعصاراً سيضرب الأرض في زمن معيّن وسيمحق الجنس البشري عن بكرة أبيه. وكان الناس الذين يرهبون حدوث مثل هذا الإعصار يلجأون إلى الجبال للاحتماء بالمغاور والكهوف. فجمع أمير قرطبة العلماء والفقهاء لتدارس الأمر. أبدى ابن رشد شكّه في صحة هذه النبوءة واقترح دراسة مضمونها من وجهة نظر علوم الطبيعة والفيزياء. فسأله أحد علماء الدين عمّا إذا كان يؤمن بما جاء في القرآن من أخبار قبيلة عاد التي سلّط الله عليها إعصاراً محقها محقاً. فأجاب ابن رشد بأن هذا الخبر إنما هو أسطورة لا واقعة تاريخية حقيقية. فاستنكر القوم واتهموا ابن رشد بالإلحاد. وحكم عليه بالنفي وأحرقت كتبه ونودي في الناس باستنزال اللعنات عليه. ولم يشفع به، إنقاذاً له من موت محتوم، سوى سعة علمه في الطب. فقد استدعاه الخليفة إلى مراكش وعاش السنوات الثلاث الأخيرة من حياته سجين القصر، محروماً من القراءة والكتابة.

بعد القرن الثاني عشر، ظهر العالم الإسلامي في صورة عالم جامد منغلق في وجه كل تأثير خارجي، محروم من التمتّع بكنوزه الفكرية وإنجازاته العلمية. وهكذا قطع الأصوليون على الحضارة الإسلامية طريق المستقبل وحكموا عليها بالسجن المؤبد.

سخرية التاريخ

كان القرن الثاني عشر بداية تحول فعلي في العالم الإسلامي، كما في الغرب. ففي القرن الثاني عشر تحوّلت الأنظار عن العالم الإسلامي لتلتفت إلى الغرب، كما لو أننا أمام مشهد متحرّك في مسرح حديث. فبواحدة من تلك المصادفات المضحكة المبكية، التي يحبل بها التاريخ أحياناً، استيقظ الفكر والمعرفة العلمية في أوروبا، في وقت كان فيه الفكر والمعرفة يدخلان في سبات عميق في الشرق. لكن خلافاً لما فعله الأوروبيون حينما كانوا يتابعون

عن كتب تقدّم الحضارة الإسلامية، لم يول المسلمون أية أهمية للأفكار والاكتشافات الجديدة التي حدثت في أوروبا. فحين قرّر المسلمون بمحض إرادتهم أن يكونوا على هامش التاريخ (باعتمادهم الأصولية الدينية بدلاً من الانفتاح الذي ساد العصور الإسلامية الأولى)، عاشوا بعد القرن الثاني عشر على هامش الشعوب الأخرى، مهووسين بالآخرة و«متطلّباتها». في أواخر الخمسينات كتب مثقّف عربي: «تقلّص الفكر وأصيب بنوع من الخدر والخمود طيلة سبعة قرون»(١). ومؤخراً كتب مفكرٌ عربي آخر: «لم يتغيّر الإنسان الموحِّد (الذي عاش في القرن الثاني عشر) منذ أن زالت دولة الموحّدين في العام ١٢٩٦»(٢).

منذ أن فقد العالم الإسلامي الذاكرة ونسي شبابه، كفّ عن العناية بما كان ينهله من الحضارات الأخرى، وبات يتلذّذ بإتلاف معارفه وعلومه؛ كان يهرب إلى التراث والتقليد، وكان فقهاء الشرع ـ وقد نُصّبوا حكماً للتمييز بين «الحق» و«الباطل» ـ يأخذون على عاتقهم تجميد الدين في حرفيته وبتأويلاته الأكثر تزمتا.

تراجع الفكر العلمي أمام الفكر السحري. كَثُر التأليفُ في التنجيم الطبي بخاصة، وفي العلوم «الخفيّة» بعامة، وشاعت خواتم السحر وكتابات الطلاسم والأحجبة المكتوبة بحروف ذات مفعول خارق وأرقام فاعلة في حياة الناس، ...الخ. وازدهرت أعمال التنجيم والتبصير والعرافة التي نبذها القرآن(٣)

١- ف. السمير، **الفكر العربي في مواجهة الفكر الغربي**، في الكتاب الجماعي نهضة العالم العربي (بالفرنسية):

F. Al Samir, La pensée arabe face à la pensée occidentale, in Renaissance du monde arabe, Actes de colloque, Louvain, 1958.

٢- مالك بن نبي، ذكره ج.أ. فون غرونباوم في كتابه **هوية الإسلام الثقافية** (بالفرنسية):

G.E.Grunebaum, L'Identité culturelle de l'islam, Paris, 1973.

٣- وبخاصة في سورة الفلق.

وحاربها الفلاسفة والعلماء. وكان إيمان الناس بالتنجيم والسحر يتزايد بقدر ما كان التعليم يتقوقع في الجمود المذهبي والأصولية الصراطية (الرسمية).

أورد هنا ما كتبه «مستعرب» فرنسي مختصّ بهذا الجانب من التاريخ: «بعد القرن الثالث عشر انتعش السحر والتنجيم والعرافة والتعزيم، وانتظمت هذه الأعمال في جسم مذهبي وثيق الصلة بالممارسات الصوفية الاحتفالية المتنكّرة تحت عباءة دين أسهمت في تدميره وتخريب المزايا التي يمتاز بها كالبساطة والمنطق والعالمية»[١]. أما الفكر العلمي فقد أخذ يذوي ويضمر، وصار العلماء يمارسون البحث العلمي في الخفاء، والتحق عدد كبير من الفلاسفة بالاتجاهات الصوفية الباطنية حيث استمر التأمل والتفكير، ولكن في مجال الأدب والميتافيزيقا فقط.

بطبيعة الحال، كان هناك بعض الاستثناءات التي لم يكن لها مستقبل، ولم تسفر عن شيء يُذكر، كاكتشاف ابن النفيس مثلاً الدورة الدموية حوالي منتصف القرن الثالث عشر، والالتماع العلمي ــ الذي سرعان ما خبا نوره ــ لاسيما في مجال علوم الفلك برعاية المغولي هولاكو.

فيما عدا هذه الاستثناءات النادرة، حل «الإيمان والعقيدة» في العالم الإسلامي محلّ «العلم والمعرفة»، وحلّ «الوهم» محل «الواقع». والحقّ أن التاريخ لم يشهد صنّاع حضارة ينقضون على هذا النحو منجزاتهم التي حققوها طيلة أربعة قرون. وفي حين كانت تيارات الأصولية الدينية والمذهبية تزهو بانتصارها وسيادتها على العالم الإسلامي، كان العلم والفلسفة يتفتّحان في أوروبا، لتولد منهما فيما بعد أعظمُ ثورة علمية وتقنية. وبالمقابل، تراجعت

١- أرمان أبيل، **العلوم السحرية والانحطاط** (بالفرنسية): Armand Abel, Sciences occultes et décadence، في الكتاب الجماعي **النهوض والأفول الثقافي** Classicisme et déclin culturel... (مرجع مذكور).

مجتمعات الشرق وغرقت في التخلّف ثم أخذت تشهد «هجرة أدمغة» مازالت مستمرة حتى أيامنا هذه، كلما هبت عليها رياح أصولية جديدة.

كانت كُتُبُ المغضوب عليهم، التي أنقذها من الإتلاف يهودُ إسبانيا ومسيحيّوها (الموزاراب) ثم ترجمت إلى اللاتينية، تُنْقل خفيةً عن أعين السلطات الإسلامية والمسيحية إلى الجامعات الغربية. وبديهي أنه من المبالغة القول بأن نهضة الغرب بعد القرن الثاني عشر كان سببَها الأوحدَ المعارفُ التي أنتجها المسلمون، أيّاً كانت أهميةُ هذا السبب وحجمُه. ولذا لا يبدو أني أخرج عن موضوع هذا الكتاب إن أنا تفحّصت، ولو بسرعة، العواملَ التي أسهمت في تلك النهضة. فهذا التفحّص يعين القارئ على فهم أسباب وآليات العطل المفاجئ الذي أصاب الحضارة الإسلامية.

الفصل الرابع

صعود الغرب

يشبه مسار الحضارة الغربية قبل القرن السادس إلى حد ما، وإن ليس بسرعة مماثلة، مسار الحضارة الإسلامية. فقد بلغت قمماً رفيعة قبل أن تنهار على نحو مريع. وأدّى الغزو الهمجي في القرن الرابع إلى كبح توسع الثقافة الإغريقية، ثم إلى إسدال ستار النسيان عليها. وعندما اندفع بدو الجزيرة العربية في فتوحاتهم الظافرة، كانت أوروبا لا تزال تعاني من احتضار طويل أعقب دمار الإمبراطورية الرومانية وسقوط روما. انطفأت جذوة الفكر واستولت اللاعقلانية على الأذهان، وأدّى التراجع الثقافي والفكري إلى «فقدان للذاكرة العلمية»[١] دام زمناً طويلاً. وكانت الكنيسة بالذات تضع العراقيل في وجه التقدّم: إذ كانت ترى أن النصوص المقدسة وحدها هي القادرة على «تنوير» العقول والنفوس. وكان رجال الدين المسيحيون يشهّرون بعلوم الطبيعة، تماماً على نحو ما سيفعل الغزالي بعد عدة قرون في العالم الإسلامي، وكانوا لا يرون ما يستحق الاهتمام سوى الآخرة والخلاص من عذاب الآخرة!

١- دانييل بورستن، **المكتشفون** (بالإنجليزية):

Daniel Boorstin, The Discoverers, New York, 1983.

راجع أيضاً: موريس مولو ولوس بييرتي، **العالم وتاريخه**، الجزء الأول وهو بعنوان: العالم القديم وبدايات العصور الوسطى (بالفرنسية):

Maurice Meuleau et Luce Pietri, Le monde et son histoire, vol. I, Le Monde antique et les débuts du Moyen Âge, Robert Laffont, 1984.

كان المؤمنون يتخلّون عن العلوم لقاء تعويضات... وهمية: إذ «صار دخول الجنة هو الهدف الأسمى للحياة، وتحوّل وصف الجنة إلى نوع من الأدب المقدس، تماماً مثلما أضحت مغامرات الفضاء اليوم فرعا من فروع الخيال العلمي»[١]. هجر علماء الجغرافية النظر إلى الواقع عينياً، وانصرفوا إلى وضع خرائط تطابق «الحقيقة» الدينية. عادت الأرض مسطّحة منبسطة. ويُروى أن لاكتانسيوس Lactance الذي اختاره الإمبراطور قسطنطين مربياً لولده، وليّ عهده، قال وهو يُنكِر كروية الأرض: «هل هناك من يبلغ به الجهل والحمق حدّ الاعتقاد بأن ثمة بلاداً فيها البشر أرجلهم فوق رؤوسهم، والأشياء تتدلّى فيها من أسفل إلى أعلى، والأشجار تنبت رأساً على عقب، والمطر يهطل من تحت إلى فوق؟»[٢].

أنية مستطرقة

في أواخر القرن السادس كانت أوروبا فريسة «عقلية نكوصية» (جان جوليفيه Jean Jolivet) وكانت سادرةً في غياهب الجهل والظلام الذي لن تخرج منه إلا بعد قرون مضنية من السعي لاستعادة ثقافتها المفقودة.

إلا أنه منذ القرن الحادي عشر، وفي الوقت الذي شرعت فيه الحضارة الإسلامية تتراجع وتنهار، بدأت الكنيسة في أوروبا تخفف من غلوائها وتشددها، وتتساهل شيئاً فشيئاً مع الفنون الدنيوية الموصوفة بـ«المدنسة»[٣].

بذلك يبدو أن الغرب سلك طريقاً معاكساً تماماً لطريق العالم الإسلامي الذي

١- دانييل بورستن، **المكتشفون** (مرجع مذكور).

٢- المرجع السابق.

٣- جان جوليڤيه، **تاريخ الفلسفة**: فلسفة العصور الوسطى (بالفرنسية):

Jean Jolivet, Histoire de la philosophie, tome I, La philosophie médiévale, Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade, Paris, 1974.

غاص، منذ القرن الثاني عشر، في الأصولية والتزمّت، في حين انتقل تراثه العلمي والمعرفي إلى أوروبا، كما لو أن نظام «آنية مستطرقة» وصل ما بين العالم الإسلامي والغرب! فبعدما استعاد المسيحيون طليطلة وأنشأوا فيها مراكز للدراسات والأبحاث الشرقية، ولترجمة المؤلفات من اللغة العربية، بدأت منذ القرن الحادي عشر حركةُ نقل العلوم الإسلامية، ثم تصاعدت وتيرة هذه الحركة لتبلغ ذروتها بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر.

فإلى أيّ حدّ أسهمت العلوم الإسلامية في نهوض الحضارة الغربية؟ لا يزال هذا السؤال يثير جدالاً واسعاً ذا منحى علمي بين من يمكن تسميتهم بـ«المهوّلين» الذين يعظّمون من شأن هذا الإسهام، و«المهوّنين» الذين يقلّلون من شأنه. وقد أسفر هذا الجدال، حتى في الآونة الأخيرة، عن غلبة أصحاب التيار الأول.

من بين أمثلة كثيرة على ذلك، سأكتفي بذكر مثلين اثنين لا غير. أثناء وجودي في بيروت، وقد حالَ اندلاع الحرب دون مغادرتي هذه المدينة، عثرتُ في مكتبة الجامعة الأميركية على كتابٍ كان قد صدر للتوّ في لندن، لمؤلفه غوردون تشايلد Gordon Childe، عالِم الآثار الشهير، وأستاذ «أركيولوجيا ما قبل التاريخ». وقد جاء في هذا الكتاب أن «مدوّنات النظريات الكلاسيكية والمناهج الهلّينية كانت محفوظة في بيزنطة في الإسكندرية، موضوعةً في غرفة العناية الفائقة، معلّقة بين الحياة والموت، تحت رحمة دولة ثيوقراطية متزمتة، تحكم باسم الدين. ثم عادت تنتعش وتحيا في أجواء الدولة الساسانية المتسامحة، وفي المناخ الفكري الذي أشاعته جامعة جنديسابور بين عامَيْ ٥٣٠ و٥٨٠، ثم الخلافة العباسية (٧٩٠-٩٠٠) عندما دشنت الفتوحات الإسلامية عصراً من السلام والرخاء ونجحت من جديد في توحيد الجزء الأكبر من العالم المعروف في ذلك الوقت... وهذا قبل أن يضع رسوخ الأصولية الصراطية والتشدّد الديني، بدءاً من العام ١١٠٦، حدّاً نهائياً للبحث العلمي في ديار

الإسلام. وبعدما اغتنت المدوّنات القديمة بتجارب العرب واكتشافاتهم، انتقلت إلى أوروبا عن طريق الأقاليم الإسلامية في إسبانيا وصقلية»[١].

وحديثاً، كتب مؤرخ فلسفة العصور الوسطى جان جوليڤيه، في العام 1969: «نتج عن تمثل العرب لتراث الأمم الأخرى وترجماتهم، وعن جهودهم الخاصة، جملةٌ من المعارف التي أخذت تنتشر في الغرب، فأفادت منها العلاقات التجارية في أول الأمر، ثم كان وجود المسلمين في إسبانيا مفيداً جداً لنمو الفكر في العالم المسيحي»[٢].

على الرغم من استحكام العداء والحذر بين العالمين اتسع نطاق التبادل التجاري بين مدن الشرق والمدن المتوسطية في إيطاليا منذ القرن الحادي عشر. ثم أخذت السلع والأفكار الإسلامية تدخل الغرب من طريق الأندلس، أو من خلال التجارة الدولية، أو حتى بواسطة الصليبيين حينما عادوا إلى أوروبا. كانت المنتجات الجديدة تحتفظ بأسمائها العربية: قهوة، صوفا، الجبر، الكيمياء، البرقوق، زعفران، كافور، بنزين ...الخ، وفي الوقت نفسه اكتشفت أوروبا، من جديد، أرسطو والمفكرين الإغريق والفكر الفارسي والهندي والصيني. وتمثّلت الإنجازات الإسلامية العلمية (الرياضيات، الطب، الفيزياء، الخ...) والتقنية (صناعة الورق، استخدام البوصلة في الملاحة البحرية، الخ...).

ومع ذلك كله تسود الغرب اليوم «موضة» التقليل من دَور الحضارة الإسلامية وتأثيرها في الحضارة الغربية. ولئن يكن بعض المفكرين يشيرون إلى أهمية التفاعل بين بيزنطة وأوروبا في معرض تفسيرهم انبعاث الفكر الإغريقي والروماني، فإنهم لا يريدون أن يروا في الدور الذي لعبه المسلمون سوى أنهم كانوا مجرّد وسيطٍ نقلَ علومَ القدماء والرياضيات الهندية (وبخاصة الأرقام العربية).

١- البروفسور غوردون تشايلد: **ماذا حدث في التاريخ** (بالإنجليزية):

Pr. Gordon Childe, What Happened in History, London, 1942.

٢- جان جوليڤيه: **فلسفة العصور الوسطى** (مرجع مذكور).

إسهام العرب في الحضارة الغربية

يذهب بعض الغربيين، الذين يمقتون عداءَ الأصوليين الإسلاميين للغرب، إلى أبعد من ذلك، كما فعل جان كلود بارو مثلاً في مقالته الهجومية الأخيرة التي أثارت ردود فعل ساخطة. وفيما يلي مقطع من تلك المقالة: «علينا أن نعيد التأثير الذي أحدثه العالم الإسلامي على الغرب إلى حجمه الحقيقي؛ فالمستشرقون يضخّمون هذا التأثير، فيزعمون أن المسلمين هم الذين جعلوا الغرب يكتشف المؤلفات الإغريقية القديمة كلها تقريباً، والعلمية منها بخاصة. كان هناك تأثير... لكن علينا ألا نبالغ في تقدير مدى هذا التأثير، حتى ولو كانت كلمة "الجبر" عربية. إن الدور الحاسم في نقل الفكر الإغريقي إلى الغرب إنما لعبته الإمبراطورية البيزنطية»[١].

يبدو أن كاتب هذا الكلام قد نسي أن الصراطية الدينية والرقابة الصارمة في بيزنطة قد خنقتا كل نشاط فكري فيها. فليسمح لي حضرة هذا الكاتب بأن أذكّره بأن جربير دورّياك Gerbert Daurillac الذي سيصبح فيما بعد البابا سيلفستر الثاني، مهندس تدشين النهضة الفكرية في أوروبا في القرن العاشر، كان قد سافر إلى إسبانيا لدراسة «العلم الإسلامي» (بحسب العبارة التي استخدمها بنفسه)، شأنه في ذلك شأن معظم مفكّري ذلك الزمن.

وللدلالة على مدى الازدهار الفكري، في ذلك الزمن، في العالم الإسلامي، يكفي أن نقرأ ما كان كتبه بالانجليزية دانييل دي مورلي Daniel de Morley: «أدّى شغفي بالدراسة إلى طردي من إنجلترا. مكثتُ في باريس بعض الوقت لم أرَ فيها إلا متوحشين يسترخون على مقاعد الدراسة بصلفٍ فظيع... كان جهلهم

١- جان كلود بارو، **في الإسلام بعامّة، وفي العالم الحديث بخاصّة** (بالفرنسية):

Jean-Claude Barreau, De l'islam en général et du monde moderne en particulier, Paris, Ed. Le Pré aux Clercs, 1991.

يسوقهم إلى الحفاظ على مواقعهم، لكنهم كانوا يخالون، لجهلهم بالذات، أنهم عقلاء... وكانت طليطلة، كما هي اليوم، مركزاً يدرّس فيه العرب العلوم (العلوم الرباعية، أي الحساب والموسيقى والهندسة والفلك) للجميع وعلى نطاق واسع؛ فهرعت إليها أستمع إلى الدروس التي كان يلقيها أبرع فلاسفة العالم. ولا يعجبن أحدٌ إن أنا لم أذكر ها هنا ما يقوله آباء كنيستنا بخصوص خلق العالم، بل أذكر ما يقوله الفلاسفة الوثنيون [وهو يعني المسلمين] لأن هؤلاء الفلاسفة، على الرغم من كونهم لا يُعَدّون مؤمنين، فإن بعض كلامهم ينبغي أن يدرج في برامجنا التعليمية، لأنه مفعمٌ بالإيمان... فلنراجع إذاً ما قاله أولئك الكفّار، لكي يزيدنا كلامهم إيماناً»[1].

سأورد أيضاً بعض ما يقوله روجر بيكون Roger Bacon: «أساساً، تجدّدت الفلسفة على يد أرسطو باللغة الإغريقية ثم تجدّدت على يد ابن سينا باللغة العربية». كما أن جيرار الكريموني Gerard de Crémone (المتوفى عام ١١٨٧) قصد طليطلة سعياً وراء الترجمات العربية لمؤلفات أرسطو، بغية «إضافة شيء جديد إلى الفلسفة الغربية». فهل علينا، هنا، أن نعيد قراءة اللائحة الطويلة بأسماء الأوروبيين الذين كانوا تلامذةً تعلّموا على يد ابن سينا وابن رشد؟ أعلينا أن نذكّر بـ فريديريك الثاني Frédéric II de Hohenstaufen الذي كان يناقش بالعربية في الفلسفة والرياضيات والذي بنى في لوشيرا Lucera (بإيطاليا) حاضرة إسلامية ومسجداً أشاع فيها بهجة الحياة الشرقية؟

فرنسا أيضاً كانت تستدعي مختصّين عرباً. فعندما دسّت السمّ للأمير لويس السادس (الذي اعتلى العرش فيما بعد) زوجةُ أبيه، حوالي العام ١١٠٠، وعجز الأطباء المحليّون عن مداواته، طلب الأمير طبيباً عربياً. يقول الراهب والمؤرّخ أوردريك فيتال Orderic Vital (المتوفى العام ١١٤٣): «وأتى من

١- راجع الترجمة الفرنسية (جاك لوغوف: **حضارة الغرب في القرون الوسطى**):
Jacques Le Goff, in Civilisation de l'Occident médiéval, Arthaud, Paris, 1984.

الأندلس رجل ملتحٍ كثُّ الشعر، ثم راح يجرّب فنونه الطبيّة على الأمير الشاب الميئوس من شفائه. وبعون الله، نجحت تجربته حيث فشلت جهود الأطباء الفرنسيين. وبما أن هذا الرجل كان قد أمضى حياته بين الوثنيين المسلمين، فقد تتلمذ على يد أساتذتهم ومعلّميهم وتعمّق في دراسة أسرار الفيزياء (الطب). والحقّ أن أبحاثهم الفلسفية المعمّقة وضعتهم في مكانة فوق مكانة العلماء البرابرة في معرفة حقائق الأمور. وهكذا، شُفِيَ الأمير»[١].

دفن ابن رشد

لا أرمي إلى التقليل من عبقرية الغرب حين أقول إن الفكر الإسلامي ولّد ثورة ثقافية في أوروبا بعدما كانت تعاني من اضطهاد إقطاعي ورقابة كنسية. والحقّ أن الفكر الغربي تجدّد ونشط في كل الميادين، وبخاصة في ميدان الرياضيات، تحت تأثير الاطلاع على النصوص الوافدة من المشرق. كان القرن الثاني عشر الأوروبي على النقيض تماماً من القرن الثاني عشر الإسلامي! كان العلم الإسلامي يموت والعلم الغربي يولد!

في الأندلس انتهى القرن الثاني عشر بموت ابن رشد (١١٩٨) الذي أعيد جثمانه من مراكش إلى قرطبة، مسقط رأسه. يصف فيلسوف الصوفية الكبير ابن عربي حضوره مراسم الدفن بأسلوب مؤثّر في المجلد الأول من كتاب «الفتوحات المكية»، حيث يذكر أن وفاته كانت «في سنة خمس وتسعين وخمسمائة بمدينة مراكش ونُقل إلى قرطبة وبها قبره. ولمّا جُعل التابوت الذي فيه جسده على الدابة جُعِلت تآليفه تعادله من الجانب الآخر، وأنا واقف ومعي الفقيه الأديب أبو الحسن محمد بن جبير كاتب السيد أبي سعيد وصاحبي أبو الحكم عمر بن السراج الناسخ، فالتفت أبو الحكم إلينا وقال: ألا تنظرون إلى من

١- ذكره مكسيم رودنسون في كتابه **سحر الإسلام** (La fascination de l'islam)، مرجع مذكور.

يعادل الإمام ابن رشد في مركوبه؟ هذا الإمام وهذه أعماله، يعني تآليفه، فقال له ابن جبير: يا ولدي، نِعْمَ ما نظرت، لا فُض فوك. فقيّدتها عندي موعظة وتذكرة، رحم الله جميعهم وما بقي من الجماعة غيري، وقلنا في ذلك:

هذا الإمام وهذه أعماله يا ليت شعري! هل أتت آماله؟»[١]

يمكن الردّ على ابن عربي بالقول «نعم» و«لا» في آن معاً؛ ففي الواقع، إن «العقلانية» التي كان فيلسوف قرطبة يتمنّاها لم تتطوّر في ديار الإسلام، وإنما ترعرعت وازدهرت في الغرب.

كان ابن رشد وابن عربي معاديين كلاهما للأصولية والتزمّت. فعندما قرّر ابن عربي فجأة أن يغادر مسقط رأسه، الأندلس، ليعود إلى الأرض التي فيها وُلِد الرسول، وفيها نزلت عليه الرسالة، ليتشبّع منها، كانت مؤلفات ابن رشد الممنوعة في العالم الإسلامي (ولا تزال ممنوعةً إلى يومنا هذا في العديد من أقطاره!) تنتقل إلى الغرب. كان مصير هذين المفكرين العظيمين مصدر إلهام للعالِم الفيزيائي الكبير فريتول كابرا Frijtol Capra الذي رأى أن «جذراً واحداً أنبت العلم في الغرب والتصوّف في الشرق». ويعبّر هنري كوربان Henry Corbin عن الفكرة نفسها تقريباً، حين يقول إن شيئاً ما انتهى مع موت ابن رشد، ثم لم يعد بإمكانه أن يحيا في ديار الإسلام، «لكنه أرشد الفكر الأوروبي، عنيت تلك الرشدية اللاتينية التي استعادت كل ما جاد به الإسلام في ذلك العصر»[٢].

١- راجع الترجمة الفرنسية لهنري كوربان «**الخيال الخلاق في صوفية ابن عربي**»:
Henry Corbin, in L'imagination créatrice dans les oufisme d'Ibn Arabi, Flammarion, Paris, 1958.

٢- هنري كوربان، **تاريخ الفلسفة الإسلامية** (بالفرنسية):
Henry Corbin, Hisroire de la philosophie islamique, Paris, 1959.

راجع أيضاً: هنري كوربان، **تاريخ الفلسفة** (بالفرنسية):
Histoire de la philosophie, Bibiothèquede la Pléiade, tome I et II, Gallimard, Paris, 1974.

كان ردّ ابن رشد على علماء الدين الذين اتهموه بالإلحاد: «أيها الناس! أنا لا أقول إن هذا العلم الذي تسمّونه أنتم علم الله هو على خطأ، وإنما أقول إن علمي أنا هو علمٌ بشري». ويقول المؤرخ الإيطالي جيوفريدو قوادري Geoffredo Quadri الذي يذكر قولةَ ابن رشد تلك، إن «الإنسانية الجديدة التي تفتّحت مع النهضة انبثقت من هنا»[1]. فكلام ابن رشد هذا يتضمّن بذور الحضارة الحديثة التي تفصل فصلاً قاطعاً بين الديني والدنيوي.

يتّضح إذن أن المفكرين والعلماء المسلمين لعبوا دوراً مهماً جداً في نمو الحضارة الغربية؛ في هذا الصدد، يحضرني نقاش طويل مع دني دي روجمون Denis de Rougemont، كان قد جرى في أفريقيا. كان ذلك في العام ١٩٧٨ على ظهر قارب سياحي، أجّره لنا الأمير صدر الدين آغا خان، في نهر السنغال. أعرب دي روجمون عن إعجابه العميق بالإسهام «الشرقي» في الثقافة الأوروبية، وتساءل عن «المسالك السرية» التي انتقلت عبرها البوذية والمزدكية واليوغا لتصل إلى «العقل الباطني» للقرون الوسطى. أما المسالك التي انتقل عبْرها الإسلام، وأساليب انتقاله إلى أوروبا، فقد كانت واضحة جليّة. وافقتُ دي روجمون على أنه لا يمكن أن نعزو نهضة الغرب إلى ما أسهم به الإسلام وحده في هذه النهضة، كما لا يمكن القول إن ابن رشد وحده غيّر مصير أوروبا! والحقّ أن صعود الحضارة الغربية، كما صعود الحضارة الإسلامية، ناتج عن تضافر عوامل عدة.

١- ذكره هنري كوربان في **تاريخ الفلسفة الإسلامية** (مرجع مذكور).

العوامل الاقتصادية والاجتماعية

ثمّة قبل كل شيء العامل الجغرافي؛ فأوروبا تتمتّع بامتيازات طبيعية وجغرافية كثيرة منها: ارتفاع نسبة هطول الأمطار على مدار السنة، خصب الأراضي الزراعية، الأنهار الطويلة الصالحة للملاحة، المعادن المختلفة، الغابات الكبرى، ...الخ. من ناحية أخرى كان الغزاة البرابرة يمحقون المؤسسات القائمة ويعيدون المجتمع إلى رتابته الزراعية: وكان الأوروبيون قادرين على إعادة بناء كل شيء، متخلصين من «عقدة الماضي ووطْأته». وفضلاً عن ذلك كان باستطاعتهم الاستعانة ببعض مواد الحضارة البيزنطية والإسلامية، ليأخذوا من هذه المواد ما يرونه مناسباً لهم[١].

حمل الاحتكاك المباشر (الأندلس، الحروب الصليبية)، وعبر خطوط التجارة الكبرى، إلى أوروبا معارف المسلمين واكتشافاتهم العلمية تدريجياً. فقد نقل المسلمون إلى أوروبا تقنيات الريّ والبذور الزراعية الجديدة التي أنعشت الإنتاج الزراعي وساعدت على تطويره.

لكن هذا الجانب «المادي» من الإسهام الإسلامي في الحضارة الأوروبية لا يبدو لي على جانب كبير من الأهمية كما يتصوّر بعض المختصّين. فالبلدان الإسلامية تستورد اليوم تكنولوجيا غربية وكثيراً من مستجدّات الغرب العلمية والفكرية من دون أن تتغيّر أو تتحسّن الأوضاع في هذه البلدان. إن استخدام الراديو والتلفزيون والوسائل السمعية-البصرية من قِبَل الملالي في إيران، والجهاديين «الإسلاميين» في بلدان أخرى، يسمّم الرأي العام ولا يحدث أي تغيير في العقليات!

والواقع أن عوامل أخرى هي التي ترجح كفتها هنا، وفي مقدمها انفتاح

١- البروفسور و. هـ. ماكنيل، **صعود الغرب** (بالإنجليزية):

Pr. W. H. McNeill, The Rise of the West, Chcago, 1963.

الأوروبيين على المستجدّات وفضولهم وتثقفهم بأنفسهم. ينسب المستشرق برنارد لويس صعود الحضارة الغربية الحديثة التي بدأت في القرن الثاني عشر إلى «التزامن الموفق بين ثلاثة أحداث: اكتشاف عالم جديد أيقظ الفضول وحب الاستطلاع، إعادة اكتشاف الفكر اليوناني الكلاسيكي أثناء عصر النهضة، فكان ذلك مثالاً لذلك الفضول ومنهجاً لتلبية متطلباته في آن معاً؛ والحدث الثالث هو بدء الإصلاح الديني وتراجع سلطة الكنيسة أمام الفكر وتعبيراته»[١]. ويضيف برنارد لويس أن العالم الإسلامي كانت له اكتشافاته أيضاً، وذلك بمقدار ما كان يحتك أثناء الفتوحات بأوروبا والهند والصين. كما كانت له نهضته في عصوره الأولى من خلال انفتاحه على الثقافات اليونانية والفارسية. «لكن هذه الأحداث لم يرافقها أي ضعف أو تراخٍ في الروابط الدينية... كما أن الصراع الفكري بين القدامى والجدد، بين الفقهاء والفلاسفة، انتهى بهزيمة هؤلاء وانتصار أولئك»[٢].

وأكثر ما يثير العجب هو لامبالاة المسلمين المطلقة وعدم اهتمامهم التام بما حدث في أوروبا، بعد القرن الثاني عشر، من نتاجات فكرية واختراعات تقنية.

الخوف من المطبعة

هكذا انقضت ثلاثة قرون قبل أن يُدخِل المسلمون المطبعة إلى بلادهم. وذلك على الرغم من أنهم كانوا يعرفون الورق وهم الذين اخترعوه في العام ٧٩٣ في عهد هارون الرشيد في بغداد، ثم انتقل إلى إيطاليا أولاً ثم إلى فرنسا عبر الأندلس قبل أن يعمّ أوروبا في القرن الرابع عشر. هذا الحذر من المطبعة، من أين جاء؟ بعامة (وهذا ما نلاحظه اليوم أيضاً) يشتري المسلمون التقنيات المسيحية التي تلبي حاجاتهم، شريطة ألا تسيء إلى نمط حياتهم

١- برنارد لويس، **كيف اكتشف الإسلام أوروبا؟** (مرجع مذكور).

٢- المرجع نفسه.

ومعتقداتهم الدينية. أما بخصوص المطبعة، فلم يكن وارداً عند المسلمين أن ينشر القرآن على شكل مغاير للشكل المخطوط، كما تداوله صحابة النبي. وكان القرآن قد طُبع في أوروبا باللغة العربية زمناً طويلاً قبل أن يطبع في البلدان الإسلامية.

معلومٌ هو الدور الكبير الذي لعبته المطبعة في تطور الغرب ونموه، من خلال ولادة الصحف ونشر الكتب على نطاق واسع. والحال أن المسلمين كانوا يعرفون هذه التقنيات التي لا يريدونها. يقول رشيد الدين (١٢٤٧-١٣١٨) الوزير الأكبر في الدولة المغولية، في كتابه الموسوعي «الجامع»، إن النسّاخين الصينيين كانوا يحفرون نصوص الكتب على ألواح تُحفَظ في مكاتب الإدارات، «وكان كل من يرغب في الحصول على نسخة، يدفع رسماً تفرضه الدولة، ثم تؤخذ هذه الألواح وتطبع كما يطبع النقش على العملة الذهبية»[١]. في العام ١٦٩٠ أشار السفير المغربي لدى إسبانيا في تقرير له إلى وجود «طواحين طباعة (مطابع)» و«رسائل إعلام (صحف)»[٢]. وكانت السلطة العثمانية تسمح للجاليات الأجنبية بطبع ما تريد، شريطة ألا تشمل الطباعة النصوص العربية أو التركية.

أول مطبعة إسلامية في تركيا أنشأها إبراهيم متفرّيكا Muteferrika وهو مسيحي هنغاري، أسَرته فرقة من جيش «الإنكشارية» التركي وباعته لرجل فظ الطباع، ثم اعتنق الإسلام لينجو من العبودية وتعلم العربية ودخل السلك الدبلوماسي. وعندما أصبح سفيراً في أوروبا الشرقية، أدرك أهمية الطباعة، ثم ألف كتاباً ندّد فيه بضياع أعداد هائلة من المخطوطات الثمينة في الحروب والاجتياحات العسكرية، وكان من الممكن، لو أدركتها المطبعة، إنقاذها من

١- بورستن (مرجع مذكور).

٢- برنارد لويس (مرجع مذكور).

الضياع ونقلها إلى الأجيال اللاحقة. بعد ثماني سنوات من العمل في السلك الدبلوماسي استطاع أن يقنع السلطان في العام ١٧٢٧ باعتماد المطبعة. فسارت مظاهرة نظمها الخطاطون حملوا فيها نعشاً وضعوا فيه محابر وريشات قصب ومباري. بعد ذلك صدرت فتوى تبيح طبع الكتب بالحروف العربية باستثناء القرآن والأبحاث الدينية وكتب الحقوق الشرعية للمسلمين. غير أن ما بدأه إبراهيم متفريكا انتهى بانتهاء حياته، العام ١٧٤٥[1].

بعد الثورة الفرنسية، أنشأت السفارة الفرنسية في اسطنبول مطبعة في طوابقها السفلى، ونشرت عام ١٧٩٦ أول عدد من «جريدة القسطنطينية» الفرنسية (Gazette française de canstantinople). كما أدخل نابوليون المطبعة عام ١٧٨٩ إلى مصر، حيث صدرت بعض الأعداد من جريدة «بريد مصر» (Le Courrier de l'Egypte). وفي العام ١٨٢٦ أنشأ محمد علي في مصر «الجريدة الرسمية» التي أصدرت مثلها فيما بعد كل من تركيا وإيران.

إن هذا الحذر من المطبعة والتحفظ حيال هذا الاختراع المهم يُظهِر للعيان مدى العقبات التي كانت تقيمها الأصولية في وجه التقدّم، ويفسّر بالتالي، ولو جزئياً، التأخر الذي أصاب العالم الإسلامي. أما أسباب هذا التأخر العميقة فينبغي، لكي نفهمها، أن نعرف كيف ولماذا استطاعت أوروبا، بعدما استوعبت النتاج العلمي والفلسفي الإسلامي، أن تدشّن مرحلة التطور التي ما زالت مستمرة إلى الآن. وحدها الحضارة الغربية، بين الحضارات قاطبة، استطاعت أن تتفادى الجمود.

والسؤال الأهم، في هذا الصدد، هو معرفة أيّ من عناصر الثقافة الإسلامية كان له أكبر الأثر في صعود الغرب.

١- بورستن (مرجع مذكور).

الروح العلمي

حرّر الفتح العربي في القرن السابع، كما رأينا، شعوباً كثيرة من نير الظلم الذي كانت تمارسه الإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية. وبذا أتاح للفكر أن يستعيد عمله، كما أتاح للمبادرات الإنتاجية أن تنشط من جديد. لم يأت العرب بجديد على الصعيد التقني والعلمي، لكنهم حفزوا الحضارات القديمة على استعادة حيويتها ونشاطها.

في أوروبا لم تجر الأمور على هذا النحو، بل على نحو آخر. فبصرف النظر عن الظروف، حدث أمر كان ذا أهمية قصوى: ذلك أن «المثقفين» نظموا، إذا صحّ القول، حملة استيعاب واع وإرادي للمعارف التي راكمتها شعوب أخرى. فعلى مستوى معين من مستويات المجتمع، كان ثمة ذهنية انفتاحية معمّمة (كما يشهد على ذلك المقطعُ الذي اقتطفناه من سيرة دانييل دي مورلي الذاتية وأوردناه في هذا الفصل).

أي شيء في الثقافة الإسلامية أثار، أكثر من سواه، اهتمام المثقفين الغربيين واجتذبهم؟ بطبيعة الحال، لم يكن القرآن هو ما أثار اهتمام الغربيين: فقد كانوا مسيحيين، وكان المسلمون كفرة في نظرهم. كانوا يبحثون، ولا ريب، عن تراث القدماء. لكن هذا وحده لا يكفي لتفسير ذلك «الزحف على طليطلة» التي كانت، منذ أواخر القرن العاشر وحتى القرن الثالث عشر، مركزاً لتعليم الفلسفة الإسلامية ولترجمة المؤلفات العربية. كان هناك، ولا ريب، شيء آخر، أقوى وأكثر أهمية.

هذا الشيء هو، في رأيي، البحث فيما وراء ظاهر النصوص (الدينية أو الدنيوية)، وفيما وراء ظاهرات الطبيعة، عن المعنى العميق للأشياء وعن الآليات الخفيّة. وبالفعل، كان بحث المفكرين المسلمين في مجال المعرفة

والميتافيزيقا، يقترن بالرغبة في اكتشاف المعارف الوضعية، مصحوبة في الغالب بالاختبارات العملية والأبحاث التجريبية. فلدى العديد من العلماء المسلمين كان التأمل في ما بعد الطبيعة يقترن ــ على ما في ذلك من غرابة ــ بالروح العلمي. فجابر بن حيان، مثلاً، وضع في القرن الثامن نظريته المعروفة بـ«نظرية الميزان» التي كانت تمثل في القرون الوسطى أول محاولة لوضع نظام «كمي» يشمل العلوم الطبيعية وجملة المعارف الإنسانية، بما في ذلك الميتافيزيقا. وفي القرن العاشر وضع «إخوان الصفا» أول موسوعة في المعارف الإنسانية.

كان العلماء المسلمون يتميّزون أيضاً بحسّ عملي ونزعة تجريبية. فابن الهيثم مثلاً كان يسعى إلى تنظيم طمي النيل بتطبيق نظرياته الرياضية على تضاريس الطبيعة. وكان البيروني يدعو إلى الملاحظة والمعاينة والاستنتاج كمصادر للمعرفة؛ فمن معاينة المستحاثات والحيوانات المتحجّرة ودراسة الأراضي الصخرية من خلال الرواسب، استنتج حدوث انقلابات جيولوجية سحيقة القِدم نجم عنها بحار استوت يابسة وأجزاء من اليابسة غمرتها مياه البحار. يكفي أن نقرأ هذا المقطع الصغير من كتابه حتى ندرك مدى حداثته: [«كانت الصحراء العربية فيما مضى بحراً طرأت عليه تحوّلات جيولوجية، يشهد على ذلك أن الآثار التي تدل على شكله الأساسي تظهر حينما نحفر آباراً، إذ سرعان ما نجد طبقات من التراب والرمل والحصى، كما نجد في التربة أصدافاً وزجاجاً وعظاماً لا يمكن الافتراض أنها كانت مدفونة عمداً هناك، لأنه يوجد أيضاً حجارة ارتصفت فيها أصداف وأسماك تكون أحياناً محفوظة حفظاً كاملاً، وأحياناً لا يكون قد بقي منها إلا شكلها الأولي مطبوعاً على الحجر بعد أن تكون تلفت وتحلّلت نهائياً»][•].

•- بترجمتي وليس بنصه، لأن المؤلف لم يسمِّ مرجعه. (م)

عودة الفكر الإغريقي

كان المفكّرون المسلمون يقدّمون كذلك عبر مؤلفاتهم تراث المفكرين القدماء، وبخاصة المفكرين الإغريق، على حدّ قول مختص إنجليزي كبير: «كان لا يمكن للهلينية أن تُثبِت مكانتها في الفكر الإنساني إلا بفضل جدارتها التي تقوم على التوفيق الصريح والمقصود بين النقل (أو بالأحرى الوحي) والعقل؛ ومع عملية التوفيق هذه، يصبح مستحيلاً القول: *علينا ألا نذهب أبعد من ذلك*!»[١]. ولقد حاول ابن رشد أن يوفق بالضبط بين النقل والعقل، لكن معاصريه أدانوا هذه المحاولة ووقفوا ضدّها؛ ولذا فإن العالم الإسلامي لم يتمكّن من أن «يذهب *أبعد من ذلك*».

في المقابل، تمكّن الغربيون من تجاوز كل العقبات التي أقامتها الأصولية الصراطية ومن خلق علم متجدّد باستمرار. وكان من أسباب نجاحهم في ذلك أن كثيراً من رجال الدين، خلافاً لما كانت عليه الحال عند المسلمين، انضموا إلى العلماء «العلمانيين» في السعي وراء المعرفة. وقد أثر نمو العلم وتطوره في المجتمع بجميع جوانبه، وحوّل العقليات خلال زمن قصير نسبياً.

ثمة اختلاف آخر عن المسلمين: فقد أعاد الأوروبيون الحياة إلى الآداب اليونانية، ولاسيما الميثولوجيا التي كانت أساطيرها تَسِمُ بميسمها اللاشعور الجمعي للشعوب. ولا أريد الدخول هنا في شرح كيفية تأثير الأساطير على المجتمعات البشرية وعلى السلوك الفردي: فالأعمال العلمية لفرويد Freud ويونغ Jung وميرسيا إلياد Mircea Eliade وثيودور روزاك Theodor

---

١- آرثر دربي نوك، **أبحاث في الدين والعالم القديم** (بالإنجليزية): Arthur Darby Nock, Essays on Religion and the Ancient World، ذكره أرنالدو موميليانو في كتابه (**حِكم بربرية**) المترجم إلى الفرنسية:

Arneldo Momigliano, Sagesses barbares, Gallimard, Paris, 1979.

Roszak وجيزا رُحيم Gesa Roheim وجورج دوميزيل Dumézil، ...الخ، باتت اليوم في متناول عامة الناس. كذلك فإن المؤرخين المعاصرين، أمثال جاك لوغوف Le Goff وجورج دوبي Duby، لا يهملون دور «المخيال» L'imaginaire و«التصورات الذهنية» في تاريخ المجتمعات. ولا أود أن أضيف هنا سوى أن الأساطير هي بمثابة برامج إلكترونية تزرعها البيئات الاجتماعية في أدمغة البشر.

من هذا المنظور، يبدو لي بديهياً أن أساطير بروميثيوس Promothée وأوديب Oedipe التي اندمجت في «الذهنية» الغربية الجديدة، لعبت دوراً مهماً في دكّ أسس الإقطاع والعقلية الإقطاعية. فالعلاقة بين السيد والتابع تراجعت، تدريجياً، أمام نمط انتقال «طبيعي» للسلطة من «الأب» إلى «الابن». وبفعل أسطورة ماراثون(•)، مثلاً، تزايد الجهد الجماعي وانتشرت فكرة العمل في مجموعة أو فريق عمل؛ وكان لصورة انتقال المشعل من يد عدّاء إلى يد عدّاء آخر، في هذه الأسطورة، أنها حفزت تواصل عمل المؤسسات والمشاريع واستمرارها في الزمن.

في حين كان الغرب يتخلّص ببطء من علاقات «التبعية» الإقطاعية، كان المسلمون يتمسّكون، كما لم يسبق لهم أن تمسّكوا، بمفهوم «الأب الحامي» أو «الإمام»، أو «المستبد العادل» حسب تعبير «المصلحَين» محمد عبده وجمال الدين الأفغاني[١]. وكانت الأصولية التي انتصرت في القرن الثاني عشر تميل إلى

•- ماراثون: قرية يونانية على بعد ٤٠ كلم من أثينا، اشتهرت بانتصار اليونان فيها على الفرس نحو ٤٩٠ ق.م. والعدّاء الذي كُلِّف بنقل بشارة النصر إلى أثينا مات من شدّة الجهد والإنهاك عند وصوله إليها. وقد باتت تُنظَّم، بمناسبة هذه الحكاية، مباريات رياضية، توصل نتائجها إلى أثينا عن طريق عدّائين يتناوبون في حمل المشعل (رمز البشارة) حتى لا يلقوا المصير المأسوي للعداء الأول. (م)

١- راجع فصل المستبدّ العادل في كتابي: **ماذا يريد العرب؟** (بالفرنسية): Fereydoun Hovayda, Que veulent les Arabes?, First, Paris, 1991. بموجب هذه النظرية ⇦

إبقاء الشعوب في حالة من التبعية، في حالة من الطفولة الدائمة. والأمور لم تتغيّر إلى يومنا هذا: أفلا تسمى عقيدة الخميني «ولاية الفقيه»؟ ألا يعني فرض وليّ وصيّ على المواطنين أنهم قاصرون إلى الأبد؟ فهل حُكِم على المسلمين ألا يبلغوا أبداً سن الرشد؟

في رأيي، لا بد من التشديد على ذلك التحوّل الجذري الذي أصاب دور الأب وصورته في المجتمعات الغربية بعد القرن الثاني عشر. لقد غادر الأوروبي الطفولة نهائياً عندما أخذ «يعيش رمزياً» قتل الأب في أسطورة أوديب. ومع نمو الإنتاج المادي الذي حدث في الوقت نفسه أخذت العلاقات الاجتماعية تنتج أفراداً متساوين، يحركهم حب المغامرة وروح التنافس. أوضح المؤرخ الكبير جورج دوبي المختص بتاريخ القرون الوسطى أثر «الصورة الجماعية» والأساطير في هذا المسار. وفيما يلي هذا المقطع من كتابه: «يمكن أن نلحظ، ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثاني عشر، ظهوراً متدرّجاً لكثير من الصور التي تعبّر عن المستجدات الاجتماعية وتبرّرها، وهي صور تكوّن معظمها في ذلك الوسط الذي مازال يحتكر بامتياز الثقافة الرفيعة، أي وسط أهل الكنيسة ورجال الدين...، وقد بلغ الوعي بأن الإنسان مدعوّ من خلال ملكاته كلها وبجهوده الشخصية الخاصة، إلى الإسهام بنشاط في هذا التقدّم المتواصل بلا انقطاع الذي باتت أسطورة الخلق تتجسّد فيه»[١].

⇦ التي وضعها الأفغاني وطوّرها تلميذه محمد عبده، يكون أقصى ما يمكن أن يأمله المسلمون هو أن يُمسِك بزمام السلطة حاكم «عادل وأبويّ» يمارس الحكم على نحو أكثر إنسانية، ويستخدم معارف الغرب الحديثة العلمية والتقنية. وبمعنى ما، تستعيد هذه النظرية مفهوم «المستبدّ المستنير» التي قال بها الموسوعيون (Les encyclopédistes) في القرن الثامن عشر؛ كما تستعيد أفكار فولتير Voltaire في هذا الموضوع.

١- جورج دوبي: **في مجتمعات العصور الوسطى** (بالفرنسية):

Georges Duby, Des sociétés médiévales, Gallimard, Paris, 1971.

كان الفكر والميثولوجيا اليونانيان يتضمنان عناصر الديموقراطية السياسية والاجتماعية على شكل «بذور» إذا جاز القول. وكانا يناقضان «الوصاية» التي يمارسها رجال الدين في الغرب والشرق على حدّ سواء. ولا ريب في أن ذلك كان أحد الأسباب (الواعية وغير الواعية) التي دفعت المسلمين إلى التصلّب إلى ذلك الحدّ في مكافحة الفلاسفة «المتهلينين»[١] كما كانوا يسمّون؛ فقد كانوا يستشعرون فيهم خطراً يهدّد سيطرتهم المطلقة على المجتمع. وبعد انتصار الصراطية في القرن الثاني عشر ترسّخت سيطرة رجال الدين وتزايد إحراق الكتب.

منذ العام ١١٥٠ أمر الخليفة في بغداد بإحراق جميع النسخ المتبقّية من موسوعة إخوان الصفا وكل مؤلفات ابن سينا. وقبل ذلك بزمن، كان المنصور ــ الوزير الأندلسي الشهير ــ قد سمح لعلماء الأندلس وفقهائها، كسباً لودّهم، بتطهير مكتبة قرطبة وفق ما يشاؤون ويشتهون.

١- في رأيي، إنما من هذه الناحية، يجب البحث عن أسباب الحروب التي كانت لا تنتهي بين الإغريق والفرس. إن العناصر «الديموقراطية» في الفكر والتنظيم السياسيين لدى الإغريق تتناقض تماماً مع عناصر الفكر والتنظيم السياسيَّيْن لدى الفرس المتمسّكين بأوتوقراطية الحكم القائم على الحق الإلهي. كان كل من الشعبين يرى في الآخر خطراً داهماً: فتسرُّب الأفكار كان يمكن أن يؤدّي إلى نسف التنظيم السياسي/الاجتماعي لدى كل من الطرفين. وعلى النحو نفسه يرى علماء الفقه الصراطيون في العالم الإسلامي أن الأفكار الديمقراطية خطر عليهم يتهدد أشكال الحكم الديني (الثيوقراطي) كافة. في نظري، إن ثورة الملالي في إيران وقعت في العام ١٩٧٨-١٩٧٩ لا في أي وقت آخر، لأن نظام الشاه (وهذا سبب بين جملة أسباب أخرى) كان قد قرّر السير على طريق الديموقراطية بعزمه على إجراء انتخابات «حرّة تماماً» في شهر حزيران-يونيو ١٩٧٩. وهذا ما كان الخميني يريد بأي ثمن أن يمنع وقوعه؛ لأن إجراء مثل هذه الانتخابات، في ظلّ النظام الذي كان قائماً وقتذاك، كان يمكن أن يسدد ضربةً قاصمة إلى المؤسسة الدينية، كما كان يمكن أن يفتح الباب أمام نوع من العلمانية.

لا تزال هذه الممارسات قائمة في العالم الإسلامي حيث يحرض الأصوليون الجماهير على إحراق الكتب التي يرون فيها كفراً أو نيلاً من الإسلام؛ بل أن الأصوليين يذهبون إلى حدّ دفع المؤمنين إلى قتل كتّاب (كفتوى الخميني ــ التي لا تزال في ذاكرة الجميع ــ بقتل سلمان رشدي!). ليس هناك بلد عربي واحد لا يمارس الرقابة على الكتّاب ولا يزجّ بهم في السجن. في مصر صودرت جميع نسخ ألف ليلة وليلة في العام ١٩٨٥، وفي العام ١٩٩٠ سُحبت من المكتبات رواية نجيب محفوظ التي فازت بجائزة نوبل للآداب، علماً بأن مصر تعدّ من أكثر البلدان الإسلامية «تسامحاً»!

حينما كانت سلطة الفقهاء المسلمين تشتد وتترسّخ، كانت الجامعات الأوروبية تتخلّص شيئاً فشيئاً من وصاية رجال الكهنوت ومن تدخّل الدولة. وهكذا انفصل عالم الدين عن عالم الدنيا. وبديهيّ أن الكنيسة كافحت الاتجاهات الجديدة؛ ولكي تحافظ على سلطتها، أنشأت في العام ١١٨٣ محاكم التفتيش (مجمع فيرونا) التي عاثت فساداً، على الأقل في بعض مناطق العالم المسيحي، وذلك حتى القرن السابع عشر؛ فقد أرغمت غاليليه Galilée مثلاً في العام ١٦٣٣ على «جحد» نظرياته! ولكن على الرغم من المعارك التي قادتها قوى التخلّف، واصلت العلمانية تقدّمها ببطء، وإنما بثبات، وأرغمت السلطات الدينية على التخلّي عن رغبتها في السيطرة على كامل الفكر الإنساني. وانتعش المناخ المؤاتي لاختمار الفكر، فأسهم في ولادة إنسانية تتقبّل التفكير النقدي، ولا يبقى الإنسان فيها مذلولاً أمام الله.

في الوقت نفسه ولد العلم «الحديث» وطفق ينمو ويترعرع. وشيئاً فشيئاً أخذت أجواء الحوار الحرّ وتبادل الأفكار تحلّ محلّ أجواء القمع والإكراه. وبرز الفكر إلى وضح النهار جلياً سافراً، بينما كان في بلاد الإسلام يلوذ بالخفاء وينضب معينه باستمرار.

العلم والديموقراطية

يذكر القارئ ولا ريب الموقف الغريب الذي وقفه عددٌ كبير من المسلمين حيال «الجديد»؛ فقد أشرت تكراراً في الصفحات السابقة إلى معارضة الفقهاء الصراطيين لكل ابتكار ولكل تجديد. والحال أن تجربة النهضة أولاً، ثم تجربة الثورة العلمية فيما بعد، أثبتتا إلى أيّ مدى يشكّل تغيّر الموقف من «الجديد» شرطاً أساسياً من شروط التقدّم(١).

لقد استوعبت أوروبا فكرة «التقدّم» واستبطنتها في نظام «قيمها»، وأقرّت في الوقت نفسه بتعدّد الآراء، منعتقةً من نظام الكنيسة الديني الأحادي المتزمّت.

إن التقدّم (أي التغيير) يخيف المجتمعات التقليدية؛ فهذه تبقى مغروسة في الماضي الذي تقدّسه وتصوّره نموذجاً ينبغي أن يُعاد إنتاجه باستمرار، وإلى ما لا نهاية. من هنا، نزوع تلك المجتمعات إلى «التكرار»؛ فهي تهتم بصون «هويتها الأصلية»، التي هي بمثابة مثل أعلى مستحيل، أكثر بكثير مما تهتم بالتجديد والإبداع. وبهذا فإنها تلتزم الجمود وتحكم على نفسها بالذبول والتلف في عالم يتجدّد باستمرار.

إن الفكر لا يزول في أوساط المجتمع التقليدي زوالاً تاماً، لكنه يكفّ عن التجدّد وعن إنتاج ثماره. فها نحن اليوم نرى مثقفين مسلمين، وما أكثرهم، يشيدون بعلماء الماضي العظام ويفخرون بهم، لكنهم ينسون أن أولئك العلماء كانوا من المغضوب عليهم، وعليهم انصبّت لعنات الفقهاء منذ ثمانية قرون، وأن «الجامعات الإسلامية» السنّية والشيعية في الأزهر وقُمّ، لا تدرّس فلسفة ابن سينا وابن رشد! كما ينسى هؤلاء المثقفون أن أيّاً من العلماء الذين يفاخرون

١- راجع مداخلة جان بواريه في الكتاب الجماعي **تاريخ الأخلاق والأعراف** (بالفرنسية):
Jean Poirier, in Hisroire des moeurs , Bibliothèque de la Pléiade, tome III, Gallimard, Paris, 1991.

بهم لم يستطع تشكيل تيار فكري، وأن أياً منهم لم يتمكن من تطوير فكره إلى الحدّ الأقصى أو مِنْ وضْعِ أسسِ علمٍ قادر على التقدّم باستمرار، كما لم يتمكّن أيّ جيل من الأجيال التي أعقبتهم من القيام بهذا العمل.

قد يكون الردّ بأن الفارابي والكندي مثلاً كانا يعرفان معظم العناصر، وهذا صحيح؛ لكن كان ينبغي أن يأتي رجل مثل مندلييف Mendeliev لكي يصنّف العناصر وفقاً لنظام معيّن. أما اكتشاف الدورة الدموية فقد ضاع في متاهات الخطابات الدينية، إلى أن اكتشفها هيرفي Harvy فيما بعد!

بالطبع لا يمكن تحميل مسؤولية هذا الوضع للدين، بل يجب تحميلها للذهنية المحافظة المتطرّفة التي انتصرت في القرن الثاني عشر. على أية حال، يتطلّب الإبداع والاكتشاف والاختراع نضجاً مزدوجاً: فعلى المجتمع أن يكون متطوّراً بقدر تطور المبدعين والمخترعين والمكتشفين(١). وإلا فإن الفكر لن يؤتي ثماره ولن يكون بمكنة المجتمع أن يجني هذه الثمار: والتاريخ الثقافي حافل بأمثلة عن فرص التغيّرات المحتملة التي لم يجر استغلالها واستثمارها، ثم زالت وكأنها لم تكن. فلكي يتطوّر المجتمع، عليه أن يكون «متعطّشاً للمعرفة» و«متعطّشاً للعمل» في آن. أما العالم الإسلامي فقد حكم على نفسه بالعودة إلى الوراء والتخلّف برفضه كل تجديد وصدّه لكل جديد وانغلاقه في ماضيه انغلاقاً محكماً.

هذا الوضع المؤسف البائس لا يعيشه العالم الإسلامي وحده، بل تشاركه فيه مجتمعات تقليدية أخرى. وخير مثال على هذه المجتمعات الصين. لنأخذ مثلاً اختراعاً صينياً: السفينة الشراعية المعروفة باسم «لا جونغ La Jonque» التي كانت فائقة التطور في زمنها، والتي كانت بحد ذاتها دليلاً ساطعاً على أن الصينيين كانوا يمتلكون قبل الغربيين، بزمن طويل، إمكانيات تقنية تجعلهم قادرين على اكتشاف العالم. غير أن مجتمعهم التقليدي لم يكن مهيّئاً «ذهنياً»

١- المرجع نفسه.

لاستخدام هذه الإمكانيات[١]. كان الفكر الصيني ينظر إلى الماضي ويرى، مثله مثل العالم الإسلامي، أن الحاضر هو زمن أفول وانحدار. هذه النزعة المحافظة المتشدّدة كانت عائقاً في وجه الاندفاع العلمي الحقيقي، وذلك في وقت كانت فيه الصين قد عرفت اكتشافات كثيرة وقدراً كبيراً من المعارف. لقد حيّر ركود العلم الصيني وانحطاطه الكثير من الباحثين، وبخاصة فريقاً منهم كان يعمل تحت إشراف البروفسور نيدهام Nedham في الخمسينات[٢]. فريق الباحثين هذا كان يرى أنه ينبغي أن تؤخذ بعين الحسبان البنى السياسية علاوة على العوامل الثقافية أو الفكرية. فهو يقول في هذا الصدد: من الأهمية بمكان معرفة أن الطبقة البرجوازية الصينية لم تتمكن قط من كسر سيطرة البيروقراطية الصينية. خلافاً لذلك، تحالفت البرجوازية في أوروبا مع الملكية لإطاحة الإقطاع.

هذه الملاحظة عينها تنطبق على العالم الإسلامي، حيث بقيت برجوازية المدن ضعيفة أمام سيطرة علماء الدين واستبداد الحكّام، ولم تقو على الوقوف في وجههم. فقد ظلّت تلك البرجوازية مهدّدة على الدوام بسيف المصادرة يرفعه في وجهها الحكام المحليون، وبالدمار يلحقه بها الغزاة بين الفينة والفينة. بانتصار الأصولية تقلّص الفكر وانحصر «في المساجد وأوساط الفقهاء المدرسية الضيقة حيث كان كل من هؤلاء يدرّس مضامين المذهب الفقهي الذي

١- روبير بوشيه وكلير لوران، **الإنسان والابتكار** في الكتاب الجماعي **تاريخ الأخلاق والأعراف** (بالفرنسية):

Robert Bouchez et Claire Laurent, L'homme et l'invention, in Histoire des moeurs, tome III.

٢- راجع موسوعة جوزف نيدام **العلم والحضارة في الصين** (بالإنجليزية):

Science and civilisation in China, Encyclopédie dirigée par Joseph Needham.

ينتمي إليه معطِّلاً الأفكار الدينامية، متجاهِلاً المؤلفات القيّمة والحوارات البنّاءة والأبحاث المجدّدة»[١]. ولا تزال البرجوازية في العالم الإسلامي ضعيفة إلى اليوم. وأوضحُ مثال على ذلك هو عجز الطبقة المتوسطة العراقية عن خلع الدكتاتور صدام حسين والتخلّص من سياسته الهدّامة. على عكس ذلك، لم يقوَ شيء في الغرب على وقف موجات التجديد والإبداع المتلاحقة. حتى الفتاوى البابوية وضغوط السلطات الدينية المحلية لم تقوَ على كبح التقدّم!

من انصهار فكر أرسطو وابن رشد تخلّق في الغرب فكر وضعي ألّف بين «النقل» و«العقل»، وسرعان ما نما واشتدّ عوده. رفَض العالم الإسلامي هذا التوفيق وتجلّى رفضه بإحراق مؤلفات ابن رشد. بالمقابل، تغلغلت ذهنية المغامرة وحب المخاطرة في مستويات المجتمع الغربي جميعاً[٢]. ولا بدّ من الإشارة، في هذا السياق، إلى أن التطور تمّ من خلال المشاركة الشعبية في الحياة السياسية كما في الحياة الاقتصادية. لم تقتصر مادة التجارة الدولية على السلع الكمالية والمنتجات الفاخرة التي ترضي الطبقات العليا، بل اشتملت أيضاً على السلع الاستهلاكية التي تهمّ أوسع الجماهير. وفي الوقت نفسه ظهرت المؤسسات التمثيلية كالبرلمان في إنجلترا والجمعية العامة في فرنسا[٣].

ولئن كان لجميع بلدان العالم أن تأخذ عبرة من تجربة الغرب، التي تذكّرنا من بعض الوجوه بالازدهار الذي عرفه العالم الإسلامي في أول عهده (طيلة الأربعة قرون الأولى)، فتلك العبرة هي، ولا ريب، اعتبار حرية الفكر وحرية تداوله وحرية الحوار الفكري شرطاً أساسياً لتطوّر التجمعات وتقدّم العلوم والتقنيّات.

١- محمد أركون، مقابلة نشرتها مجلة: Proche-Orient et Tiers-monde، العدد السابع، حزيران-يونيو ١٩٨٣

٢- البروفسور ماك نيل، **صعود الغرب** (مرجع مذكور)

٣- المرجع نفسه.

هذه العبرة كانت اليونان القديمة تعرفها حق المعرفة وتأخذ بها في إطار الإمكانات التي كانت متوفرة لها في ذلك الزمن. وهذه العبرة بالذات هي التي أفسحت في المجال أمام ظهور العلم. فالعلم هو في واقع الأمر حصيلة اللقاء بين مساهمات بلاد ما بين النهرين ومصر (وهي مساهمات لم تكن صادرة عن ذهنية علمية، لكنها كانت ثرّة على أية حال بالمعارف من كل نوع) وبين المبادئ الناشئة عن الديمقراطية اليونانية[١].

هذه العبرة كان مسلمو القرون الأربعة الأولى يعرفونها أيضاً، لذا أشاعوا في البلدان التي وصل إليها الفتح مناخ الانفتاح والتسامح. وكان الخلفاء والسلاطين يحيطون العلماء والمفكرين بالرعاية والاحترام والتقدير والتشجيع.

باختصار، إذا نظرنا عن كثب إلى تاريخ العالم الإسلامي والغرب فسنصل إلى الاستنتاج عينه: لا يحدث التقدم إلا في مناخ من الحرية، وعلى أساس احترام الآراء المختلفة والبشر الذين تصدر عنهم.

١- أندريه بيشو، **ميلاد العلم** (بالفرنسية):

André Pichot, La naissance de la science, tome II, Paris, Gallimard, 1991.

الفصل الخامس

أتحديث أم لعنة

في العام ١٢٠٠ انحاز العالم الإسلامي نهائياً إلى التفسير الديني الأصولي، وأنكر معظم علمائه وفلاسفته. وبعد أكثر من مائة وخمسين عاماً من القلاقل السياسية والدينية راح العلماء وفقهاء الشرع في كلّ مكان يسهرون، بتشجيعٍ من أصحاب السلطة، على التطبيق الدقيق للشريعة، وعلى ضمان تطابق القرارات المدنية والقضائية تطابقاً تاماً مع الشرع. وكانوا يلاحقون بأقصى الشدّة «المبتدعين» و«الملحدين» وسائر «المرتدّين».

هكذا انغلق العالم الإسلامي على نفسه، بعدما كان في ما مضى منفتحاً على الحضارات الأخرى، وأدار ظهره لباقي الإنسانية. لم يدرك أن الأخطار كانت تتجمّع من حوله وتحتشد على حدوده؛ ففي أقاصي آسيا كان جنكيزخان يوحّد منغوليا ويشن هجماته الهمجيّة على الصين وعلى هضاب آسيا؛ وفي إسبانيا، الأقرب، كانت القوى المسيحية في قشتالة ونافار وأراغون، بعد هزيمتها في الأرك (١١٩٥)، تستعيد تحالفها بتحريض من البابا إينوشانسيوس الثالث Innocent III وتستقبل «الصليبيين» الأوروبيين.

«سبات» مضطرب

من الخارج، كان العالم الإسلامي يبدو غارقاً في النوم منذ قرون. وفيما بعد وصفه أندريه مالرو André Malraux بـ«نعاس الإسلام الذي لا يُقاوَم»، ثم وصفه عبد الله العروي[1]، بـ«الشتاء الطويل». والحقّ أن ما كان يحدث هو

١- أندريه مالرو: **مذكرات مضادّة** (بالفرنسية): .... ⇦

شيء آخر: توقّفُ التطوّر، «إغفالُ» التاريخ، «قطيعة» مع الماضي الحيوي... ومما يجعل الانغلاق دون العالم يحدث بهذه السهولة أن المسلمين كانوا يعتبرون أنفسهم «بمنتهى البساطة» أرقى من الشعوب الأخرى. أليسوا هم الذين استودعهم الله رسالته السماوية الأخيرة؟ أوَليس محمد هو آخر الأنبياء؟

كانت «عقدة» التفوّق هذه تتجلّى، بخاصة، في الخوف من المجازفة بالتنقل في بلاد «الكفار» إلا باللباس العسكري. منذ بداية الفتح (الجهاد المقدّس)، في القرن السابع، كان العالم يُقسَم إلى قسمين: «دار الإسلام» و«دار الحرب»! ولم يكن يجازف بالتجوّل في بلاد «الكفار»، في الشمال، إلا بعض التجار أو الموفدين الرسميين. وكان الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب، قد أمر ببناء مدن (أجناد) خاصة بالمسلمين، على مقربةٍ من المدن المفتوحة، خوفاً عليهم من «عدوى» المسيحيين! وتشهد مذكّرات رجل سوري، عاش في زمن الحروب الصليبية، على هذا «القرف» من غير المسلمين؛ فقد كتب في مذكراته أن جاره، وهو فارسٌ من فرسان الفرنجة، وكان يتهيّأ للعودة إلى دياره في مقاطعة أوڤرنيا Auvergne، طلب إليه أن يسمح لولده ذي الأربع عشرة سنة أن يرافقه في رحلته ليدرّبه هناك على فن الفروسية والقتال: «لم تصدّق أذناي ما تسمعان؛ إذ ما من عاقل ينطق بمثل هذا الكلام. لو كان ولدي وقع في الأسر، لما كان سيحدث له من سوء أكبر مما سيلحق به فيما لو ذهب إلى بلاد الفرنجة». وقد وجد الرجل لنفسه، في نهاية الأمر، تبريراً لائقاً لتفادي تلك الدعوة «غير المعقولة»، فردّ على صاحبها: «وحياتك، كان بودّي أن يذهب ولدي معك، لكن حب والدته له وحرصها عليه، يحولان دون قبولي هذه الدعوة؛ فهي لم تسمح له بمرافقتي إلا بعد أن أرغمتني على القسم بأن أعيده إليها»[١].

⇦ André Malraux, Antimémoires, Gallimard, Paris, 1967.

راجع أيضاً: عبد الله العروي: **أزمة المثقفين العرب** (بالفرنسية):

Abdallah Laroui, La crise des intellectuels arabes, Maspero, Paris, 1974.

١- أسامة بن منقذ. ذكره برنارد لويس، **كيف اكتشف المسلمون أوروبا؟** (مرجع مذكور)

غالباً ما كان الشعور بالتفوّق لدى المسلمين يُفسَّر بضعف الرغبة في التعرف على الأوروبيين. وفي مقابل ذلك، نجد روح المغامرة والفضول إلى المعرفة لدى ماركو بولو مثلاً، الذي دفعه حبُّ المغامرة المعرفية إلى السفر شرقاً (١٢٧١-١٢٩٥) في الحقبة نفسها التي استاء فيها صاحبنا السوري من دعوة جاره. وعلى أية حال، كان المسلمون مقتنعين بتفوقهم، ولم يكونوا ليتصوّروا أن «الكفار» قادرون على التطوّر والتقدّم، وعلى أن يصبحوا في مستواهم ذات يوم. كانت تحدوهم الرغبة في العيش «منفصلين» عنهم، على نحوٍ شبيهٍ بـ«الغيتو» في القرن الثالث عشر!

كانت الأصولية الصراطية رازحة بثقلها تخنق كل شيء، حتى أن الشعب لم تعد لديه أية همَّةٍ للجهاد والقتال؛ فانهزم المسلمون أمام المسيحيين في معركة «لاس نافاس دو تولوزا» Las Navas de Tolosa، التي عُرِفَت في التاريخ العربي بمعركة التلّ. كان أمير الموحّدين، الناصر، يقود بنفسه جيش المسلمين في تلك المعركة التي كانت كارثة لا مثيل لها، إذ لم ينجُ من هذه المجزرة الرهيبة سوى ألف جندي مسلم، من أصل ستين ألف مقاتل عربي وبربري كانوا قوام الجيش الإسلامي. التجأ الناصر إلى مراكش حيث وافته المنيّة بعد عامين. وبانهيار مملكته، انفتح الباب أمام الغزو المسيحي لاسترداد الأندلس.

استأنفت ممالك الشمال توسعها نحو الجنوب، باستثناء مملكة نافار Navarre التي لم تكن على تماسّ مع المسلمين، فعززت هويتها البيرينية، ثم شاءت ظروف وراثة الملك أن تنضوي تحت عرش الملك هوغ كابيه. ووحّد الملك فرديناند الثالث (١١٩٩-١٢٥٢) توحيداً نهائياً مملكتَيْ قشتالة وليون واستولى على قرطبة (١٢٣٦) وإشبيلية (١٢٤٨). واستولت أراغون على الباليار وڤالنسيا (١٢٣٨). ووصلت البرتغال إلى الشواطئ الجنوبية حتى بلغت مدخل مضيق جبل طارق (واستولت فيما بعد، على جزيرة سبتة في المغرب)؛ وباتت أربعة أخماس إسبانيا في أيدٍ مسيحية. ولم يعد للمسلمين من سلطة إلا على حوض غرناطة وشاطئ المتوسط، قانعين بإقطاعة قشتالة. وفي غرناطة، تسلّمت

العرش الأسرة الناصرية، وسيطر الحفصيون (الذين واجهوا حملة القديس لويس الصليبية) على تونس، واستقرّ عبد الوديد في تلمسان، وخلف بنو مرين الموحّدين في المغرب، وجعلوا فاس عاصمة لهم.

سقوط غرناطة

كانت إسبانيا في القرن الثالث عشر مقسّمة بين ثلاث ممالك مسيحية، هي قشتالة وأراغون والبرتغال. وكانت الملْكية تترسّخ في كل منها تبعاً لمدى قتالها المسلمين. وأدّت مقتضيات الحرب وضرورة زيادة عدد الولادات إلى تعزيز وضع الفلاحين وامتيازاتهم التي جعلتهم أحراراً نسبياً. منذ ذلك الوقت، دخلت بورجوازية المدن في المجالس التمثيلية («كورتيس» Cortes) التي كان الملوك يدعونها إلى الانعقاد بانتظام (ولا بدّ من الإشارة هنا إلى هذه المشاركة العامة في السلطة، وهي مشاركة كانت مفقودةً كليَّةً في المجتمعات الإسلامية حيث كان الاستبداد، خلافاً لذلك، يترسَّخ أكثر فأكثر، مما أتاح له البقاء والاستمرار إلى يومنا هذا).

أدّت حرب استرداد الأندلس إلى اعتماد سياسة جديدة في تملّك الأراضي؛ ففي جنوبي قشتالة (مقاطعة الأندلس) قُسّمت الأراضي التي انتزِعَت من المسلمين إلى إقطاعات كبيرة ذات مساحات شاسعة، سُمّيَت الواحدة منها «لاتيفونديا» latifundia، أي عِزبة، ووُزّعَت على النبلاء وقادة الجيش وضباطه الكبار. هكذا وُلِدَت أرستقراطية عقارية ناصبت الملوك العداء، ودخلت في صراع مرير معهم. أما في الشرق فقد اتخذت إعادة توزيع الأراضي شكلاً مختلفاً، هدفَ إلى خلق طبقة «متوسطة» من ملاك الأراضي في جوار الملاكين المسلمين الذين كان عددهم ما زال كبيراً في المنطقة. وفي المدن تعززت قوة البورجوازيات، فواصلت دعمها للملكية التي مضت في تنفيذ مشروع التوحيد وإقامة السلطة المركزية.

جرى استيعاب «الموزاراب» (أي الأسبان المسيحيين الذين كانوا يعيشون تحت سيطرة المسلمين) بسهولة ويُسر. أما المسلمون الذي باتوا الآن يعيشون تحت سلطة المسيحيين، فقد مُنِحوا، إلى أجلٍ مؤقت، وضعيّةً خاصة أتاحت لهم ممارسة شعائرهم الدينية لقاء دفع جزية (ضريبة إضافية). يا لسخرية القدر، كيف انقلبت الأمور: بعدما كان المسلمون يفرضون الجزية على غيرهم، تحوّلوا إلى أجانب داخل البلدان التي ولدوا فيها، أو مواطنين من الدرجة الثانية، يدفعون الجزية للآخرين!

في أواخر القرن الثالث عشر والنصف الأول من القرن التالي، بلغت إسبانيا الجديدة المسيحية أوجها في عهد الملك ألفونس العاشر Alphonse X (١٢٦٢-١٢٨٤) الملقب بـ«العاقل». ذلك أن التسامح الذي شاع في ذلك الوقت أتاح تفتُّحَ الثقافات المختلفة التي كانت تتجاور وتتداخل. ففي جامعة «مرسية» Murcie مثلاً، كان العلماء، مسلمين ومسيحيين ويهوداً، يدرّسون علومهم باللاتينية والعربية! وكانت البلاطات الملكية تشجّع العلوم وتُجزِل العطاء للعلماء، أمسلمين كانوا أم يهوداً.

بيد أن الصراعات الخلافية على العروش، وطموح الأرستقراطيين إلى «الاستقلال» عن الملوك، ومطالب الطبقات الاجتماعية الأخرى، خلقت حالةً من الفوضى الشاملة، عمّت الممالك المسيحية قاطبةً. فتباطأت حروب الاسترداد، إلى أن توقفت تماماً في نهاية القرن الثالث عشر. ومع أن سلطنة غرناطة لم تكن لتشكّل خطراً على المسيحيين، فإن السلالة البربرية الجديدة التي حكمت فاس (بني مرين) شنّت عليهم هجمات عدّة، وانتزعت منهم مدناً على شاطئ المتوسط، كجبل طارق ومدينة طريفة مثلاً. فاستأنف المسيحيون القتال، لكنهم كانوا أيضاً، كلّما ألحقوا هزيمةً جديدةً بـ«الكفار»، يعودون إلى الاقتتال فيما بينهم والتنازع على السلطة. إضافة إلى هذا فإن الانتفاضات الإقطاعية تكاثرت في عهد ألفونس العاشر؛ وبعد موته، العام ١٢٨٤، تنازع أبناؤه العرش، فعَمَد

أحدهم إلى خطب ودّ المرينيين المغاربة وتحالف معهم. واستمرت النزاعات على وراثة العرش حتى نهاية القرن الرابع عشر.

في أراغون، كذلك، أثار ملاك الأراضي النبلاء المتاعب في وجه الملوك. لكن هؤلاء تمكنوا في نهاية المطاف من فرض سلطتهم بفضل المساعدة التي قدمتها لهم البورجوازية، فأغدقوا عليها، مقابل ذلك، الكثير من الامتيازات، وبخاصة زيادة تمثيلها في مجالس الكورتيس. أما في البرتغال، حيث ساد الازدهار بفضل النشاط الاقتصادي المتزايد والنهضة البحرية السريعة، فقد حاول البورجوازيون أن يلعبوا دوراً قيادياً أكدته الثورة التي وقعت بين عامَيْ ١٣٨٣ و١٣٨٥. ولمواجهة غزو القشتاليين، استعانت البورجوازية بالمرتزقة الإنجليز؛ فكان أن مُنِيَ جيش قشتالة بهزيمة نكراء في «ألجوبارّوتا» Aljubarrota، العام ١٣٨٥، اعترف الملك على إثرها باستقلال البرتغال.

في إسبانيا، تميّز القرن الرابع عشر بالحروب الداخلية، والتمردات الإقطاعية وانتفاضات المدن، مما أتاح الراحة والاستقرار لإمارة المسلمين في غرناطة. في القرن الخامس عشر بدأت الأوضاع تتبدّل تدريجاً. فقد واصلت البرتغال تطوّرها المستقلّ، وانطلقت في مغامرتها البحرية الواسعة التي بلغت أقصى مداها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر. كما واصلت أراغون سياسة الهيمنة في إيطاليا، بعدما احتلّت صقلّية وسردينيا. غير أن الصراعات الخلافية على وراثة العرش عادت من جديد بعد وفاة ملكها مارتين الأول؛ فقد تنازع على العرش، فرديناند ابن أخيه، أمير قشتالة، وابن عمّه أمير «أورجل» Urgel. وفي النهاية، انحاز مجلس الكورتيس إلى فرديناند الذي شرع بتنفيذ مشروع توحيد قشتالة وأراغون.

كانت الفوضى تنهش قشتالة، لكنها كانت تتقدّم، وإن ببطء، على الصعيد الاقتصادي والتجاري، فتفتح نوافذ لها على الأطلسي من جهة، وعلى المتوسط من جهة أخرى. وكانت البرتغال تُدير ظهرها أكثر فأكثر لشبه الجزيرة

الإيبيرية، وتنفق جلّ جهودها في مشاريعها البحرية. أما أراغون، التي اصطدم نشاطها التجاري عبر المتوسط بصعود الأتراك وانتشار القرصنة البحرية، فقد قرّرت الانخراط في الصراعات الأسبانية. وعندما اعتلى يوحنا الثاني Jean II العرش، التزم التهدئة في التعامل مع قشتالة، كما عمل على تهدئة الصراعات داخل مملكته. كذلك سعى إلى توحيد المملكة الأسبانية، ونجح في عقد قران ولده فرديناند على إيزابيلا ولية العهد في قشتالة. وبعد سلسلة من المناورات والمناوشات، تمكّنت إيزابيلا من وراثة عرش أبيها. وعندما صار زوجها فرديناند ملكاً على أراغون، العام ١٤٧٩، باتت المملكتان عملياً مملكة واحدة. وتوحّد القتال ضد «الكفار»، فسقطت غرناطة باستسلامها في العام ١٤٩٢.

تذكر أخبار التاريخ أن آخر ملك من ملوكها، أبا عبد الله، التفت وراءه وهو في طريقه للخروج من غرناطة، وألقى نظرة وداع على قصره، الحمراء، وأجهش بالبكاء. فنهرته والدته التي كانت في هودجها قريباً منه، قائلةً له: «هكذا، إذاً، تبكي كالنساء، لأنك لم تستطع الدفاع عن ملكك كالرجال!». ويؤرّخ الأسبان لتلك الحقبة تحت عنوان: «المور (أي المسلمون العرب) يلفظون أنفاسهم الأخيرة» (El ultimo suspiro del Moro).

أدّى التماهي بين المشاعر الوطنية والقومية وبين الإيمان المسيحي والأصولية الكاثوليكية في تلك الحقبة إلى تراجع، بل إلى انقلاب في سياسة الانفتاح والتسامح مع العقائد الأخرى، كما مورِسَت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. فقد عمدت الدولة، إزاء قلق رجال الكهنوت المسيحي من كثرة المسلمين المتوطّنين، وإزاء سخط العامّة على الأثرياء وأصحاب البنوك اليهود واستيائهم من سطوة هؤلاء على المسؤولين في الدولة، عمدت إلى التشدّد في مواقفها. فبدأت عندئذٍ موجة معاداة اليهود التي اتسعت، فيما بعد، لتشمل المسلمين، برغم الأحكام التي نصّت عليها معاهدة «استسلام غرناطة». فتشكّلت محاكم التفتيش لمحاكمة «المشبوهين» من الذين اعتنقوا المسيحية (تماماً كما

فعل المسلمون الأصوليون، عندما عمدوا في أواخر القرن الثالث عشر إلى اختبار مدى صدق اليهود وإخلاصهم في اعتناق الإسلام). وهكذا انتصرت الأصولية المتشددة في إسبانيا، في أواخر القرن الخامس عشر، في الوقت الذي كان فيه كريستوف كولومبوس، الذي دخل في خدمة الملكة إيزابيلا، ينطلق في رحلته البحرية الاستكشافية. فالتجأ معظم المسلمين، بعد طردهم، إلى بلاد المغرب، في حين دخل بعضهم الآخر في الدين المسيحي.

وسط العالم الإسلامي وشرقه

كانت الدولة الأيوبية، التي أسسها السلطان صلاح الدين الأيوبي في قلب العالم الإسلامي، آخذةً بالانهيار مع اغتيال آخر خلفائه على يد المرتزقة المماليك الذين كان قد اشتراهم واستعان بهم؛ وقد جرى الاغتيال في المكان نفسه الذي وقع فيه القدّيس لويس في الأسر (١٢٥٠). وقد اتخذ المماليك من القاهرة عاصمة لسلالتهم التي ستملك على مصر وسوريا وقسم من شبه الجزيرة العربية، إلى أن سيقضي عليهم العثمانيون العام ١٥١٧.

في الشرق كان هولاكو، حفيد جنكيزخان، يحتلّ آسيا الوسطى وبلاد فارس. وقد أبى الخليفة العباسي المستعصم، مساعدة المغول في حصارهم قلعة الحشاشين، «ألَموت». لكن هولاكو تمكّن من الاستيلاء على القلعة، وانطلق إلى بغداد. وقد حذره معاونوه المسلمون من قتل الخليفة العباسي: «إذا قُتِل أمير المؤمنين، فستنكسف الشمس ويحتجب نورها، وييبس الزرع والضرع، ويختلّ توازن الكون». إلا أن المغولي لم يُلق بالاً لهذا التحذير، ولم يسمع إلا ما كان يقوله له المنجّمون المغول. فسحقَ بغداد ومحقها وذبح أهلها وقتل الخليفة وحاشيته عن بكرة أبيها، العام ١٢٨٣[1]. لكن المماليك تمكّنوا من وقف زحفه عند حدود سوريا.

١- فيليب حتّي (مرجع مذكور).

كما سبق القول، كان العالم الإسلامي يغطّ في سبات مضطربٍ، تهزّه سلسلة من الكوابيس! فالمسلمون كانوا يعيشون في غفلة تامّة عمّا كان يحدث لدى الآخرين من تطوّر وتقدّم، ولم يستفيقوا من هذه الغفلة إلا في العصر الحديث، وسط عالم أصابه تغيّرٌ شامل، ونهض فيه «الكفار» عمالقةً لا يهزمهم أحد. وبالفعل، بين القرن الثاني عشر والقرن الرابع عشر، انعكس مسار التاريخ لصالح الغرب! بيد أننا قبل الكلام عن «الاستفاقة» الفجائية للعالم الإسلامي، علينا أن نُلقي نظرةً على آخر اختلاجاته.

صعود العثمانيين

في السنوات الأخيرة من العهد المغولي وقعت حركةُ تمرّدٍ قام بها الإقطاعيون الأتراك؛ فقد زعم أحد أبنائهم، تيمور الأعرج (أو تيمورلنك بالفارسية)، أنه من حفَدَة جنكيزخان، وفرض سلطته على ما وراء النهر (١٣٩٣) ثم اجتاح فارس وما بين النهرين. ومع أنه كان مسلماً، إلا أنه لم يسلم من بطشه إخوانه في الدين. تقول وقائع التاريخ إن جحافله «زحفت كجيوش النمل وأسراب الجراد على بغداد، لتنهب وتدمّر كل شيء في طريقها»[1]. ثم تابع زحفه إلى الهند وسوريا. وكان حيثما يمرّ، يقتل ويدمّر المدن «كأسوأ عدوّ عرفه الإسلام». وفي مطلع القرن الخامس عشر هزم العثمانيين في الأناضول، وأسرَ سلطانهم بايزيد Bajazet. وخلّف تيمورلنك وراءه، عند موته العام ١٤٠٥، إمبراطورية مدمَّرة بيديه، يعمّها الخراب، إلى أن اندثرت في مطلع القرن السادس عشر.

لجهة الشرق، اصطدمت الإمبراطورية المغولية في الهند بتمرّد الهندوس

١- ورد ذكره في كتاب رينيه غروسّيه، **إمبراطورية السهوب** (بالفرنسية):

René Gresset, L'empire des steppes, Payot, 1989.

منذ القرن الرابع عشر. ولم يختلّ التوازن الذي استقرّ بين الهندوس والمسلمين إلا في القرن الخامس عشر، على إثر إنشاء مملكة في الشمال عُرفت باسم منغوليا، أسسها أحفاد تيمورلنك.

بيد أن الإسلام كان في تلك الأثناء ينتشر سلمياً في أفريقيا (في مملكة غاو التي كانت تضمّ مالي وغينيا) وفي جنوب شرق آسيا (اندونيسيا وبالي).

في الغرب، ومنذ مطلع القرن الثاني عشر، ولاسيّما بعد سقوط الإمبراطورية السلجوقية، توزّعت آسيا الوسطى بين عدد من السلالات التركية التي تقاسمتها. وكان في عدادها سلالة العثمانيين (نسبة إلى عثمان، أوّل سلاطينهم) التي أفلحت في بسط سلطانها على الأمراء والملوك الصغار من حولها، ثم انطلقت تغزو المناطق الأوروبية (بلغاريا، صربيا، مقدونيا، تراقيا وروميليا). غير أن وقوع سلطانهم بايزيد في قبضة تيمورلنك أوقف زحفهم بعض الوقت. لكنهم سرعان ما واصلوا هذا الزحف، فتقدّموا نحو القسطنطينية واستولوا عليها، العام ١٤٥٣، وأزالوا الإمبراطورية البيزنطية. وحاول العثمانيون، في طريقهم إلى أوروبا، أن يغزوا فارس، ولكنهم لم يُفلِحوا في ذلك، حيث استولت الأسرة الصفوية (وهي أسرةٌ إيرانية خالصة) على الحكم، وأعلنت التشيّع مذهباً ديناً رسمياً للدولة، وألغت التسنّن الذي كان مذهب السلاجقة.

في مصر، هزم العثمانيون المماليك ومدّوا سلطانهم إلى شبه الجزيرة العربية وأماكنها المقدّسة، ثم إلى أفريقيا الشمالية. وباستثناء المغرب وإيران، فإن الإمبراطورية العثمانية غطّت كامل الخلافة الإسلامية التي كان بناها العرب وحكموها. لذا، ورث العثمانيون منصب الخلافة، وغدا سلطان اسطنبول أمير المؤمنين. وقد بلغت الإمبراطورية العثمانية أوجَ مجدها في عهد السلطان سليمان الأول، الملقَّب بالقانوني (١٥٢٠-١٥٦٦)، الذي أضاف إلى تاجه جزيرة رودس والمجر. في أواسط القرن الخامس عشر كانت اسطنبول قد صارت قوة عظمى، أوروبية وشرقية في آن معاً. وكان النظام العثماني، القائم على حكمٍ

مركزي واستبدادي، على قدْرٍ من المرونة والتسامح بحيث استطاع أن يجمع ذلك الخليط الهائل من الشعوب المتنوّعة والثقافات المتعددة التي كانت السلطنة تضمّها جميعاً. لكن فسيفساء القوميات والشعوب والأمم هذه كانت تنطوي على بذور تفسّخ يهدد مستقبل السلطنة، بحيث قال أحد المؤرخين إن تاريخ السلطنة بعد سليمان الأول «كان أشبه بانتحار بطيء»(١).

لم يُرافق القوة العسكرية والفتوحات العثمانية أي تفتّحٍ فكري، خلافاً للفتوحات العربية الإسلامية في القرون الأولى من تاريخ الإسلام. فالأتراك لم يتميّزوا إلا بالرعب الذي كانوا يزرعونه. وقد رسم المؤرخ رينيه غروسّيه حصيلة سلبيةً إجمالا للحكم العثماني الذي دام زمناً طويلاً: «... توقف (في عهدهم) كل تقدّم فكري وعلمي، وجمد كل تفكير حرّ... ولم يكن للمؤسسات السياسية أن تنهض على أرضية الحكم الاستبدادي المطلق...»(٢). ومنذ أن دمّرت البحرية النمساوية الأسطول التركي في مضيق ليبانت Lépante (اليونان) لم تعد السلطنة قادرةً على استعادة حيويتها السابقة. ولم تسفر بعض الانتصارات العسكرية البسيطة، التي حققتها فيما بعد، عن أي تقدّم يُذكَر. وفي العام ١٦٨٣ مُنِيَتْ مرةً أخرى، على يد النمساويين، بهزيمة ساحقة على أبواب ڤيينا.

في أواخر القرن السابع عشر، كان العالم الإسلامي يبدو، على الأقل في القسم الواقع منه تحت الحكم العثماني، في صورة إمبراطورية قيد التفتت. فقد فَقَدَ العرب الأقحاح تفوّقهم السياسي إلى الأبد، وفقدت اللغة العربية هيمنتها الواسعة. وبالأصل كان سلاطين السلاجقة لا يتخاطبون مع الخليفة العباسي في

١- ذكره غاستون ڤييت، في **التاريخ الكوني** (بالفرنسية):

Gaston Wiet, in Histoire universelle, Bibliothèque de la pléiade, tome III, Gallimard, Paris, 1958.

٢- المرجع نفسه.

بغداد، إلا عبر المترجمين. وفي عهد آل عثمان بات أمير المؤمنين لا يتكلّم ولا يفهم لغة القرآن! وحلّت اللغة التركية محلّ العربية لغةً رسميةً في الإدارات والأعمال التجارية.

على أن الدين ظلّ يشكّل لحمةً متينةً بما يكفي لكي يشعر الناس بالخزي والعار إزاء الانتصارات التي يحققها «الكفّار» على الجيش العثماني. فحتى القرن الثامن عشر، كانت الانتصارات الإسلامية على الصليبيين، والغزوات العثمانية المتلاحقة لأوروبا، كافيةً لتعويض خسارة الأندلس. ثم إن إعادة بناء الخلافة في اسطنبول، ولو على غير يد العرب، أعادت إلى المسلمين الثقة بالغد، وعززت لديهم الشعور بالتفوّق.

صدمة عنيفة

كانت الهزائم التي مُنِيَ بها العثمانيون في القرن السابع عشر، في النمسا والمجر، بمثابة صدمة حقيقية؛ لكن لم يشعر بها سوى أوساط المراتب العليا من الحكم والقيادات العسكرية. ففي غياب طبقة مثقفة وانعدام شبكة إعلامية، بقيت العامة من الناس لا تدري بما يحدث في الغرب، وغير مبالية به. وبين الموظفين الكبار كان هناك من يستسلمون للقدر ويعزون الأمر إلى مشيئة الله، وينحون باللائمة على الأغنياء ويتّهمونهم بالاستهتار الديني. غير أن آخرين، ولاسيّما ذوي المناصب القيادية في الجيش، كانوا يتساءلون بجدّ عن أسباب هذه الهزائم. فكان الوزير الأكبر وضباط أركان الجيش يعيدون انتصار «الكفار» إلى خططهم التكتيكية وأساليب التدريب التي يتبعونها. وبعد جدل وتردد طويلين، وافق السلطان على الاستعانة بـ«مستشارين» أوروبيين. وهكذا وصل إلى اسطنبول في النصف الأول من القرن الثامن عشر المدعو الكونت دو بونيڤال le comte de Bonnival بغيةَ تدريب ضباط الجيش. وما لبث أن غدا قائد المدفعية السلطانية، بعدما اعتنق الإسلام وفاز بلقب باشا.

في العام ١٧٢٠ أرسل الوزير الأكبر إلى أوروبا أحد موظّفيه، ويُدعى محمد أفندي، لكي يدرس «دراسة معمّقة أساليب التربية والتمدين» التي يمارسها الغربيون. وقد تمّ استقباله بحفاوة، في بلاط الملك لويس الخامس عشر، بوصفه ضابطاً رفيعاً في جيش الإنكشارية العثماني، وسفيراً سابقاً في ڤيينا، ومديراً لمالية السلطنة. وقد تنقّل في جميع أرجاء فرنسا. وتذكر الأخبار أن الناس كانت تتزاحم وتتدافع من أجل مشاهدته، وأن بعضهم سقط في الماء وآخرين لقوا حتفهم بسبب وحشية تعامل الحراس معهم. ولشدّ ما كان إعجاب محمد أفندي بحشرية الباريسيين وروح الفضول لديهم، كما تشهد مذكرات رحلته هذه: «لم يكن البرد ولا المطر ليمنعهم من الانتظار حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، في فِناء الدار التي أسكنها». وعلى الرغم من أنه تحاشى أن يذكر في تقريره مقارنات مُهينة لوطنه (لا يمكن للمسلم أن يسلّم بأن بلاده أدنى قدراً)، فغالباً ما يرِد في تقريره كلامٌ ينمّ عن الإحساس بالصدمة، جرّاء ما شاهده من تقدّم الغرب[١].

كانت الاتصالات والاحتكاكات الدبلوماسية والتجارية، على قلّتها، كافيةً لحمل النخب المسلمة على تجاوز «القرف» من «الكفار»، وعلى الاستعلام عمّا يجري في بلادهم. ومع ذلك، بقي صعود الغرب، في نظر المسلمين، شذوذاً تاريخياً، لا بدّ من إصلاحه ذات يوم. ولا يفكّر الإسلاميون الأصوليون اليوم إلا في ذلك!

١- **فردوس الكفّار** (بالفرنسية): Le Paradis des infidèles, Paris, 1981. والجدير بالذكر أن سان سيمون يشير في مذكّراته إلى رحلة محمد أفندي.

والغرب، بدوره...

كانت عجلة التاريخ تدور: أوقف «الكفار» التقدم العثماني في أوروبا الوسطى، واستعادوا قسماً من المناطق التي خسروها. وفي القرن التاسع عشر انتقل الشعور بالتفوّق إلى الأوروبيين بدورهم، فشنوا هم أيضا حملتهم التوسعية، مستفيدين من تخلّف البلدان الإسلامية لتحقيق نجاحهم في ذلك. إذّاك، بدأت مظاهر التقدّم الكبير الذي أنجزه الغرب تتجلّى بوضوح تام لعيون المسلمين، وعلى الصعد كافة، في العاصمة اسطنبول كما في المناطق الأخرى من السلطنة.

أخذت بجماع العالم الإسلامي هزّة قوية طاولت أعماقه. واستولت على الناسَ دهشةٌ دفعتهم إلى التساؤل: كيف حدث أن جوَّز الله لـ«الكفار» التغلّب والتفوق على المسلمين؟ ومن يحمل وزر انقلاب القدر على هذا النحو؟ وكيف يمكن أن نستعيد التفوّق والغلَبَة؟ هذه الأسئلة ما زالت تراود أذهان المسلمين إلى يومنا هذا!

أخذ بونابرت المسلمين على حين غرّة، بوصوله إلى برّ مصر، العام ١٧٩٨. تلك كانت هي المرة الأولى التي يعود فيها مسيحيو الغرب منذ الحروب الصليبية. لكنهم هذه المرة لم يحملوا دينهم فحسب، بل حملوا معهم أيضاً أفكاراً انقلابية في مسائل الحرية وحقوق الإنسان.

كان عنف الصدمة من شأنه أن يولّد إحساساً بـ«اليقظة»؛ ولكن كما في روايات الخيال العلمي، فتح النُوَّمُ عيونَهم فجأة على عالم مختلفٍ تماماً. والحقّ أن الإسلام، بوصفه ديناً، لم يغفُ قط لحظة؛ فهو لم يستمرّ في إشعاعه الجذاب فحسب، بل واصل أيضاً انتشاره في مناطق أخرى من العالم. ما حدث كان بالأحرى نوعاً من الوعي؛ فالعالم الإسلامي، الذي ظل مجمّداً طوال قرون، قاس دفعةً واحدة مدى التقدّم الذي حصل خلال تلك الفترة الطويلة! وولّدت

الصدمة التي تلقّاها ردود فعل متباينة: النزعة الإصلاحية، القومية، الوحدة الإسلامية، الوحدة العربية، الإرهاب، احتجاز الرهائن، الحرب ضدّ المحتل (مثلاً: الأمير عبد القادر في الجزائر ضدّ الاحتلال الفرنسي، شاهنشاهات إيران ضدّ القياصرة الروس، العرب ضد إسرائيل، ...الخ)، الأصوليات الموصوفة بأنها «ثورية» (الإخوان المسلمين في مصر، حزب الله في لبنان، الثورة الخمينية في إيران، الإسلاميون في الجزائر وفي تونس، ...الخ).

باختصار، ردّ المسلمون على تحدّيات الغرب بأفعال تراوحت بين حدّين: التحديث والانفتاح على الغرب، من جهة، والرفض التام لأي إصلاح والانطواء على الذات، من جهة أخرى.

محمد علي باشا الذي كان خديوي مصر في العهد العثماني، هو خير مثال على الحدّ الأول. فقد اختار، منذ بداية القرن التاسع عشر، طريقَ التحديث السريع والقسري، بعدما أدرك تخلّف بلاده، برغم إحرازه نصراً على بونابرت. فأنشأ في القاهرة كليّةً للطب، ومعهداً للهندسة، واستقدم أساتذة أوروبيين، وأوفد طلاباً للدراسة في إنجلترا وفرنسا والنمسا. إلا أن ورَثَته من بعده استكانوا أمام غضب الفقهاء من هذه البدع الجديدة، فأغلقوا المنشآت التعليمية التي أسسها، وطردوا الأساتذة والمستشارين الأجانب (أودّ أن أذكر في هذا السياق بطلان الزعم بأن «الإسلام لا وجود فيه لرجال الدين»: إن الفقهاء السنة وآيات الله الشيعة يمارسون حتى على ذوي المناصب العليا في الحكم ضغطاً لا يُخفى. وتكون لهم في نهاية المطاف الكلمة العليا، وهو شيء ما كان إلا ليحسدهم عليه رجال الإكليروس المسيحي أنفسهم!).

أما الحدّ الثاني فالمثل عليه هو مغامرات «المهدي» السوداني، و«ماد ملا» الصومالي، أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ففي العام ١٨٨١، عمد شيخ سوداني يُدعى محمد أحمد عبد الله، إلى إعلان نفسه «مهدياً»، أي ذلك المبعوث من عند الله، الذي «سيملأ الأرض عدلاً، بعدما مُلِئت جوراً» كما ورد

في حديث نبويّ. ثم ما لبث أنصار هذا «المهدي» أن انتفضوا بإيعاز منه، في وجه قوات الاحتلال الإنجليزي-المصري، واستولوا على العاصمة، الخرطوم، لمدة أكثر من عشر سنوات. وبعد موت «المهدي»، استعاد الإنجليز المدينة وحطّموا حركة المقاومة الأصولية.

أما «الماد ملا» الصومالي الذي يُدعى محمد عبد الله حسن والمولود العام ١٨٦٠، فقد تعلّم في مدرسة قرآنية وعمل فترةً من الزمن مع القوات الإنجليزية. في العام ١٨٩٥ حجّ إلى بيت الله في مكة، وعند عودته من الحجّ أسّس حركةً هدفها تطبيق الشريعة تطبيقاً صارماً. وفي العام ١٨٩٩ كشف أمام أنصاره أنه «المهديّ» المنتظَر، وأعلن الجهاد ضدّ «الكفّار». وطوال عشرين سنة ظلّ يقاوم الإنجليز الذين تمكّنوا في النهاية، من إلحاق الهزيمة به العام ١٩٢٠. ثم توفي بعد ذلك بزمن قصير.

ردود الفعل الفكرية

بين هذين الحدّين النقيضين ثمة عدد من الحركات التي كان وراءها مفكّرون وكتّاب، وبخاصة في العالم العربي. فمنذ أوائل القرن التاسع عشر طفق المفكرون المسلمون يتحركون. فأنتجت أفكارهم وكتاباتهم حركات تمحورت حول أشكال الإصلاح المختلفة. وسُمِّيَتْ هذه الحركات بـ«النهضة»، من دون أن تعني هذه الكلمة ولادة «نزعة إنسانية» جديدة، بل مجرّد «تجديد» سياسي وثقافي. وُلِدت هذه الحركة في المناطق العثمانية الناطقة باللغة العربية، وبخاصة في مصر في عهد محمد علي الذي اجتذبت إصلاحاته وتسامحه النسبي الكثير من المفكرين والكتّاب من البلدان المجاورة. وانتهت «النهضة» حوالي منتصف القرن العشرين[1]، بعدما تميّزت بغزارة النتاج الأدبي، الشعري

١- جورج قرم، **أوروبا والشرق** (بالفرنسية):
Georges Corm, L'Europe et l'Orient, La Découverte, Paris, 1989.

والسياسي والأخلاقي، الذي كان يطمح إلى «تحديث» اللغة العربية وإجراء إصلاحات في التشريع وفي الفكر الديني المتجمّد منذ قرون[١].

انتقل إلى أوروبا عددٌ من هؤلاء المفكرين والكتّاب، ليشاهدوا عن كثب تلك «الحداثة» التي أتاحت لـ«الكفار» أن يتقدموا إلى هذا الحدّ. في عداد هؤلاء المفكرين لا بدّ أن نذكر فارسياً واسع العلم في الفقه، يُلقَّب بـ«الأسعد آبادي» نسبة إلى موضع ولادته، لكنه يُعرَف بالعربية باسم جمال الدين الأفغاني. والسبب الذي حمله على تغيير اسمه يقتضي أن يستوقف انتباه القارئ للحظة: كان على هذا الإيراني الشيعي، لكي يصل إلى الغرب، أن يمرّ أولاً في عددٍ من البلدان التي تدين بالمذهب السني. فاستحسن أن يلزم جانب الحذر وأن يُطلِق على نفسه اسم الأفغاني، أي أن ينتسب إلى أفغانستان، ومعظم أهلها من السنة. وواقع الأمر أن السنة، وهم أكثرية في العالم الإسلامي، يرون أن الشيعة هم من أصحاب البِدَع، وقد ظلوا حتى الحرب العالمية الأولى، تقريباً، يعتبرون التشيّع ضلالةً وبدعة. وتكثر في التاريخ الإسلامي المجازر التي ارتُكِبَت بحقّ الشيعة. وبعد أن مرّ في سوريا ومصر وتركيا، وصل إلى باريس حيث التقى المؤرّخ الفرنسي أرنست رينان الذي كان يرى أن تخلّف البلدان الإسلامية ناجمٌ عن «تعارض» الإسلام مع الفكر العلمي. بعد هذا اللقاء مع الأفغاني، عقد رينان ندوةً في جامعة السوربون ندّد فيها بالإسلام: «كما يُقرَن الثور إلى المحراث، هكذا يُقرَنُ المسلم إلى العقيدة التي هو عبد لها، فيتعيّن عليه أن يسير في الثلم الذي شقّه له المفسرون والفقهاء سلفاً، مقتنعاً، فوق ذلك كلّه، بأن الدين يحتوي على العلم كلّه وعلى الأخلاق كلّها... فبماذا سينتفع من البحث عن الحقيقة، وهو المقتنع بأنه يمتلكها كاملةً؟»[٢]. وقد أقرَّ الأفغاني، في مناظرته مع رينان، بواقعة التخلّف الإسلامي، لكنه عزاه إلى «تخلّي» المسلمين عن العلم. ودعا إلى نظرة جديدة إلى الدين تستوحي المصادر القرآنية بالذات.

١- المرجع نفسه.

2- Journal des Débats, 18 mai 1883.

وفي باريس تعرّف إلى طالب مصري ما لبث أن أصبح تلميذه، وهو محمد عبده الذي، كان هو الآخر، يرى ضرورة إدخال إصلاحات وتصحيحات: «إن الإسلام يعتبر الإنسان الضيّق الأفق، والذي يتّبع السلف على نحو أعمى، جاهلاً»[١]. ولكن على الرغم من هذه القناعة، بقي هذان الصديقان محافظين؛ فقد كانا على يقين من أن «مصائب» العالم الإسلامي ناجمة، في المقام الأول، عن «تخلّي» بعض الأطراف عن تعاليم القرآن. وقد رفضا كلاهما نقل النظام الديموقراطي العربي إلى ديار الإسلام. وكانا يميلان إلى تسليم الحكم إلى «عادل مستبدّ» قادر على إجراء الإصلاحات الضرورية بالقوّة. كانا أسيرَيْ تراثهما، فكانا يفصلان بين التطوّر العلمي والتقني في أوروبا، وبين الأفكار التي جعلت مثل هذا التطوّر ممكناً. ولم يُدركا أن المستبدّ، تحديداً، لا يمكن له أن يكون «عادلاً»[٢].

من النظرية إلى الممارسة

في الآونة نفسها برز مفكّر سوري يُدعى عبد الرحمن الكواكبي، انتقد الاستبداد العثماني بشدّة؛ وقال بكلّ صراحة وشجاعة، متحديا رقابة السلطان، إنه يستحيل أن يكون تقدمٌ وازدهار من دون حرية الناس[٣]. ثمة مفكّرٌ آخر، هو

١- **رسالة التوحيد**، القاهرة، ١٨٩٧.

٢- من المفيد، في هذا السياق، الاطّلاع على آراء يونغ (C.G.Jung) في رسالة إلى شاب أميركي من كنساس (بالانجليزية)، نُشِرَت في صحيفة نيويورك تايمز، ٣ كانون الثاني- يناير ١٩٩٢.

٣- نذكر، بالإضافة إلى الكواكبي، أسماء أخرى، في مقدّمتها القاضي الشرعي علي عبد الرازق الذي أوضح، منذ العام ١٩٢٤، في كتابه **الإسلام وأصول الحكم**، أن الخلط مع الحكم الزمني ليس سوى تأويل تكوّن خلال قرون على يد الأنظمة المتعاقبة التي حكمت باسم الإسلام. أُحرِق كتابه في الساحات العامة، وصار اليوم نسياً منسيّاً، بعدما «سُدَّت⇦

أحمد أمين، حاول أن يُعيد الحياة إلى فكر المعتزلة الذي مَثّل في العصور الإسلامية الأولى اتجاهاً في التفسير يُفسِح للعقل مكاناً واسعاً فيه، ويدحض عقيدة «القرآن غير المخلوق» (هذه العقيدة التي تضع القرآن خارج الزمان والمكان، كما رأينا، وتُلغي كل إمكانٍ لإعادة النظر في تفسير القرآن)(١). إن كتابات معظم هؤلاء المفكرين «الإصلاحيين» وأفكارهم هي اليوم ممنوعة، أو بكل بساطة، منسيّة. ومؤخّراً، منعت الحكومة المصرية، بضغطٍ من الفقهاء والعلماء، عرضاً متلفزاً يروي حياة محمد عبده بمناسبة ذكراه المئوية الأولى.

⇦ آفاق الثقافة العربية، بكتابات الإخوان المسلمين المدعومين بأموال النفط السعودي»، على حدّ قول جورج قرم (كتابه المذكور آنفاً). ثمةَ مصريون آخرون كالطهطاوي الذي أشاد منذ العام ١٨٢٠ بمحاسن النظام التمثيلي البرلماني، وأحمد أمين الذي أعاد كتابة تاريخ الاتجاهات المختلفة في عصر الحضارة الإسلامية الذهبي، ومصطفى صادق الرافعي، وإبراهيم حداد، وخال محمد خالد، والشيخ محمد شلتوت الذي أدخل تعليم الطب والفيزياء واللغات الحديثة إلى جامعة الأزهر المصرية الإسلامية العام ١٩٦٤، ...الخ.

حول الفكر العربي المعاصر، راجع: ماجد خدوري: **الاتجاهات السياسية في العالم العربي** (بالإنجليزية):

Majid Khadduri, Political Trends in the Arab World, New York, 1976.

راجع أيضاً: **نهضة العالم العربي** (مرجع مذكور)، ولاسيّما مقالة أ. بلال، ومقالة ف. السمير.

راجع أيضاً: عبد الله العروي: **الإيديولوجيا العربية المعاصرة** (بالفرنسية):

L'Idéologie arabe contemporaine, Maspero, Paris, 1983.

و**أزمة المثقفين العرب** (مرجع مذكور)،

راجع أيضاً: جورج قرم: **انفجار الشرق الأوسط**، (بالفرنسية):

Le Proche-Orient éclaté, La Découverte, Paris,1983.

راجع أيضاً: جورج قرم: **أوروبا والشرق** (مرجع مذكور).

١- أحمد أمين (راجع الهامش السابق).

وفيما نادى بعض المثقفين بفصل الأمور الدينية عن الأمور الدنيوية (من دون أن يستخدموا عبارة «العلمانية»)، فقد بذل آخرون جهوداً كبيرة في هذا الصدد على صعيد الممارسة العملية، ولاسيّما في ميدان القانون؛ فمنذ العام ١٨٩٩ دفعوا تونس إلى إقرار «قانون الالتزامات والعقود» انسجاماً مع القوانين الدولية. لكن المثقفين التحديثيين حرصوا، في هذا الإطار، على عدم خلق الانطباع بأنهم يُهمِلون الفقه الإسلامي الذي يرى أن الشريعة الإسلامية لا تحول ولا تزول. وحدها تركيا ألغت، بعد الحرب العالمية الأولى، قواعد التشريع القديمة واستبدلتها بتشريع دنيوي مدني خالص.

واليوم، وتحت ضغط الأصوليين، تجري عملية عودة واسعة إلى الفقه الإسلامي التقليدي، حتى في بلد كمصر التي كانت طليعة التحديث في العالم العربي. ولئن لم تُعلِن مصر، كما فعلت السودان، العودة بكل بساطة إلى العمل بالشريعة، فقد جعلت الشرع الإسلامي مصدراً رئيسياً للتشريع.

وبما أن توصيف الفكر السياسي العربي أو الإسلامي لا يدخل في نطاق هذا الكتاب، فسأكتفي بذكر أهمّ الأسماء في هوامشه[1].

بعد العام ١٩٤٥، تغلّب أنصار التحديث على التقليديين لفترة قصيرة. فقد اعتمدت الدول الإسلامية جميعاً خططاً للتنمية استوحتها من البلدان الرأسمالية والاشتراكية. وكانت النزعة العالمثالثية النضالية للأمم المتحدة والمثقفين الغربيين، تشجّع هذا الاتجاه. جراء ذلك ساد توجه يعتبر أن النموّ الاقتصادي من شأنه أن

١- علاوة على الأسماء التي ورد ذكرها سابقا، نُشير إلى الخط الإصلاحي عند ابن باديس في الجزائر، وطاهر بن عاشور في تونس، وعلال الفاسي في المغرب. ومن المفيد، في هذا الصدد، مراجعة كتاب محمد أركون **الفكر العربي** (بالفرنسية): M. Arkoun, La Pensée arabe, Paris, 1975 et 1979. ونقتطف من هذا الكتاب المقطع التالي: «على الفكر العربي (كما على الفكر المسيحي) أن يقبل بمسار معاكس لذلك الذي رفع وقائع ظرفية إلى مستوى ماهيّات متعالية وجعلها حقائق أبدية. وعليه أن ينظر، كالفكر الدنيوي، إلى الإنسان نظرةً وضعيّةً، من غير أن يُنكِر الحوارات الكبرى التي تفتحها الظاهرة القرآنية».

يحل كل المشكلات، على نحوٍ تلقائي وآليّ، وأن يُزيل كل وصمات المهانة والدونية. وبغية تفادي تحفظات المحافظين والتقليديين أضاف الحكّام إلى الأهداف المادية أهدافاً إيديولوجية مألوفة، كالوحدة العربية، وإحياء الأمة الإسلامية. وكان التكنوقراطيون يبحثون في القرآن والأحاديث النبوية عمّا يُسعفهم في إسناد رأيهم؛ فيذكرون هذه الآية أو تلك تأييداً للتمثيل النيابي والعمل البرلماني مثلاً، أو الزواج من امرأة واحدة بدلاً من تعدد الزوجات. ويذكرون أيضاً حرص الخلفاء الأوّلين، ولاسيّما عمر بن الخطّاب، على تقاسم غنائم الحرب بكل عدل. والغاية، باختصار، من وراء ذلك كلّه هي إثبات التمايز عن نماذج «الكفّار» الأجنبية. حتى أن بعضهم ذهب إلى القول بأن الأجانب هم الذين أخذوا عن الإسلام تعاليمه!

لكن برامج التحديث فشلت جميعاً، لأسباب تتراوح بين الفساد وانعدام الكفاءة لدى القائمين بأعمال التنمية، وعدم توافق جزء من الإصلاحات مع بعض العقائد الدينية. فهذه البرامج لم تكن عاجزةً عن رفع المستوى المعيشي للجماهير فحسب، بل خلقت أيضاً حالة من البلبلة في الأذهان وضاعفت من التناقضات. وقد أدّى هذا الفشل إلى تعزيز معسكر المحافظين والتقليديين الذين رأوا فيه عقاباً من الله، ودعوا إلى عودة كاملة شاملة إلى الشريعة الإسلامية. ويسجّل الأصوليون اليوم تقدّماً مؤقتاً على الإصلاحيين. على أية حال، تُثبِتُ الاستجابة للتحريض الذي تمارسه الحركات الإسلامية بأن التحديث بات في خبر كان.

السفر إلى المريخ!

إذا نظرنا إلى الأمور عن كثب، نجد أن المجتمعات الإسلامية تعود اليوم إلى وضع لم تكن قد خرجت منه أصلاً! وما هذه بمفارقة إلا في الظاهر فحسب. ذلك أنه باستثناء حجاب المرأة وتناول المشروبات الروحية علناً لم يتغيّر شيء في العمق. كانت المجتمعات الإسلامية ذات وجهين: تُظهِر للخارج

صورة توحي بأنها قيد التحديث وبأن الأمور تسير على ما يُرام؛ أما في الداخل فصورتها التقليدية هي تلك التي يستسيغها فقهاء الشرع والجماهير.

وهكذا، فإن معظم الدول الإسلامية تتمتع ببرلمانات مُنتَخَبَة بالاقتراع العام (وغالباً ما يتمّ تعليق الانتخابات زمناً طويلاً!). حتى الملكة العربية السعودية تفكّر باستحداث مجلس للشورى. غير أن تلك البلدان جميعاً تمارس رقابة صارمةً وقمعاً شديداً، ولا يُطيق أيٌّ منها حركات المعارضة والاحتجاج. ولا تجرؤ إلا قلّةٌ فقط من الناس على الجهر بمعارضة مفتوحة للخطّ الديني المرسوم منذ القرن الثاني عشر، والذي ما زال يدافع عنه الفقهاء المعاصرون. وكلّ مَن حاول الجهر بهذه المعارضة، كان يُقصى من الساحة السياسية، إن لم يُقتَل أو يُسجَن. ولم يتسنَّ لكُتّابٍ كبار إعادةَ نشر ما كتبوه عن العلمانية. بل إنهم كانوا يُنكِرون أحياناً ما كتبوه، ويتراجعون عنه، ليتبنّوا من جديد المقولة الرسمية السائدة عن الإسلام، وهو أنه دين ودولة ونمط حياة. حتى أن كاتباً سودانياً حُكِم عليه وأُعدم شنقاً لأنه انتقد بعض العقوبات الجائرة كرجم الزانية وقطع يد السارق[1]. وغالباً ما يدفع الخوف المثقفين إلى تأييد العلمانية سرّاً، وإلى تأييد الأصوليين علناً[2].

وقد يتفق، بين الفينة والفينة، أن يرتفع صوتٌ لكن سرعان ما يخنقه هيجان الأصوليين. فقد كتب العشماوي، وهو قاضٍ مصريٌّ رفيع، في «الحركات

١- لم يُعَدْ في مصر طبْعُ كتاب عبد الرازق **الإسلام وأصول الحكم**، الوارد ذكره أعلاه؛ وفي العام ١٩٨١ تخلّى خالد محمد خالد عن أفكار أستاذه ومعلّمه عبد الرازق، وأعلن تبنّيه للمقولة السائدة، وهي أن الإسلام دين ودولة في آن. أما البروفسور المصري، عبد الحميد متولّي، فقد أسقط كل تحفّظاته التي كان أبداها حول مصادر الفقه الإسلامي، وتحوّل في العام ١٩٧٥ إلى مُدافع عن تطبيق الشريعة تطبيقاً حرفياً..

2- J-P Peroncel-Hugoz, in Le Monde, 22 mars 1984.

الإسلامية ضدّ الإسلام»[١]: «أراد الله للإسلام أن يكون ديناً، لكن الناس أبوا إلا أن يجعلوه سياسةً»، وكتب أيضاً: «إن الخلفاء وكل الزعماء السياسيين المسلمين الآخرين يتحمّلون مسؤولية التخلّف الذي يعاني منه العالم الإسلامي اليوم. لقد كانوا يحذرون من الفكر ويجافونه، فوقفوا سداً في وجه تطوّر التعليم الجدير بهذا الاسم. ففي كل ميادين التعليم يتعلّم المسلم، حفظاً عن ظهر قلب، بعض السور القرآنية والأحاديث النبوية والآراء الفقهية. وقد نشأ عن ذلك أميّةٌ مخيفة، في وقت كان فيه الغرب يسير قُدُماً نحو الثورة الصناعية». ويُثبِت العشماوي في كتابه أن الإسلام لا يوصي بأي شكل من أشكال الحكم، وإنما هو يُعارض الحكم الديني (الثيوقراطية).

ثمة صوتٌ آخر معارض، جاء من تونس، هو المنصف المرزوقي، الأستاذ في كلية الطبّ، وكاتب الرواية الخيالية: «لماذا يسافر العرب إلى المريخ؟»[٢]. فأن تتنقّل بين الكواكب والنجوم أيسر لك من أن تخترق الممنوعات والمحرّمات، أو تتجاوز التخلّف، أو توطّد أسس الحريات! والطبيب الكاتب لا يقول هذراً، بل إنه يعني ما يقول: «(منذ الخليفة الثاني عمر) لم يكن ماضينا سوى سلسلة لم تنقطع من المؤامرات والحروب، ومن الظلم والإقطاع... إننا أكثر الأمم الإمبريالية أصالة؛ فقد حكمنا إسبانيا سبعة قرون، وأخضعنا إيران...، وهدمنا لغة الفراعنة، وطردنا البربر إلى أقاصي الجبال... لقد كان الاستعمار نتيجة تخلّفنا، لا سبباً له».

١- محمد سعيد العشماوي (مرجع مذكور).

٢- راجع كتاب المنصف المرزوقي (عرض مجيد سامي زكي)، صحيفة «لوموند» (٢٥ مارس-آذار ١٩٨٣).

خطيئة الصراطية

يمكن لنا أن نُكثِر من الأمثلة على هذه الأصوات النادرة المنعزلة، وكأنها صرخة في صحراء، سرعان ما تتلاشى في مهبّ الأصولية، أو تختنق في غياهب السجون، أو تنطفئ تحت بلاطة القبر، ويُسدِل عليها الأصوليون المولَجون بالحراسة ستائرَ النسيان. هل يريد القارئ دليلاً؟ مَن منكم ما زال يتذكّر القول التالي: «لو أن النبي ما زال حياً اليوم، وقيّض له أن يعيش الظروف الراهنة، لأوحِيَت له آياتٌ ناسخة»[1].

ذلك أن الإيمان عندما يتحوّل إلى عقيدة جامدة مطْلَقة، يحرِّم المسّ حتى بالممارسات التي تُعتَبَر مأموراً بها دفعة واحدة ونهائية منذ أربعة عشر قرناً. فتغيير أنملة واحدة في هذه الممارسات يُعتَبَر ضلالاً عن «الصراط المستقيم». حتى المخالفة البسيطة غير ذات الشأن كافية لتُلْقي بصاحبها في نار جهنّم. في العام ١٩٩١ طالبت تلميذة جزائرية والدتها، بعد عودتها من المدرسة، بأن عليها ارتداء الحجاب من الآن فصاعداً؛ فقد علمتها المدرِّسة أن كل امرأة لا تضع حجاباً سيكون مصيرها الجحيم وبئس المصير!

فما أبعد الشقة بين يومنا هذا وبين ذلك العصر الذي كانت فيه الحضارة الإسلامية في ذروتها! لقد اندثر المجتمع الذي كان حياً في ذلك الزمن، وحلّ محلّه أنموذج من مجتمع، «مصفّى»، صنعه فقهاء القرن الثاني عشر، أنموذج سلطويّ موسوَس بالتفاصيل الدقيقة، على رأسه طغاةٌ يرتكزون على عقائد جامدة صاغها لهم فقهاء الشرع الامتثاليون. إن الإسلام الذي كان، فيما مضى، استجابةً حيّةً للناس لوصايا الله، تحوّل إلى عقيدة جافّة تُنظِّم بطريقة، لا تتغيّر ولا تتحوّل، جميع جوانب الحياة الخاصة والعامّة. وكما يقول أحد الأبطال في

١- راجع ما كتبه ج. أرناؤوطي في صحيفة «لوموند» (٥ يناير-كانون الثاني ١٩٨٢) حول أحمد أمين.

إحدى رواياتي للعربي الذي فتح بلده: «حذار من جعل الدين صنماً، لأنه قد يسقط عليك فيقتلك»[١].

إن إنشاء مؤسسات «نهائية» يخنق العلم والتقدّم. وكما قال فتغنشتاين Wittgenstein: «إن الآلة المؤسسية لا حاجةَ بها إلى رؤوس مفكّرة!».

إن «خطيئة الصراطية» عقبة تُعيق اليوم تقدّم المجتمعات الإسلامية. وأشدّد كثيراً على هذه العبارة، لأن انهيار الحضارة الإسلامية لم يكن ناتجاً عن الدين نفسه. وإنما الكارثة جاءت من الخلط بين التفسيرات الدينية، بعد القرن الثاني عشر، وبين الدين كما كان في القرون الأربعة الأولى. وهذا الخلط ارتكبه المسلمون والغربيون معاً. فإرنست رينان، في محاضرته في جامعة السوربون، يندد بـ«الخطأ الذي يوقِعنا فيه فرطُ الكرَم، حينما نعزو إلى تأثير الإسلام، حركةَ نموّ علمي نشأت ضدّ الإسلام نفسه، ولم يستطِع الإسلام ـ لحسن الحظ ـ إيقافها»[٢]. في رأي رينان أن الحركة العلمية «لم تحظَ من المسلمين الصراطيين إلا باللعنات». ويُضيف قائلاً في الاتجاه نفسه: «ينطوي الإسلام على الفكرة الأكثر تعارضاً والأشدّ تناقضاً مع التقدّم: الدولة القائمة على رسالة سماوية مزعومة، واللاهوت الحاكم للمجتمع».

إن مثل هذا التوكيد لا ينمّ عن موقف علمي؛ فهو يخلط بين القرآن وبين التفسير القرآني الذي أنتجه الفقهاء الصراطيون! والحق أن القرآن يفوح منه نفَسُ الحرية، ونفحُ المعارضة والاحتجاج، وعطَشٌ حقيقيٌّ للمعرفة... وهذا كلّه تُخفيه التفاسير الصراطية. وليس أوضح من قول النبي: «إن حبر العلماء خيرٌ من دم الشهداء» و«أطلبوا العلم ولو في الصين»[٣].

١- راجع رواية **سيف الإسلام** (بالفرنسية):

Le Glaive de l'islam, Denoël, Paris, 1984.

٢- Journal des Débats, 18 mai 1883. مذكور سابقا.

٣- كتب علي مراد في صحيفة «لوموند» (٨٣/٠٣/٢٥): «إن ما يوجّه إليه رينان إصبع ⇦

الصراطيّة إغراء يراود الجميع ...

لئن تكن المجتمعات الإسلامية قد غرقت، منذ القرن الثاني عشر، في مناخ الأصولية، فينبغي لنا ألا نخالَ أن الصراطية وقفٌ على هذه المجتمعات وحدها. وحتى لا نحملّ العرب كل العبء، فلنذكر أنهم كانوا عديمي الخبرة في الحكم، فأخذوا عن البيزنطيين والفرس مؤسساتهم التي قلّما كانت تتمتع بالصفة الديموقراطية! ولما انغلقت المجتمعات الإسلامية على نفسها وتجمّدت في القرن الثاني عشر، كان الاستبداد والإقطاع يسودان في كل مكان من العالم!

ليست الصراطية ظاهرة خاصة بالإسلام. فهي، أينما وُجِدت، لها الخصائص ذاتها، سواء اتصل الأمر بالأديان أم بالمذاهب العلمانية، قديمها وحديثها. والحقّ، أن كل صراطية تقتضي من أتباعها الانضباط من دون مناقشة أو محاججة لرأي الأكثرية، في بعض الحالات، أو لرأي الزعيم، في حالات أخرى. وهي لا تتسامح مع أي حَيَدان: فكل من يحيد عن الخط يصبح شاذاً وصاحب بدعة ومهرطقاً، ويُقصى من الجماعة، فتُلغيه أو تنفيه. تُبيد الصراطية كلَّ عمل مخالفٍ في الرأي. تتشابه هنا محارق محاكم التفتيش في القرن الثاني عشر، مع محارق ألمانيا الهتلرية. ويتشابه الهراطقة الذين قُتِلوا على يد المسيحيين وأصحاب البِدَع الذين قُتِلوا على يد المسلمين في القرون الوسطى، مع ضحايا معسكرات الاعتقال النازية والستالينية في القرن العشرين. فالجمود والتصلّب، كما يقول مفكر معروف، هما ضرورةٌ لا بدّ منها للصراطية[1]؛ إذ لا يمكن لها أن تستمرّ إلا إذا بقيت جامدة عصيّة على التحوّل.

⇦ الاتهام ليس إسلام القرآن، بل هو الإسلام المجسّد في عقائد البشر.. وفي البنى الاجتماعية الرازحة تحت سلطة فقهاء الشريعة النافذين، الذين غالباً ما كانوا في خدمة الطغاة الظلاميين».

١- جان غروتييه، **بحث في الذهنية الصراطية**، مرجع مذكور.

فلماذا يخضع لها الناس؟ أسبابٌ عدّة تفسّر ذلك. بشكل عام، في عالمٍ متحوّل، وفي غمرة التحوّل، يشعر المؤمن بالأمان حين يتمسك بشيء ثابت. كالغريق يتمسّك بخشبة خلاص، ويشعر بالوفاق مع كثرةٍ من المؤمنين أمثاله، فيصبح واحداً منهم. يعود إلى حالة الطفولة، إلى تلك الفترة «المباركة» التي كانت فيها كل المسؤوليات تُلقى على عاتق الأب... إنها وضعية مريحة بلا شك، ولكنها وضعية مثيرة للتقزز أيضاً؛ فالوصاية الأبوية تؤول إلى وطأة ثقيلة في النهاية. والصراطية لا يمكن لها أن تُخفي، إلى ما لا نهاية، مضمونها الحقيقي. ولا يمكن لها الاستمرار في ممانعة التجديد والابتكار والإبداع، ولاسيّما في عصرنا الراهن، عصر ثورة الاتصالات والمواصلات، ولاسيما في عصرنا الراهن، عصر ثورة الاتصالات والمواصلات؛ لا يمكن لها أن تتجاهل المنجَزات العلمية، برغم سعيها الدائم إلى «حجبها». فالواقع عنيد، ولا يمكن التغلّب عليه بسهولة! لذا ينتهي الأمر بالصراطية إلى الاعتراف بالمستجدات، مع لزومها الصمت المُطبِق عن موقفها الرافض السابق؛ فهي تقول من الآن فصاعداً إن المستجدّات تتوافق مع عقائدها (فقهاء الشريعة الإسلامية، مثلاً، يقولون إن كل المختزَعات والمستجدات العصرية توجد إشارات إليها في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية). لم تبقَ الصراطية كما كانت، بل تغيّرت، أصبحت انتقائية «معتدلة»، بحسب العبارة المستخدَمَة اليوم في اللغة السياسية. ومع ذلك، تستميت الصراطية في الدفاع عن سلطانها كي لا تفقد منه شيئاً؛ وهي تزعم أنها لم تتنازل عن شيء ولم تتخلَّ عن شيء، وأن كل ما تفعله يتوافق وينسجم مع عقيدتها إذا أُحسِن فهمها فهم هذه العقيدة...

ينطبق هذا الوصف على الصراطية التي انتصرت في القرن الثاني عشر في العالم الإسلامي، كما يفسّر نجاح هذه الصراطية في البقاء على قيد الحياة إلى يومنا هذا. لقد استطاعت الصراطية أن تحجب الرؤية عن العالم، لكن العالم بقي قائماً مستمراً في التقدّم. إن التقدّم السريع والهجومي الذي أنجزه الغرب في

القرن التاسع عشر، أزاح علماء الدين عن مواقفهم، وأرغمهم على التخفيف من عنادهم، باعترافهم بأن بعض الإنجازات العلمية «مشروعة»، بعدما كانت حتى تلك اللحظة تُعتبَر «شيطانية». من هذا المنظار، كان بعض المستشرقين يقول إن «الإسلام لم يتوقف عن التطوّر»[1]. في الواقع، كان بعض العلماء والفقهاء وآيات الله يناورون حفاظاً على مواقع السلطة، بالتظاهر بأنهم «معتدلون»، فما إن يخفّ الضغط عنهم، حتى يعودوا إلى مواقفهم المتشددة.

أحداث إيران هي خير مثال على هذه الرقصة الترددية التي تبدو وكأن العالم الإسلامي المعاصر يرقص بأكمله على وقعها. فبعد فترة طويلة من العناد والتصلّب، عمد الخميني إلى تلطيف موقفه، ووافق على إنهاء الحرب مع العراق. مباشرة بعد هذا التراجع، انتقل إلى ميدان آخر ليُثبِتَ فيه تشدّده و«ثباته» فأطلق فتوى إراقة دم الكاتب سلمان رشدي! رقصة الفالس مستمرة.

مثال آخر: خريف العام ١٩٨٧، دعت باكستان، التي وقعت في حبال الصراطية، إلى عقد مؤتمر إسلامي واسع للبحث في «الخوارق العلمية في القرآن والسنّة». فالوحي السماوي الذي أُنزل على محمّد توقّع كل شيء، من الذرّة والبنسلين إلى الصواريخ العابرة للقارات والقنابل النووية. وهاكم بعض المحاور التي ناقشها المؤتمرون: «تركيب الحليب الكيماوي، من خلال الآية ٦٦ في سورة النحل»، «عالم النحل وأعجوبة القرآن الكريم»، «الدروس المستخلَصَة من تعاليم الرسول (صلعم) للوقاية من الأمراض الطفيلية»، «مرض الإيدز الجديد على ضوء القرآن والسنّة»، ...الخ. لمّا كانت الحقيقة، كل الحقيقة، توجد في القرآن، فما أيسر أن نُعيد إليه، عندما يحين الوقت وتظهر المناسبة، كل ما يظهر جديد في ميدان العلم[2]!

١- مقابلة مع مكسيم رودنسون، في مجلة L'Evénement du jeudi، (٨٣/٣/٣).

٢- نقلاً عن ماري وليامز فالس، مراسلة صحيفة «ذي وول ستريت جورنال» (٨٨/٩/١٣).

بين الفينة والفينة، تُظهِر الصراطيات بعضَ الليبرالية، وإن بشحٍّ شديد، كي لا تنفجرَ من الداخل. وعندما يأخذ الانفتاح بالاتّساع، تُغلَق الأبواب من جديد، هذا إذا لم يقتنص بعض الأصوليين المتشددين فرصة حالة البلبلة هذه ليستولوا على السلطة. كم يغدو الأمر مضحكاً حينما نرى دولاً قائمة على الأصولية المتشددة تدين الأعمال التي يقوم بها متطرّفون (السعودية، مثلاً، حينما تعارض الاستخدام السياسي للإسلام، وإيران الخمينية حينما تعارض احتجاز الرهائن...). وعلى أية حال، إن الفقهاء والزعماء المسلمين، بقبولهم منتجات «الحداثة» (وسائط الاتصال، التكنولوجيات المختلفة، العلاجات الطبية، ...الخ) مع استمرارهم في رفض الظروف التي جعلت إنتاجها ممكناً، يغوصون أكثر فأكثر في مستنقع التناقضات.

اتهامات ومطالب

عندما يُضاف فشل برامج التحديث ــ ولاسيّما في البلدان العربية ــ إلى مأساة الفلسطينيين الذين تحوّلوا إلى «مسلمين ضائعين»، فمن شأن ذلك أن يولِّد شعوراً بالمرارة القاسية ويُحْدِث ردود فعل عنيفة ضد الغرب. إن الآمال المحبَطة تدفع إلى الأصولية حتى بالمتعلّمين، وتخلق عندهم ذهنية «الانتقام» (أو على الأقل عقلية «الادعاء والمطالبة»).

ما زلت أذكر ذلك المهرجان الإسلامي الذي جرى في لندن العام ١٩٧٦، وشاهدته برفقة زميل قديم في الدراسة، أصبح فيما بعد وزيراً في حكومة بلاده. ولدى خروجنا من المهرجان قال لي الزميل، ملتهباً حماساً: «وأخيراً هذه هي أوروبا تدفع دَينها المستحق للعرب، لقاء الصورة السلبية التي صوّرتهم بها طيلة قرون»، وهاجم دانتي Dante لأنه سخر من محمد، كما هاجم شاتوبريان Chateaubrilland «الامبريالي»، وغيبّون Gibbon «المكّار»، وريتان Renan

«العنصري»... وفي رأيه أن الباحثين الأجانب في الشؤون الإسلامية هم عملاء للمخابرات الأميركية أو للصهيونية.

عاد كلامه هذا إلى ذاكرتي، العام ١٩٨٢، عندما كنتُ أقرأ كتاب إدوارد سعيد الاستشراق. في هذا الكتاب يهاجم المؤلّفُ، وهو أميركي من أصل فلسطيني (مسيحي)، وأستاذ في الأدب الإنجليزي، يهاجم المستشرقين (جميعاً تقريباً) بكل شراسة، وينعتهم بـ«عملاء الاستعمار». ذكّرني أسلوبه بأسلوب فقهاء الشريعة في القرن الثاني عشر، الذين كانوا يحرقون كتب علماء المسلمين. وذكّرني أيضاً بجدانوف Jdanov، البطل الستاليني، صاحب مقولة «النقاء الماركسي» وطروحاته التي دفعت المدعو ليسنكو Lyssenko إلى تزوير علم الوراثة!

صحيح أن مواقف بعض المستشرقين كانت أحياناً تخدم السياسة الاستعمارية. ولكن هل ننسى أن المستشرقين ساعدونا على اكتشاف مفكرين وكتاب كان الفقهاء العرب يضطهدونهم؟ مكسيم رودنسون، أحد المختصين البارزين في الدراسات الإسلامية، ردّ بكل تهذيب على هجوم إدوارد سعيد. وفي الوقت نفسه، أخذ على كثيرين من زملائه سعيهم إلى العثور بأي ثمن، على «قوة تقدمية» في الإسلام: بذلك «كانوا ينتقلون من الحدّ الأقصى إلى الحدّ الأقصى النقيض، ينتقلون من نقد الدين وفهمه، إلى إطرائه والدفاع عنه»[١].

كان رودنسون يعني بذلك روجيه غارودي الذي اعتنق مؤخراً الإسلام. وبالفعل، يرى غارودي أن «النبي محمّداً لم يزعم قَط أنه استحدث ديناً جديداً، بل أعاد تذكير الناس بشريعة إبراهيم الأساسية... ولا يفصل الإسلام العلمَ عن الحكمة، ولا الحكمة عن الوحي. كان العلم الإسلامي في عصره الذهبي، في جامعة قرطبة، لا يفصل بين البحث وغايات البحث، حتى لا ينزلق العلم إلى العلموية، ولا تنحطّ التقنية إلى تكنوقراطية، والسياسة إلى الميكيافيلية...»[٢].

١- مكسيم رودنسون، **سحر الإسلام** (مرجع مذكور).

٢- «لوموند» (٣٠/٧/٨٣).

ولما كان غارودي ضليعاً في الجدلية الماركسية، فقد استبق بنفسه الانتقادات التي قد يُرَدُّ بها عليه، فكتب: «قد يُقال لي: وأين يوجد هذا الإسلام الذي تجعله مثالياً إلى هذا الحدّ؟ إنه لا يوجد في أيّ مكان! هذا صحيح».

أن يكون ثمة مثقفون غربيون اعتنقوا إسلاماً تخيّلوه، فهذا ليس مهمّاً بقدر ما هو مهمٌّ أن نرى مثقفين مسلمين يتفاخرون ويتباهون ببعض إنجازات الحضارة الإسلامية، من دون الإشارة إلى أن فقهاء الشريعة الإسلامية ما زالوا يدينون هذه الإنجازات إلى يومنا هذا! وقد شرع قسمٌ كبيرٌ من الانتلجنسيا الإسلامية بالانضمام إلى حركة رفض «الحداثة» التي يتّسع مدّها في العالم الإسلامي، من الأطلسي إلى المحيط الهندي. وليس مكمن الخطورة أنّ هذه الحركة تدفع بالمسلمين نحو التخلّف فحسب، بل إنها تصرفهم أيضاً عن الالتفات إلى المشكلات الحقيقية العصرية، كالتزايد السكاني والفقر وسوء التنمية. علاوةً على ذلك، فإن هذا الموقف الرافض، بإلقائه مسؤولية «مصائب» الحاضر وأسبابها على «الأجنبي»، ينتهي به الأمر إلى غضّ النظر عن «العدو الداخلي»، مع أن هذا العدو هو الأشدّ خطراً!

لدى خروجنا من مهرجان لندن، تحوّل الصديق الذي برفقتي إلى شخص «نقاق»: «لقد أعطيناهم الرياضيات والفيزياء والفلك والطب والكيمياء والفلسفة. ومن دوننا لما حدثت ثورة علمية وتقنية. وعندما يتكرّمون بالاعتراف بإسهامنا، فإنهم يقصرونه على مجرّد نقل الفكر اليوناني فقط، وكأننا لم نمنح الإنسانية عدداً من الاختراعات. ألم يؤسس ابن خلدون علم الاجتماع؟ والبيروني الانتروبولوجيا؟ والخيّام والخوارزمي الجبر؟ وابن الهيثم البصريات؟...».

مؤخّراً ذكّرتُ صديقي هذا بما قاله العام ١٩٧٦. وتوافقنا على مدى الخطورة التي ينطوي عليها النزوع إلى إضفاء هوية شبه سحرية على قمة المعرفة العلمية في الحضارة الإسلامية. فمن دون نظرة نقدية تسعى إلى إدراك حجم الانتصار الأصولي في القرن الثاني عشر، فإن تمجيد الماضي لن يُفضي إلا إلى إطالة أمد سوء التنمية وتأبيد التخلّف. وبدلاً من التفاخر بالماضي، يجدر

بالمسلمين أن يطرحوا على أنفسهم بعض الأسئلة، من نوع: لماذا لم تُفضِ الابتكارات التي جاء بها علماؤهم إلى تأسيس علم؟ لماذا بقي هؤلاء العلماء مضطهَدين، تلاحقهم تهمة البدعة والهرطقة؟

هل يمكن التحديث من دون هلاك؟

يبدو أن الاتجاه الغالب اليوم هو كما كان في القرن الثاني عشر: للتخلّص من الضار، نرمي الضار والمفيد معاً. يقول علي بلحاج، منظّر الحركة الإسلامية الجزائرية: «إذا كان أبي وإخوانه (في الدين) قد طردوا جسدياً من الجزائر فرنسا الظالمة، فأنا أكرّس جهدي لطردها فكرياً وإيديولوجياً»[1]. ومع ذلك، إن رفض الحداثة الذي يستقطب الكثيرين من المسلمين يترافق عندهم بالرغبة في امتلاك قوة الغرب العلمية والتكنولوجية. وإن موجة كراهية «الكفّار» الجديدة تصحبها عندهم نظرة حسدٍ وغيرة من إنجازات هؤلاء «الكفار» المادية. فالجميع، الجميع من دون استثناء، بمن فيهم الأصوليون الأكثر تشدّداً، لا يتكلّمون إلا عن كيفية ردم هوّة التخلّف التي تفصل العالم الإسلامي عن الغرب، وعن كيفية الاستجابة للتحدّيات المطروحة عليه، مع أن أحداً لا يكفّ عن صبّ اللعنات على الحضارة الغربية.

هكذا، فإن معادلة التنمية تُطرَح في العالم الإسلامي على النحو التالي: الأخذ بالمستجدّات والمبتكرات العلمية والتقنية الغربية، من دون المساس بالبنيات التقليدية؛ التحديث ولكن مع الاحتفاظ بالهوية القديمة كما هي، والحفاظ على التفسيرات القديمة المهيمنة. وإذ تُطرَح المعادلة على هذا النحو، يصبح حلها مستحيلاً، أشبه بتربيع الدائرة!

من هذا المنظور يبدو أن أي بلد، حتى ولو كان مثل تركيا التي أخذت

1- Politique internationale, automne 1990.

بنظام علماني، عاجز عن تجاوز التناقضات جميعاً. لقد أراد أتاتورك أن يفصل الهوية التركية عن إطارها الفكري الإسلامي، من خلال فرض تدابير جذرية لإقصاء الدين من الحياة العامّة ومؤسسات الدولة. فألغى الخلافة و«دجّن» المؤسسة الدينية بأن جعلها إدارة تابعة للدولة. ولكن، وبعد مضيّ نصف قرن نجد أن المسألة الدينية ما زالت مطروحة على بساط البحث في تركيا، ولم تستطع العلمنة وقف الموجة الأصولية العاتية. وهذا ما جعل العسكر التركي، الذي يعتبر نفسه حامي منجزات أتاتورك، يتدخّل بين الفينة والفينة ليوقف العمل بالديموقراطية! في العام ١٩٥٨، سأل عالِمُ اجتماع أميركي فلاحاً تركياً: ماذا يفعل لو صار رئيساً للبلاد؟ فأجابه الفلاح: «... أنا، رئيس تركيا؟ أنا سيّد العالم قاطبة؟ لا أستطيع ذلك»[١]. في ذهن الفلاح، ما زال قائماً التصور الإسلامي لسلطة الخليفة. فخلْف الواجهة «العلمانية»، كما يقول مختصٌ تركي، تُقيم ثوابتَ تاريخ تركيا: إسلامٌ غير قابل للفصل عن السياسة، وإسلامٌ طُرُقيّ يتغلغل في النسيج الاجتماعي بأكمله[٢].

في نظر بعض المؤرّخين، كبرنارد لويس مثلاً، يستحيل عملياً التكيُّف مع الأفكار الغربية الليبرالية في دار الإسلام[٣]. فهم يُقيمون تنافراً تاماً بين الدين والحداثة. أما أنا فلا أرى، من جهتي، أن هناك تناقضاً بين طرفَيْ المعادلة: التنمية من جهة، والدين من جهة أخرى بوصفه ديناً. ألم «يتحدَّث» المسلمون الأوائل (بدو الجزيرة العربية في القرن السابع) عندما أخذوا بمؤسسات شعوب البلدان التي فتحوها، من فارس إلى سوريا ومصر وغيرها...، وعندما أخذوا بعلومهم وتقنياتهم وعاداتهم؟ إن التناقض بين العلم والدين الإسلامي يبدو لي

١- دانييل لرنر، مرجع مذكور.

٢- راجع مداخلة آلتان غوكالب، في الكتاب الجماعي **تاريخ الأخلاق والأعراف** (مرجع مذكور).

٣- برنارد لويس (مرجع مذكور).

تناقضاً ظاهرياً أكثر مما هو تناقض فعلي وحقيقي. وهو تناقض لا يوجد إلا في التفسيرات الأصولية التي انتصرت في القرن الثاني عشر.

إن تعاليم الأصولية الصارمة تدخل أحياناً في حالة «بيات شتوي» لتستفيق من جديد فجأةً في أوقات الشدّة، وفي الظروف العصيبة. ونحن نمرّ اليوم، مع الحركات الإسلامية، في «منطقة تقلّبات جوية»، حسب تعبير علماء الأرصاد. عندئذ تميل المجتمعات الإسلامية إلى الانطواء على ذاتها، من دون أن تمارس أي نقد ذاتي من شأنه، في مثل هذه الحال، أن يقودها إلى مرفأ الأمان. وعندئذ أيضا تبرز مخاطر التطرّف جميعاً متضافرة؛ وفي ظروفٍ كهذه تُفضي تأويلات الإسلام، بوصفه نمط حياة ووصفة سياسية جاهزة، إلى فرض الرقابة الصارمة وخنق الفكر الحرّ(1).

إن تدخّل الدين في كلّ ميادين الحياة، ولاسيّما في ميدان السياسة، يُزيّف معادلة التنمية، ويحول دون الإصلاحات الحاسمة. وسأورد، في ما يلي، شهادتين توضحان المأزق الذي يجد المسلمون المعاصرون أنفسهم متخبّطين فيه من جرّاء استمرار الأصولية القروسطية وبقائها حيّةً فاعلة. الشهادة الأولى هي لمثقفٍ جزائري أدلى برأيه، في العام ١٩٥٦، أي قبل حصول بلاده على الاستقلال، فكتب يقول: «إن ما يحيّرني ويُقلقني ويقضّ مضجعي هو هذا الخليط الفوضوي من الأشياء التي نأخذها عن الغرب... ولكن أفلا نتروى ونتفكّر قليلاً في مسألة أساسية: لقد وضع الإسلام نظاماً أبدياً للجماعة، من خلية الأسرة إلى جسم الأمة، في حين أن العقيدة المسيحية لم تقلْ كلمة في هذه المسألة. إن المجتمع الإسلامي تحكمه شرائع إلهية، في حين أن المجتمعات الأخرى تحكمها شرائع إنسانية»(2).

١- حديث الطاهر بن جلّون مع جمال الدين بن شيخ، في صحيفة «لوموند» (١/٨/٨٥).

٢- راجع مقالة محمد الزروقي (عضو مكتب Pen Club d'Algérie) في صحيفة «لوموند» (١٥-١٦/٣/١٩٥٦).

المأزق نفسه صوّره، على نحو أكثر إثارة للشفقة، مفكّرٌ عربي آخر، هو شخصية أردنية بارزة، طلب مني في ذلك الوقت (١٩٦٠) ألا أذكر اسمه، عندما قال لي: «حيث أني أعيش زمني، وقد تلقّيتُ تربيةً غربية، فإن التقدّم لا يبدو لي ممكناً إلا من خارج التراث. وما أكثرنا في الأردن، نحن الذين نفكّر بتوليفات مستحيلة. إننا، كباقي إخواننا العرب والمسلمين، عندما نشرع بالتفكير، نعيش مأساةً فظيعة. هل يمكن لنا ألا نقتل الله عندما نحاول عزل الدين عن نظام اجتماعي حكم عليه التقدم العلمي والتقني بالاندثار؟ في إسلامنا، الدين والمجتمع يمتزجان، فلا وجود لأي منهما إلا بالوحدة الوثقى بينهما. فهل يمكن لنا أن نشق طريقنا إلى الحداثة من دون أن نهلك؟»[1].

هاتان الشهادتان تختصران ببراعة فائقة المشكلة التي تواجه المسلمين، أواخر القرن العشرين. لا يمكن للتكنولوجيا الغربية أن تنفصل عن الثقافة التي أفسحت لها في المجال وجعلتها ممكنة. كذلك، فإن المسلم يشعر إزاءَ التحديث بأنه أمام صراع بين تراث مُطَمْئِنٍ ولكن غير كافٍ، وبين مستجدات مزعجة ولكن ضرورية. ويتجلّى هذا الصراع، أكثر فأكثر، في شكل اضطراب سياسي/ديني يُدهِشُ المراقبين بمظاهره اللاعقلانية[2]. من هنا، في رأيي، منشأ المخاوف التي تنتاب العالم غير الإسلامي، المتورّط رغماً عنه في هذا الصراع.

أودّ أن أُشيرَ مرةً أخرى، حتى ولو وقعتُ في التكرار الممل، إلى أن هذا التمزّق، المأساوي أحياناً (وأنا أعرف عنه الكثير، ويا للأسف!)، ناجمٌ مباشرةً عن أحداث القرن الثاني عشر. فمنذ ذلك الوقت والفقهاء، السنة كما الشيعة، يُحكِمون الطوْقَ، ويخنقون في المهد كل محاولة للخروج من المأزق. وما دام المفكرون المسلمون عاجزين عن إيجاد الوسائل اللازمة للخروج منه، فإن

١- ماكس أوليفييه لاكان Max-Olivier Lacamp في صحيفة «لو فيغارو» (١٩٦٠/١١/١٧)، ذكره أيضاً هنري كوربان في كتابه **في الإسلام الإيراني**.

٢- راجع أيضاً: فون غرونباوم: **هوية الإسلام الثقافية** (مرجع مذكور).

جهود التحديث كلّها ستذهب أدراج الرياح، وسيبقى مستقبل البلدان الإسلامية هشاً، كما سيبقى المسلم مشدوداً بين قطبَيْ المعضلة التي يعيشها.

إن الأحداث الراهنة تدعو إلى التشاؤم. ولن يصل المسلمون إلى عصر التكنولوجيا إلا بعد فوات الأوان، على حدّ قول مفكّرٍ مغربي، ولن يكون بمكنتهم أبداً ردم هوة التخلّف المتراكم[١]. إن استيلاء الأصوليين على السلطة، منذ أوائل القرن العشرين في السعودية، وفي أواخره في إيران وباكستان والسودان، يعزز رأي المتشائمين. لكني، شخصياً، لا أؤيّد هذه التوقعات السوداوية؛ إذ يبدو لي أن الأصولية وصلت، في بعض المجتمعات، إلى نهاية الطريق المسدود... المُفضي إلى ما يشبه الكوارث في إيران وباكستان (ناهيك عن السودان). ولئن كانت الأخطاء التي يرتكبها التحديثيون «الدنيويون» تؤدّي إلى محض فشل وإخفاق ليس إلا، فإن أخطاء «الإسلاميين»، من كل الاتجاهات، تؤدّي إلى كوارث لا برء منها أحيانا.

١- عبد الكريم الخطيبي، حديث لصحيفة «لوموند» (١٤/٢/١٩٧٨).

الفصل السادس

الهوية الإسلامية والحداثة

عندما بدأ المسلمون يحتكّون بالحضارة الغربية الجديدة أُعجِبوا بمظاهرها الخارجية أكثر مما أُعجبوا بطاقاتها الفكرية والمعرفية، واستحسنوا منتجاتها الاستهلاكية أكثر مما استحسنوا ذهنيتها العلمية. لذا، حسبوا أن بمِكْنتهم اللحاق بأوروبا، بل تجاوزها أيضاً، بمجرّد استيراد مصانع (وخبراء يديرونها إذا اقتضى الأمر).

هكذا حسب الأتراك بعد هزيمتهم أمام ڤيينا، في القرن السابع عشر، أنهم سيستعيدون تفوّقهم في ساحات القتال، ما أن يشتروا الأسلحة ويصبّوا المدافع ويوظّفوا المدرّبين.

هذه النظرة إلى الأمور ما زالت سائدة إلى يومنا هذا: فقد حسب صدّام حسين أنه سيكون نداً لأميركا إذا امتلك مقداراً كافياً من الصواريخ وكميات من أسلحة الدمار الشامل، أو صنع صاروخاً برأس نووي... فكل شيء ممكنٌ بقوة المال، وطاغية بغداد يمتلك ثروات نفطية هائلة.

ظِلّ كارل ماركس

لم ينتبه إلا قلّةٌ من القادة للحالة الفكرية التي جعلت الثورة العلمية والتقنية ممكنة. وحينما كان يتوافر واحدٌ من هؤلاء القادة النبهاء، كانت الإصلاحات الاجتماعية التي يباشرها تنتهي بنهايته، وتزول بزواله، كما كانت حال محمد علي في مصر مثلاً، في بداية القرن التاسع عشر[1]. بعد الحرب العالمية

١- أحمد أمين، **الشرق والغرب**، القاهرة، ١٩٥٠.

الثانية، تزايد عدد المسلمين الواثقين من ضرورة إدخال إصلاحات عميقة على المجتمع؛ وكان الإصلاحيون الجدُد أو «المحدّثون» ــ خلافاً لمن سبقهم من المصلحين ــ على يقين تام من أن الحاجز الديني راسخٌ لا يمكن زحزحته. في العشرينيات، نجح أتاتورك في الالتفاف على هذا الحاجز، مباغتاً علماء الدين، الذين كانوا في حالة من الذهول من جرّاء تفكّك السلطنة العثمانية وإلغاء الخلافة الإسلامية. وعندما أفاق فقهاء الشرع من ذهولهم، وقفوا بكل صلابة وعناد في وجه كلّ محاولات التجديد والتغيير.

إذاك، ظهرت «فلسفة» تنمية جديدة: المباشرة، في أسرع وقت ممكن، بإرساء أسس للصناعة، وعدم الالتفات إلى أي شيء آخر! كانت الفكرة الماركسية القائلة بأن تحويل البنية التحتية يؤدّي حتماً إلى تحوّلٍ في البنية الفوقية قد راجت رواجاً منقطع النظير مع الطلبة الذين تكوّنوا في الغرب ثم عادوا إلى بلدانهم. لم تتناول خطط التحديث إلا ميدان الاقتصاد وحده، فلم تمسّ البنى الاجتماعية. وتركت رجال الدين أحراراً في ممارسة سلطتهم الدينية كيفما يشاؤون.

في مواجهة هذه النزعة التصنيعية الآلية المستوحاة بقدرٍ أو بآخر من الماركسية، طرح الأصوليون تصوّرهم «الآلي» الخاص بهم: لزوم المرأة بيتها، إقامة الحدود، أي تطبيق العقوبات التي تنص عليها الشريعة، إنشاء مصارف تسليف وقروض بدون فوائد، ...الخ، باعتبار أن من شأن ذلك كلّه أن يبعث الإسلام «الأصلي» وأن يتيح استئناف الحرب المقدّسة على «الكفار» (بعد انتصار الوهابية، باتت المملكة العربية السعودية تمثل أتمّ نموذج لهذا الطرح).

كان الفشل نصيب الخطط التنموية على أنواعها، أدينيةً كانت أم دنيوية، وذلك بسبب إهمالها الأبعاد الثقافية للحداثة. فالعالم الإسلامي يريد أن يستورد منجزات الحضارة الغربية، من دون أي مسّ بثقافته الإسلامية التي هي انعكاسٌ لصراطية جامدة منذ القرن الثاني عشر. ثمة إذن انفصامٌ لا سبيل إلى تجاوزه.

في الثلاثينات طرح المفكّرُ المصري أحمد أمين، في كتاب يحمل هذا العنوان الدال **الشرق والغرب**، البرنامج التالي: صون الدين والتراث مع إضافة العلم

والصناعة إليهما، عدم المساس بالبنى الأساسية للمجتمع الإسلامي مع إضافة بعض العناصر المنتقاة من الحضارة الغربية إليها، رفع مصر إلى المستوى المادي الغربي من دون التضحية بـ«الدفء» الإنساني لمجتمع ما قبل صناعي.

السياق الغربي

لا يمكن للتكنولوجيا الحديثة أن تعمل إلا في السياق الفكري والأخلاقي كما طوّره الغرب؛ فانتقال المجتمع من مرحلة ما قبل الصناعة إلى المرحلة الرأسمالية لا يتحقق، كما قال مؤخراً عالم اجتماع أميركي، إلا إذا كان ثمنه «مجزرة أخلاقية فعلية تطول روح الأمة برمّتها»[١]... فهو يتطلّب تحوّلات عميقة في قوانين الأخلاق وفي كيفية النظر إلى العالم. فقد حوّلت الثورة الأميركية والثورة الفرنسية الثقافة الغربية بعامّة، وحوّلتا بخاصّة مكانة الأب في المجتمع، وأطلقتا حرية الأبناء، وحرّرتا المرأة، فزعزعتا النظام البطريركي التقليدي القديم. وتقوم «الأبوية الجديدة» على علاقات الحبّ والعاطفة والمساواة أكثر منها على علاقات الدم والشرف والعائلة. وشيئاً فشيئاً يتحوّل الأطفال إلى «راشدين»، والنساء إلى مواطنات كاملات الحقوق[٢]. مع الثورة العلمية والتقنية تغيّرت كل «القيم» التي كانت تحكم البشر.

١- البروفسور ميكاييل.ت.توسّيغ، **الشيطان وصنمية البضاعة في أميركا الجنوبية** (بالإنجليزية):
Pr. Michael T. Taussig, The Devil and Commodity Fetichism in South America, University of Carolina, 1980.

٢- البروفسور جاي فلايجلمان، **الثورة الأميركية على السلطة الأبوية** (بالإنجليزية):
Pr. Jay Fliegelman, The Americain Revolution Against Patriarcal Authority (1750 - 1800) New York, 1982.

راجع أيضاً: ديفيد روبرتس، **النظام الأبوي في إنجلترا في العهد الفيكتوري** (بالإنجليزية):
David Robert, Paternalisme in Early Victorien Englend, Londres, 1980.

يقول روبرتس: «قام المجتمع الصناعي الحديث على قلب قيم المجتمع القديم رأساً على عقب».

لا يمكن للتكنولوجيا الحديثة أن تعمل إذا نزعنا منها بعدها الفكري-الثقافي. من غير هذا البعد تذوي الحضارة الغربية. والنفط، إذا خالطه الماء، لا يُدير محرّكاً، بل يجعل المحرّك يفرقع فقط. هذا تقريباً ما حصل في العالم الإسلامي (وربّما في العالم الثالث كلّه). لم تؤدِّ خطط التنمية إلا إلى الخيبة، سواءً ما استلهم منها المبادئ والقيم الدينية أو ما بُنِيَ على مبادئ وقيم دنيوية (في السعودية ودول الخليج الأخرى يمكن أن تبدو فورة النفط في السبعينيات ازدهاراً، إلا أنها في واقع الأمر ستار يُخفي مشكلاتٍ شتى، كما اتّضح بعد الهجوم العراقي).

وقعت الشعوب في حيرة، فلم تعد تدري ماذا عليها أن تفعل ولمن تتوجه. شعرت بأنها خدعت تماما. فالوعود التي بذلت لها لم تتحقق. لقد أُرغِمت على التخلّي عن عاداتها التي كانت تبعث على الطمأنينة، ولكنها لم تفز إلا بنمط حياة أكثر بؤساً من ذي قبل! ولقد كانت تلك هي الفرصة المناسبة ليعود التقليديون إلى البروز من جديد ليستنزلوا «اللعنة» على مادية الغرب، صنيعة الشيطان، وليشيدوا بالإسلام «الحقيقي» وعظمته الروحانية، وليتّهموا التحديثيين بالتحالف مع «الكفّار» من أجل هدم الدين الإسلامي، وليعلنوا أن الله يعاقب المسلمين لأنهم هجروا الشريعة. لذا يجب إعادة تطبيق الشريعة والعودة بأقصى سرعة إلى الأصول، وحمل علماء الدين وفقهائه إلى سدّة الحكم، ...الخ.

مع صعود الحركات الإسلامية، كثُرَ الكلام عن قوة الإسلام التعبوية؛ وهذا كلام غير مطابق لواقع الأشياء. كل ما هنالك أن المسلم المعاصر، حينما يبقى في إطار التفسيرات الدينية المتزمّتة كما صاغها فقهاء القرن الثاني عشر، يرى العالم المحيط به اليوم شديد التعقيد. في حين أن الخلط السائد بين مجالَيْ السياسة والدين كان يجعل وجوده وبسيطاً وحياته بسيطةً، وكان يجد في عقيدة القرن الثاني عشر «الكلاسيكية» يقينيات وحلولاً فورية جاهزة لمشكلاته.

تعقيدات الحضارة التقنية

بهذه الأدوات الفكرية الدينية يُطلَبُ من المسلم المعاصر أن يشق طريقه وسطَ أدغال العالم الحديث المعقد: في المصنع، في مجال الزراعة الممكنة و«البيولوجية»، في التراتبية البيروقراطية المتجذرة في غابات المدن المكتظة بالسكان، في متاهات القوانين والأنظمة المعقدة، في تشابك المعارف المتخصصة، ...الخ.

مقابل تعقيدات الحضارة التقنية تنبعث في ذهن المسلم بساطة المجتمع التقليدي، فيهفو إلى التوازن المفقود، ويصبو إلى الانسجام المنشود. كل مكوّنات انتمائه الجمعي السابق كانت منسوجة من عقائد ومؤسسات بسيطة وشرائع واضحة ومواد مشغولة بالأيدي، وكانت رمزيتها الفعالة الواضحة تُسهِمُ في الاستقرار العام، وتحفظ الجماعة والفرد، وتوفر للجميع راحة البال، وتقيهم من الهواجس والقلق[1].

في القاهرة وطهران شاهدت بنفسي فلاحين جاؤوا من أقصى أقاصي الأرياف لحضور محاكمة أو لإجراء معاملة إدارية، يجرجرون أذيال البؤس، طيلة أسابيع، في ردهات المباني الإدارية وممراتها الموحشة، بانتظار صدور حكم أو الحصول على ترخيص إداري.

كيف لنا أن نعجب إذاً من المفعول السحري الذي تُحدِثُه الدعاوى الأصولية على بشرٍ هذه هي ظروف حياتهم ومعيشتهم؟ كانت إحدى الحجج التي داورها الخميني هي، بالضبط، المقارنة بين سرعة العدالة الإسلامية وبين بطء الإجراءات القضائية ومسارها الطويل في البلدان الغربية: بضع ساعات في مقابل عدّة شهور بل سنوات!

١- جان سرفييه، **تاريخ الإيديولوجيات** (بالفرنسية): Jean Servier, Histoire des idéologies، في الكتاب الجماعي **تاريخ الأخلاق والسلوك** (مرجع مذكور).

إن العودة إلى بساطة الماضي تُغوي جماهير الناس التي تخاف من تعقيد الحياة المتزايد، فتهرع إلى ركوب آلة ارتقاء الزمن المعكوس التي يقودها الأصوليون، آملين في استعادة العصور المجيدة، حيث كان طول الدورة المدرسية كلّها لا يتجاوز بضع سنوات، وحيث لم تكن هناك حاجةٌ إلى شهادات اختصاص ودورات تأهيل خاص للعمل في مجال محدّد، وحيث كانت المحاكم تبتُّ في القضايا خلال دقائق، وحيث لم يكن الزواج والطلاق بحاجة إلى مداولات طويلة...

ولكن ما أن تبدأ الرحلة إلى فردوس الماضي المفقود، حتى يتذكّر المسلم بذهول الامتيازات المادية التي كان ينعم بها، فيحنّ إليها، ويختلط عليه الأمر، ولا يعود يدري أين هو؟ وماذا عليه أن يفعل؟ والنتيجة المحزنة هي: إنه المخدوع على الدوام! فأين الحقيقة؟ خيبة أمل كبيرة تجعله يتذكر، بقدر أو بآخر من الوضوح، أن أسلافه في عصور الإسلام الأولى، التزاماً منهم بوصيّة النبي وصحابته، سلكوا الطريق المعاكس، فوصلوا إلى الثروة والقوة: قايض بدو القرن السابع بساطة عاداتهم القبلية البدوية بتعقيد حضارتَيْ الفرس والبيزنطيين!

حدثَ ما يُشبه ذلك في القرن الثاني عشر. فقد عجّل تزايد المدن وتوسعها السريع، وتطوّر أساليب الزراعة، ونموّ الاقتصاد النقدي، والتقدّم العلمي، والرهافة الفكرية، بالإضافة إلى عوامل أخرى كثيرة، عجّل ذلك كلّه في تعقيد بيئة المجتمعات الإسلامية. كذلك فإن الدعوة التي أطلقها علماء الدين الأصوليون للعودة إلى الماضي ورفض التجديد والإبداع وجدت أرضاً خصبة، ولاقت تجاوباً واسعاً بين الجماهير.

أما اليوم، فقد باتت المشكلة أشدّ صعوبةً، بسبب تواصل مناطق العالم، والتقدّم المستمرّ في المواصلات والاتصالات الذي يعزز التبعية المتبادَلة بين مختلف أجزائه. ويحسب المسلمون أنهم معاصرون للغربيين، لمجرّد أنهم يستخدمون الأدوات الحديثة نفسها ويشاركونهم الإعلام نفسه... وهم يميلون إلى

الخلط بين مشكلاتهم ومشكلات البلدان المتطوّرة. ويُثير المسلمون المحافظون استغراب من يحاورهم، حينما يُدلون أمامه بحجج من نوع: «ولماذا علينا أن نأخذ عن المجتمع الغربي وأن نقلّده، ما دام الغربيون أنفسهم يوجّهون سهام النقد إلى مجتمعاتهم بالذات؟». لقد قرأ الأصوليون المعاصرون فكر شبنغلر (أو سمعوا به)، وهم يكنّون تقديراً خاصاً لأنصار البيئة (الإيكولوجيين)، ويجيدون الخلط بين الأفكار ببراعة، ويجتذبون الطلاب بغية ضمّهم إلى صفوفهم... ففي إيران والجزائر لهم في الجامعات مناضلون أشاوس!

إن ما يُسمّى بـ«أزمة الحضارة» في عصرنا يبدو، للنظرة الأولى، أنه ظاهرة عامّة تشمل الكوكب جميعاً. إلا أن هذا الأمر يبقى ظاهرياً فحسب؛ فالتشابه السطحي يجب ألا يَحولَ دون النظر في العمق؛ ولا يمكن القول بأن الملالي في إيران، والإخوان المسلمين في مصر، يُشبهون يوحنا بولس الثاني والمبشر الإنجيلي بيلي غراهام(•)، لمجرّد أنهم يستخدمون التلفزيون والكاسيت والفاكس والطائرات النفاثة... ولا يمكن مقارنة مصير العامل المسلم بمصير العامل الأوروبي، لمجرّد أن دخان المصانع يلوّث الهواء في كلّ مكان[١].

•- بيلي غراهام داعية إنجيلي أميركي قدّم على مدى سنوات طويلة برنامجاً تلفونياً شهيراً تابعه ملايين المشاهدين الذين تأثروا به تأثراً شديداً. وللطائفة الإنجيلية الجديدة التي أسسها، والتي يتزعمها اليوم ابنه فرنكلين غراهام، ملايين الأتباع وهي تدعوهم إلى «الولادة من جديد». كانت لبيلي غراهام علاقات متميزة مع الشخصيات الأميركية النافذة ولاسيما مع الرئيس الأميركي نيكسون. (م)

١- راجع مقالتنا: أزمتا عصرنا (بالفرنسية):

Fereydoun Hoveyda, Les deux crises de notre temps, in Revue des deux mondes, juin 1986.

الأزمتان

الحقّ أنه إذا كانت هناك بالفعل أزمة حضارة، فهي قائمة على مستويين مختلفَين كلّ الاختلاف: في «الشمال» وفي «الجنوب»؛ فالتحوّلات الجارية في كل من المنطقتين، لا يوجد بينها أي قاسم مشترك. في الغرب، ثورة علمية وتقنية جديدة تضع الناس في آفاق المعلوماتية والروبوتية (الآلات التي تعمل عمل البشر وتحلّ محلّهم)، أما العالم الإسلامي (وجملة العالم الثالث) فيشهد اليوم آخر اختلاجات المجتمع القروسطي أمام ظهور التصنيع والزراعة الممكننة.

يوحي تشابه الخصائص الجينية (الوراثية) عند البشر، وكذلك تشابه المشاعر الإنسانية، بأن ردود الفعل تتشابه في «الشمال» كما في «الجنوب». لكنها تعبّر في الواقع عن اهتمامات ومشاغل مختلفة اختلافاً تاماً. إن نقد العلم والتكنولوجيا في الغرب لا يهاجم فوائدهما وشرعيتهما (كما فعل فقهاء المسلمين في القرن الثاني عشر)، بل ينصبُّ على المبالغة وتخطّي حدود معيّنة. وباستثناء قلّةٍ من المفكرين أصحاب الرؤى الخاصة، لا ينادي أحدٌ في الغرب برفض العلم. هناك ولا ريب، من يدعو إلى العودة إلى الوراء، لكن هؤلاء لا يدعون الناس إلى العودة إلى القرون الوسطى، بل إلى البقاء في ما قبل العصر النووي فحسب! على أن الأصوليين الغربيين لا يتجاوزون في العدد بضع جماعات صغيرة، كجماعة جيم جونز مهندس عملية الانتحار الجماعي الشهيرة(•). والجماعة

•- جيم وارن جونز هو مؤسس طائفة «معبد الشعب» التي نفذ ٩١٤ شخصاً من أعضائها عملية انتحار جماعي بتناول السم تحت إشراف جونز نفسه (بينهم ٢٧٦ طفلاً) في ١٨ نوفمبر-تشرين الثاني ١٩٧٨ في «جونز تاون» في ولاية غويانا الأميركية. وكان جيم جونز في عداد المنتحرين ولكن برصاصة في الرأس. (م)

الأكثر شهرةً وانتشاراً هي جماعة «مون»(•) في الولايات المتحدة، لكنها لا تشكل، على حدّ علمي، خطراً على البلاد. ثم إن الأكثرية الساحقة في الغرب تعي وعياً تاماً، وهي على أبواب الألف الثالث للميلاد، أنه يستحيل عليها أن تُدير ظهرها للتقدّم. فالتسليم بكونية منطق العلم يؤلف جزءاً لا يتجزأ من مناخ الحياة التي يعيشها الغربيون. وقد يمكن لبعضهم إبداء الأسف تجاه بعض جوانب تقدّم العلم، ولكن لا يمكن إبداء الأسف تجاه تقدّم العلم بالذات، والمناداة بوقف هذا التقدّم! هناك بالتأكيد، وعلى الدوام، أشخاصٌ يهولّون ويتباكون ويصيح واحدهم، على حدّ قول صديقي جاك برجييه(••): «أوقفوا العالم، أُريد أن أنزل»!

بالمقابل، بقيت الأوهام حيّةً في «الجنوب». لقد استخدم أصحاب السلطة

•- حركة دينية أسسها القس الكوري صن ميونغ مون، الذي يزعم أن السيد المسيح خاطبه وهو في سن السادسة عشرة في قريته القريبة من بيانغ يونغ عاصمة كوريا الشمالية، وطلب إليه توحيد الكنائس المسيحية على أن تكون كنيسة التوحيد في كوريا، وأنه الوحيد القادر على فهم التوراة وأن الله خلق قبل كل شيء اليهودية في إسرائيل. انتقل مون إلى نيويورك أثناء الحرب الباردة، فجعلها مقراً لطائفته المنغلقة التي يعدّ أتباعها حوالي ١٨٠ ألفاً ينتشرون في الولايات المتحدة واليابان وكوريا. كانت له صداقة متينة مع الرئيس نيكسون، وتربطه صلات بالزعيم الكوري الشمالي الذي بنى له كنيسة ومنتزهاً في مسقط رأسه. يمتلك مشاريع اقتصادية واسعة منها شركة إنتاج سيارات «باندا» ويرأس مؤسسات إنسانية عدّة، كما تترعم زوجته «الاتحاد النسائي من أجل السلام العالمي». بلغت أرباح الطائفة من الأشياء المقدسة التي باعتها بين عامَيْ ١٩٨٠ و١٩٨٧ أكثر من عشرين مليار دولار. وقد تشكلت هيئة تضم محامين من جميع أنحاء العالم للدفاع عن حقوق الذين كانوا ضحايا هذه الطائفة. (م)

••- جاك برجييه ولد العام ١٩١٢ في أوكرانيا وحاز الجنسيتين الفرنسية والبولونية. مهندس في الكيمياء وصحافي وكاتب بالفرنسية. أحبّه جمهور قرّائهٔ لتنوّع معارفه الذي ظهر في نتاجه المتعدد الاختصاصات. كان له إسهامٌ بالغ في تقدّم الخيال العلمي. من مؤلفاته «**صباح السحَرَة**» Matin des Magiciens توفى العام ١٩٧٨.

والامتيازات سلاح الدين، كما استخدمه المحرومون والمتمردون لتحقيق أهدافهم. فأصحاب السلطة يجدون في تفسيرات الفقهاء خيرَ وسيلة لتعبئة الناس من أجل حماية مصالحهم؛ كما يجد فيها معارضو السلطة أداةً لتعبئة الناس من أجل الاستيلاء على مقاليد الدولة. حتى في هذا الجزء من العالم، بات الرجوع إلى الوراء مستحيلاً؛ فقد جرى التاريخ، والتاريخ لا يسير عكس مجراه، أمسلماً كان أم غير مسلم. وملالي إيران الذين يتحدّثون اليوم عن «الاعتدال» و«إعادة الرهائن إلى أهلهم، أدركوا ذلك صاغرين. كما أن السعوديين باتوا مقتنعين بضرورة إجراء إصلاحات دينية، بعد سبعين عاماً من الوهابية.

إن تكاثر الجماعات من مختلف الانتماءات في الغرب، والنجاح المؤقت الذي يلقاه الأصوليون في بعض البلدان الإسلامية، لا يغيّران شيئاً في جوهر المسألة؛ فاستبدال التمارين الرياضية السويدية برياضة اليوغا أو التطبيق الدقيق للشريعة، لن ينفعا في ضمان راحة بال المؤمنين.

من الطبيعي، ولا ريب، أن تتمسّك الشعوب بتراثها وتقاليدها، وأن تسعى إلى الحفاظ على الأساسي منها، وهي تسير طردا مع تقدمها في اتجاه المستقبل. لكن التراث لا يبقى حيّاً إلا بفعل نهضة روحية دائمة، لا بالرجوع إلى الخلف. لا أزال أذكر حواراً مطوّلاً حول هذا الموضوع مع هنري كوربان، الذي تعمّق في دراسة الإسلام الإيراني والتصوّف(•). جرى هذا الحوار في طهران، في حديقة المعهد الفرنسي. قال لي كوربان إن استعادةَ التراث على نحوٍ «آليّ» تؤول إلى ما يتنافى مع روح الدين، بل إلى كوارث: «إن الفكر التراثي لا يبقى

•- التصوّف أو الصوفية نزعة إنسانية، يمكن القول بأنها ظهرت في كل الحضارات، وإن بأشكال مختلفة. والتصوّف يعبر عن شوق الروح إلى الاستعلاء على قيود المادة وكثافتها، وسعيها الدائم إلى تحقيق مستويات عليا من الصفاء الروحي والكمال الأخلاقي. ولم يكن المسلمون استثناء من هذه القاعدة، فقد ظهر التصوف لديهم مثلما ظهر لدى من سبقهم أو عاصرهم من الأمم.

فكراً، إلا إذا كان إبداعياً خلاقاً، و... في غياب هذا الفكر الخلاق، لا يعود التراث سوى موكب جنائزي»[١]. وقد سمعتُ البانديت جواهر لال نهرو يقول في مؤتمرٍ في الأمم المتحدة، ردّاً على سؤالٍ طرحه أحد المندوبين، إن حكومته تدرس بعناية فائقة عناصر التراث الهندي، لكي تتبيّن أيّ العناصر منها هو الذي يُعيق تقدّمَ البلاد وتطوّرها!

التراث والهوية

تُعيدنا مشكلة التراث إلى التساؤل الذي طرحه أردني بارز، ذكرته في آخر الفصل السابق: «هل يمكن لنا أن نشق طريقنا إلى الحداثة من دون أن نهلك؟». بكلامٍ آخر، كيف يمكن التوفيق بين مقتضيات العالم الحديث ومتطلّبات التراث؟ لقد خابت مخططات الساعين إلى التطوير والتنمية، لأنهم لم يُجيبوا عن هذا السؤال.

بحسب الخبراء، لا يمكن الحفاظ على الهوية الثقافية لشعب من الشعوب، عندما تُنقَل إليه التكنولوجيات الحديثة[٢]. برغم ذلك، يأمل المسلمون في إخضاع الجديد للموروث، وفي أن يتغيروا من دون أن يتخلّوا عن قيمهم. ألا يُشبِه هذا المشروع، من حيث استحالته، مشروع تربيع الدائرة؟ الجواب: نعم ولا في آن معاً: نعم، إذا اعتبروا أن قيمهم هي تلك التي حدّدها الفقهاء في القرن الثاني عشر؛ ولا، إذا عرفوا كيف يستعيدون الحالة الفكرية لأسلافهم قبل «العطل الكبير» الذي أصاب الإسلام.

١- هنري كوربان: **في الإسلام الإيراني** (بالفرنسية):

Henry Corbin, En islam iranien, tome III, Paris, 1972.

٢- روبير بوشيه وكلير لوران، في الكتاب الجماعي **تاريخ الأخلاق والأعراف** (مرجع مذكور).

والحق أن التراث لا يتنافى بالضرورة مع التجديد والتغيير. لقد أجاد كاتبٌ مغربيٌّ معاصر، هو عبد الكبير الخطيبي، في شرح ذلك؛ فالخطيبي يرى أنه لا يمكن شقّ طريق التحوّل إلى الحداثة، من دون الاضطلاع بالتراث بكل «مسؤولية وحسّ نقدي». ويلاحظ الخطيبي، في سياق تعريفه بهوية «الإنسان العربي» الثقافية، أنه يخضع، بوصفه مغربياً، لتأثيرات الماضي ما قبل الإسلامي والإسلامي والبربري والعروبي وحداثة الغرب. والمطلوب، من وراء تعداد مراحل الماضي هذه، هو التفكير في الوحدة الممكنة بين هذه المكوّنات جميعاً، وهي وحدةٌ ينبغي لها أن ترتضي بإسهام كل جزء من أجزائها، وأن تسعى في الوقت نفسه إلى إشاعة التوازن داخل الكل بين الأجزاء جميعاً. وعلى الفرد أن يقبل ويجهر بالهوية المتعددة التي تؤسس وجوده؛ وبذا، تكثر محاور التفكير والعمل. لكن القابضين على زمام الأمور يرفضون هذه النظرة إلى الهوية، لأنها تُدخِل في المجتمع «فكر الاختلاف»، الذي يرى فيه الفقهُ الديني القائم على مبدأ «الوحدة الضرورية بين المؤمنين جميعاً»[١] خطراً على هذه الوحدة، وخطراً على النزعة الاستبدادية وعلى أنظمة الحزب الواحد!

التعدد في الوحدة. إن الوعي بالتعددية لدى الإنسان يزوّده بفهم جديد لمسألة صون الهوية الثقافية والحفاظ عليها. كان الجدال الدائر حول التناقض بين الحداثة والتراث يبلبل الأذهان، وينتهي على الدوام إلى تعزيز مواقف الأصوليين. وكان الذودُ عن حياض الهوية يُرسي أسس الجمود والمحافظة. فثمة قائلون بأن الإسلام يمكن أن يكون «خشبة خلاص ثقافي»[٢]. لكن ينبغي أولاً معرفة أي إسلام هو المعني بالأمر؟ وإلى أي تفسير لاهوتي يستندون في رؤيتهم لهذا الإسلام؟ أما الاكتفاء بتصوير الدين على أنه «مذهب إنساني» (humanisme)

١- أوضح عبد الكبير الخطيبي أفكاره هذه، في حديث أجراه معه الطاهر بن جلّون في صحيفة «لوموند» (١٥/٢/٧٨).

٢- العبارة لميشال جوبير Michel Jobert وزير خارجية فرنسا سابقاً.

من دون أي تحديد، فذلك من قبيل اللعب على جميع الحبال في آن واحد، ومحاولة لإرضاء الأصوليين والليبراليين جميعاً!

لتبيُّن نتائج هذه البلبلة. يكفي أن نُعيد إلى الأذهان ردود الفعل الأولى على أحداث إيران ١٩٧٨-١٩٧٩. يرى مراقب نبيه، هو جورج قرم، أن النزعة «العالمثالثية» لدى مثقفي اليسار الأوروبيين والأميركيين، عندما ذهبت «موضتها»، بعد فشلها في فيتنام وكمبوديا، وجدت متنفّساً لها في الإسلام بعامة، وفي الخمينية بخاصة[١]. فقد وجد أولئك المثقفون في الإسلام، أولاً، جواب الشعب عن السؤال: «هل يجب التضحية بالهوية من أجل الرخاء المادي وحده؟» وبدأوا بالكلام عن إدخال البُعد الروحي في السياسة. ولكن عندما أخذ النظام الإسلامي في إيران يُسفِر عن وجهه القروسطي، أخذت أوساط هذا اليسار تتهم المتطرفين بـ«الاستيلاء على الثورة». وقد فاتها أن التفسيرات الغالبة التي انتصرت منذ القرن الثاني عشر كانت متطرفة على الدوام!

إن الأصوليات بمختلف أشكالها، سواء منها أصولية الأخوان المسلمين والوهابيين السعوديين أو ملالي إيران وأحزاب الله أو أصولية الإسلاميين الجزائريين والتونسيين، ليست استثناءً لقاعدة لست أدري ما هي. فهي تجلّيات رجعية لفقه ديني معيّن مفروض فرضاً مفتَعَلاً، بغيةَ إحباط كل محاولات التجديد في العالم الإسلامي. وهي ناجمة مباشرةً، إلى هذا الحدّ أو ذاك، عن «تعطيل» وتجميد المجتمعات الإسلامية في القرن الثاني عشر. وإذ تستسلم اليوم هذه المجتمعات لشعار «العودة إلى الأصول»، تتّخذ لنفسها «هويةً زائفةً»، أو تكتسب في أدنى الأحوال شخصيةً مفقَرَة ومشوَّهة. وستودي تلك الأصوليات بشعوبها، التي عانت من قياداتها الأمرّين في الماضي، إلى المآسي والويلات زمناً طويلاً. ويكفي للتأكّد من ذلك أن ننظر إلى نتائج ما فعله مشروع «الأسلمة» في إيران والسودان وباكستان... كما يمكن التساؤل أيضاً، عن المصير الذي كان يمكن أن تؤول إليه السعودية وإمارات الخليج لولا فورة النفط في السبعينات.

١- جورج قرم: **أوروبا والشرق** (مرجع مذكور).

هوية المسلم في عصرنا هذا، شأنها شأن أسلافه في القرون الأربعة الأولى للإسلام، تتضمّن وجوهاً عدة صاغتها العلاقات التي لا بد منها مع الأجنبي. إن السبيل الإيجابي الوحيد أمام المسلم المعاصر هو أن يتّبِعَ أسلافه في القرون الأولى، مادّاً الجسور بين مختلف مكوّنات شخصيته. والحداثة، بالضبط، هي أحد تلك المكوّنات!

لقد بذل الأردنيّ البارز، الذي ورد ذكره أعلاه، قصارى جهده للتوليف بين هويته الإسلامية وتربيته الغربية، ولم يُفلِح. وما يسعى إليه المسلم، ولا ريب، هو التوفيق بين متطلّبات الحداثة ومعتقداته الدينية. ولكي ينجح في مسعاه، مرةً وإلى الأبد، ولكي يجد حلاً أصيلاً ومثمراً يتوافق مع مكوّنات شخصيته كلّها، عليه قبل كل شيء أن يتجاوز «العطل» الذي حدث في القرن الثاني عشر. عليه ألا يخلطَ بين «المعتقدات» وبين «آراء» أشخاص صارت بمثابة أحكام وقوانين.

من النقيض إلى النقيض

إزاء شطط الأصوليين وتطرّفهم، ذهب بعض المفكرين الغربيين، بل حتى بعض المفكرين الشرقيين، إلى حدّ الهجوم على الدين، من حيث هو دين؛ فرينان مثلاً، في محاضرته الشهيرة عام ١٨٨٣، اتّهم الإسلام بأنه لا يتوافق مع العلم والتقدّم. لا جديد في ذلك. ففي القرن الثاني عشر انتشر في الأندلس كتابٌ لا يحمل اسم المؤلف، يحمل عنوان: «الخدع الثلاث»، كان فقهاء المسلمين ينسبونه إلى ابن رشد، ونسبه بابا الفاتيكان، فيما بعد، إلى ملك صقلية فردريك الثاني. وقد انتشر هذا الكتاب الصغير على نطاق واسع في إسبانيا وأوروبا، على الرغم من منعه، ومن سيف القتل المسلّط فوق رأس من يقرأه.

يحمل هذا الكتاب الغفل من اسم المؤلّف بعنف على الديانات الثلاث، وينعت أنبياءها بالمحتالين، وينتقد «الرسالات الثلاث» والشرائع والشعائر، ويصفها بأنها اختراعات بشرية أُعِدَّت خصّيصاً لتسويغ حركاتٍ سياسية قادها

موسى وعيسى ومحمد. فبعد أن يحلّل الكاتب النصوص المقدّسة تحليلاً دقيقاً، ينتقل إلى التهكّم بسخرية مقذعة على ممارسات الديانات جميعاً، ويجعلها أضحوكة للقارئ؛ فيهزأ مثلاً من «التصنّع المضحك والتشدّد الشرس» اللذين يميزان اليهودية، ومن «عته» المسيحية التي تجعل لله زوجةً وولداً، ومن «العبادة التافهة، والوحشية غير الخاضعة لأية رقابة» في الإسلام. بعد ذلك، يدعو المؤمنين إلى ممارسة ما يُمليه عليهم حسّهم السليم، وإلى التساؤل عمّا إذا كانت الديانات الثلاث قد حَسّنت شيئاً من مصير البشر، وعمّا إذا كانت الشمس قد أصبحت «أكثر دفئاً»، والظلم «أقل قسوة»، والفضيلة «أكبر قيمة». ويجزم المؤلف أن هذه الأديان كانت، خلافاً لذلك، لا تجلب إلا المصائب والحروب والكوارث. من البديهي أن يُثير هذا الكتاب، الذي كان يتمّ تداوله سراً وخِفيَةً، فضيحةً كبرى؛ فقد كان يقضّ مضاجع الفقهاء ويزعزع قناعات الناس، على امتداد قرون عدّة، على الرغم من القمع الشديد.

أما اليوم، فلا يوجد إلا عدد ضئيل جداً من الكتّاب الإيرانيين الذين يحضّون على التخلّي عن الإسلام، هذه العقيدة «الغريبة» التي فرضها الفاتحون العرب فرضاً على شعبهم. وليس هذا الموقف بجديد على أية حال؛ فتاريخ إيران، بعد دخولها الإسلام، حافلٌ بالأمثلة على ذلك. ومن التاريخ الحديث، وحده، أذكر أولاً المؤرّخ خسروي Kasravi الذي اغتاله «إسلاميٌّ» داخل قاعة المحكمة، بناءً على «فتوى» دينية (شبيهة بفتوى الخميني ضدّ سلمان رشدي). حدث ذلك في العام ١٩٤٥؛ بعد أن كانت الحكومة وجّهت إليه تهمة «شتم الإسلام»! مثلٌ آخر: الروائي صادق هداية، المعروف بروايته «البومة العمياء»[١] التي صنّفها أندريه بريتون[•] في عداد روائع الأدب العالمي العشرين الأولى.

١- نقله إلى الفرنسية روجيه ليسكوت: Roger Lescot, éd. José Corti, Paris, 1956.

•- وُلِد الكاتب والشاعر الفرنسي أندريه بريتون العام ١٨٩٦ وتوفي العام ١٩٦٦. أسس الحركة السوريالية التي عاشت بنظرياته وانطفأت بموته فلم تعِش من بعده إلا قليلاً. ⇦

لقد عزز نظام الخميني الإسلامي هذا التيار المضادّ للإسلام، وجعله يتعدّى أوساط الأدباء والمفكرين ليشمل قطاعاتٍ أخرى من المجتمع الإيراني[١]. ومهما يكن من أمر، فإن أصحاب هذا الطرح ينسون بسهولة أن الإسلام طبع بطابعه ثقافة إيران السالفة، وأن إيران نفسها تركت بدورها بصماتها الواضحة على الحضارة الإسلامية. وهل ينبغي التذكير بأن عدداً كبيراً من الفلاسفة والعلماء المسلمين كانوا إيرانيين؟

لستُ أُشير هنا إلى الأصل الإيراني للعديد من المفكرين المسلمين بدافع من التعصّب القومي، وإنما لأن مثالهم يمكن أن يساعد في الإجابة عن أسئلة الهوية التي تُشغل بال المسلمين اليوم. وبالفعل، كان هؤلاء المفكرون يكتبون بالعربية والفارسية: فهم لم يكتفوا بالحفاظ على لغتهم الأصلية، الفارسية، بل لم يكفّوا أيضاً عن إثرائها كما أثروا اللغة العربية. لذا، فقد أفلحوا في الحفاظ على «هويتهم الثقافية»، أو بالأحرى على «مقوّم» من مقومات شخصيتهم، وأسهموا في تقدّم الثقافة الإسلامية، من دون أن يُهلِكوا أنفسهم.

⇦ تأثر كثيراً بكتاب لوتريامون «**أناشيد مالدورور**» وتريستان تزارا مؤسس الدادائية. انضم في صباه إلى الحزب الشيوعي مع صديقيه لوي أراغون وبول إيلوار. وكان بول فاليري قد أطلق لقب «الفرسان الثلاثة» على بريتون وأراغون وفيليب سوبو مؤسسي المجلة الشعرية «ليتيراتور» (Littérature أدب). في العام ١٩٢٤ أصدر بريتون كتابه المعروف «بيان السوريالية».

١- ولاسيّما في الأرياف. راجع على سبيل المثال مداخلة البروفسور رينولد لوفلر، المبادلات الاقتصادية في الأوساط الريفية منذ العام ١٩٧٩، في الكتاب الجماعي **الثورة الإيرانية والجمهورية الإسلامية** (بالإنجليزية):

Pr. Reinhold Loeffler, Econolic changes in rural areas since 1979, in The Iranian Revolution and the Islamic Republic, Washington, 1982.

مثال على التحوّل مع مراعاة التراث

سأروي، في ما يلي، حادثةً غير معروفةٍ كثيراً في الثورة الإيرانية الإسلامية (١٩٧٩): فما أن تسنّم الخميني سدّة الحكم، حتى قرّر، بالاتفاق مع عدد من الملالي، وجوب محو آثار الثقافة ما قبل الإسلامية في إيران – وهي ما زالت مبثوثةً في المجتمع – ووجوب استئصالها من الأذهان. وقد بدأ الخميني نفسه بنقد الاحتفال بعيد رأس السنة الإيرانية (النوروز) الموافق لبداية الربيع، وهو احتفال راسخٌ منذ أقدم العصور. فما كان من بعض الملالي المتحمّسين إلا أن أوكلوا إلى بعض الجرافات مهمّة تدمير الآثار المتبقية من قصر برسبوليس (المدائن)! لكن هذه المهمة لم تُنفَّذ؛ إذ هبّ الشعب هبّة واحدة وأحبط مشروع السلطات وأقعدها عن تنفيذه! وتولّى صغار السنّ في حاشية الخميني لفتَ نظر هذا الأخير إلى صعوبة الأمر، وذكّروه بأن أن جيوش المسلمين العرب الظافرة لم تقوَ على تغيير التقاليد الإيرانية العريقة.

لئن كان الإيرانيون قد نجحوا في صون هويتهم الثقافية، فلماذا لا ينجح سواهم في التوفيق بين «الحداثة» و«المقوّمات» الأخرى التي تكوّنهم؟ إن تجربة فارس القديمة الناجحة تدل بوضوح على الطريق الصحيح. وما يدعو إلى الأسف أن الكتّاب الإيرانيين، في ذلك الزمن، لم يتوسّعوا في شرح هذه المسألة؛ ولا يبدو أصلا أنها كانت مطروحةً في نظرهم. ولو عادوا اليوم إلينا واطّلعوا على أحوالنا، لهالتهم، ولا ريب، مشكلات الهوية، ولعجبوا لوجود مشكلات تكيُّفٍ مع العصر الحديث. لقد عاشوا في زمن لم يكن فيه العرب يُرغِمون أحداً على تغيير انتمائه الديني (فالعرب كانوا متسامحين مع اليهود والمسيحيين، ويوفرون لهم الحماية لقاء ضريبة إضافية). وحين حاول والي مصر أن يمنع الناس من اعتناق الإسلام، كان ردُّ الخليفة عمر الثاني (٧١٧-٧٢٠) أن لا

شيء أبهجَ إلى النفس من رؤية مصر كلها تدخل في الإسلام، لأن «الله بعث رسوله هادياً، لا جابيا». وهذا ما يثبِت أن العرب كانوا يأملون في أن يختارَ الناسُ الإسلامَ من تلقائهم بلا إكراه. في ظلّ تلك الظروف، لم تكن مطروحةً مسألةُ الدفاع عن الهوية، في وجه مخاطر تتهدّدها. وإنما الأصولية هي التي ابتدعت، في القرن الثاني عشر، شعار «الإسلام في خطر».

والواقع أن الفرس كانوا يدركون أنهم دخلوا التاريخ قبل العرب، وأنه كانت لهم ثقافة أكثر رهافة. وعندما كانوا يعودون إلى تاريخهم القديم ما كانوا يجدون حقبة جهلٍ ووثنية (كتلك التي يسميها القرآن الجاهلية)، بل كانت تطالعهم ميثولوجيا غنية، وتعاليم زرداشت الذي حمل رسالةً سماوية إلى البشر. ولئن يكن التراث الفارسي قد دام واستمر، برغم كل شيء، فلأنه كان تراثاً حيّاً! لقد أقام الشاعر العربي العتّابي (المتوفى عام ٨٢٣) زمناً طويلاً في إيران لأنه كما قال: «إنما في كتب الفرس نجد أفكاراً، أما العرب فلا يعرفون إلا البلاغة واللغة الفصحى»[1]. وعندما اعتنق الإيرانيون الإسلام لم يتخلّوا إلا عن «الثقل الميت» في ثقافتهم، ولذا انتعش الفكر لديهم وازدهر العلم. فالتراث يُشبِه الجسم البشري: فحتى يبقى حياً، عليه أن يتخلّص من خلاياه الميتة!

يُقال عادةً إن الصعوبة ناجمة عن كون الإسلام هو في آن دينٌ ودنيا، أي منظومة من المعتقدات ونمط الحياة. يقول الأردني البارز الذي سبق ذكره إن «الدين والمجتمع في إسلامنا يمتزجان، فلا وجود لأي منهما إلا بالوحدة الوثقى بينهما؛ فهل يمكن لنا أن نشق طريقنا إلى الحداثة من دون أن نهلك؟». هل يعني ذلك أن هناك تنافراً بين العلمانية والهوية الإسلامية؟

١- ذكره فون غرونباوم في مقالته بدايات الوعي الثقافي في الإسلام (بالفرنسية): Les débuts d'une prise de conscience culturelle dans l'islam، وأعاد نشرها في كتابه **هوية الإسلام الثقافية** (مرجع مذكور).

التوفيق الممكن

حذار من الألفاظ ومن حدود مدلولاتها الضيّقة: إذ ما الهوية الإسلامية؟ هذه مقولة جرت صياغتها على مراحل، عُدِّل فيها وبُدِّل، إلى أن استقرّت وجمدت في القرن الثاني عشر. كذلك ارتبطت العلمانية الغربية بدورها بأحداث معينة، وقد تطوّرت هي الأخرى. أنعرّفها بأنها الفصل بين الكنيسة والدولة؟ ولكن لا توجد كنيسة في الإسلام... ثم إن مؤسسة مثل الخلافة، ألا تفصل بين الحكم والدين؟ والواقع أنه، بعد وفاة النبي، لم يعدْ بمِكْنة أحد أن يُشرِّع: فالخليفة لا يملك سوى سلطة تنفيذية، ولا يسعه الفصلُ في المسائل الدينية. ثم إن الفكرة القائلة بأن من يمارس الحكم لا يكتب الخلاص لنفسه في الآخرة أمست مقولة شائعة في الأعراف الشعبية[١].

تحدّث الأردني البارز عن «استحالة التوفيق» (بين الإسلام والحداثة) على الرغم من رغبته في أن «يعيش عصره». بصدد هذه العبارة بالذات، هناك ما يمكن أن نتعلّمه من هنري كوربان. إنني أحاول دوماً ألا أُطيل في إيراد الاستشهادات، لكن مع هنري كوربان، هذا العالم العلامة الذي غيّبه الموت، لا يسعني إلا أن أكون سخياً. فليتحلَّ القارئ بالصبر، وليتفضّل بقراءة المقطع الطويل التالي، الذي أحسب أنه يقدّم حلاً ممكناً للمعضلة التي طرحها الأردني البارز: «... من سيمنح هذه النفس الإسلامية الوعيَ وقوة الوجود والقدرة على عيش زمنها؟ ولا أعني زمن الجماعة المبهم، بل أعني زمنها الذاتي الخاص، زمنها الوجداني، حيث يتأكد معنى العقيدة وحقيقة وجودها، لا من خلال عودتها إلى هذه اللحظة أو تلك من ماضٍ مضى وانقضى، ولا من خلال الانتساب إلى هذه أو تلك من الخصوصيات الاجتماعية البائدة، بل من خلال اضطلاعها، هي ذاتها، بمسؤوليات ذاتها والنهوض بها؟ مع العلم بأن روحانيي الإسلام كانوا

١- المرجع نفسه.

صوّروا بأجلى الصور الفرق بين الزمن التاريخي الخارجي وزمن النفس، وكانوا يعرفون حق المعرفة أن التراث لا يُتوارث حياً نابضاً إلا بزمن النفس، أي الزمن الوجداني، لأن التراث إلهامٌ يتجدّد باستمرار، وليس موكباً جنائزياً أو سجلاً من الآراء المتوافقة. حياة الأمور الروحية وموتها يدخلان في نطاق مسؤوليتنا، ولا يعودان إلى الماضي إلا إذا استقلنا من المسؤولية ورفضنا التحوّلات التي يُلقيها على عاتقنا إبقاؤهما في الحاضر. ليست المسألة إذاً مسألة "توفيق مستحيل"، وإنما هي مسألة فهم ما كان أهل الروح قد فهموه على الدوام... فعلى الدوام، كان يبدو لأهل الروح، وهذا أمرٌ عجيب حقاً، أن خطر الهلاك لا يكمن في فصل الاجتماعي عن الديني، والتمييز بينهما، وإقصاء أحدهما عن الآخر، بل ينتج بالضبط عن الخلط بين النظام الديني ونظام اجتماعي معيّن»[١].

هذه السطور الرائعة التي كتبها هنري كوربان تقدّم، في رأيي، جواباً واضحاً، لا على السؤال الذي طرحه الأردني البارز فحسب، بل على تساؤل الذين تُقلِقهم وتشغل بالهم مسألة تطوّر المجتمعات الإسلامية. وهي تُظهِر زيفَ المعضلة التي ولِدت مع انتصار الأصولية منذ ثمانية قرون ونيّف؛ فهي تعلن حقيقةً ينبغي لها أن تكون واضحةً للعالم أجمع: ليس الذين يُمسكون بمقاليد التحديث في المجتمعات الإسلامية هم الذين يجرّون عليها الويلات والمصائب، وإنما فقهاء الشرع هم الذين يفعلون ذلك، من خلال الخلط الذي يفاخرون به بين الدين ونظام اجتماعي سياسي معيّن، هو ذاك النظام الذي تحجّر في القرن الثاني عشر! إن الجمود الذي فُرِض على تطوّر العالم الإسلامي، العلمي والفكري، نتج بالضبط عن الخلط المتعمّد الذي اصطنعه الأصوليون بالتواطؤ مع السلطات الحاكمة. وهذا الخلط الذي أيّده أنصار الصراطية، دفعت البلدان العربية ثمنه باهظاً، لأنه أغرقها في التخلّف، وجعلها لقمةً سائغة في فم الاستعمار والامبريالية.

١- هنري كوربان: **في الإسلام الإيراني**، الجزء الأول (مرجع مذكور).

كتب أحد المفكّرين العرب المعاصرين، بوعي حادّ: «يعتقد بعضهم أن الغزو التركي والمغولي هو الذي دمّر الخلافة العباسية وقوّض قوة العرب، بعامة. بيد أن هناك أيضاً أمراً آخر، وهو أن العرب انهزموا من الداخل، قبل أن يهزمهم المغول. ولو كان الغزو وقع أثناء فترة النهوض والانفتاح، لما كان بمِكْنة المغول أن يحققوا أي انتصار عليهم، بل لكان حدث العكس تماماً، ولكان ذلك الغزو مدّ العربَ بالمزيد من الحيوية والقوة»[1]. إن الشبان المتعلمين، وأهاليهم الذين يستسلمون لخطابات الأصوليين اليوم، عليهم أن يتفكّروا في الواقع البائس الذي من شأنه أن يزيد بلدانهم تخلّفاً، ويُبقيها في حالة التأخر التي تشكو منها.

من هذا المنظور، تبدو بعض الأسئلة من قبيل: «هل يمكن لنا أن نشق طريقنا إلى الحداثة من دون أن نهلك؟»، أو «هل ينبغي لنا التخلي عن المعتقدات والتقاليد من أجل التنمية الاقتصادية؟»... أسئلة زائفة. فهي قد نتجت في الواقع عن «تلاعب» جرى قديماً، وغايته ألا يُبقي من الدين إلا قشوره الخارجية، خدمةً لمصالح بعض الفئات الاجتماعية والعرقية، على حساب الفئات الأخرى جميعاً.

بات بمِكْنتنا، إذاً، أن نجزم بأن **تداخل الدين والحكم يشكّل اليومَ، كما كان في القرن الثاني عشر، مشكلةً كبرى في العالم الإسلامي**. فمنذ ثمانية قرون ونيّف، أفلح عددٌ من الفقهاء والحكّام في أن يرفعوا إلى مستوى «العقيدة» تفسيراً معيناً للشريعة، وتصوراً معيناً للمجتمع والحكم. وذلك في مشرق العالم الإسلامي ومغربه ووسطه. هذه «العقيدة» المزعومة هي التي تجمّدت وتعطّلت،

١- كوستي زريق، **معنى النكبة** (بالفرنسية):

Costi Zurayq, Le sens d'un désastre, Beyrouth, 1948.

يبحث الكتاب في الهزيمة العربية على يد الإسرائيليين، العام ١٩٤٨. وقد أشار إليه فون غرونباوم في الكتاب الجماعي **هوية الإسلام الثقافية** (مرجع مذكور). راجع الفصل الذي يحمل عنوان المثاقفة، موضوع الأدب العربي المعاصر (L'acculturation, thème de la littérature arabe contemporaine).

لا الدين نفسه! إن الجمود والركود ليسا من طبيعة الإسلام[1]! بل على العكس من ذلك، يمتلك الإسلام كل الطاقات اللازمة لتجاوز مواقف الفقهاء وعقيدتهم المتحجرة. فالإسلام، على حدّ قول رجل القانون المصري الكبير العشماوي، يُنكِر الحكم الديني (الثيوقراطي) ويرفض الحكومات الدينية رفضاً باتاً. وفي القرآن أن البشر، بمن فيهم النبي، لا يشاطرون العزة الإلهية في أية صفة من صفاتها، وأن أياً منهم، كائناً من كان، غير معصوم. وفي القرآن أيضاً توكيد مضاعَفٌ على أن النبي محمداً بشر كسائر البشر[2].

١- كلود كاهن، **العوامل الاقتصادية والاجتماعية في التكلّس الثقافي للإسلام** (بالفرنسية): Claude Cahen, Les facteurs économiques et sociaux dans l'ankylose culturelle de l'islam، في الكتاب الجماعي النهوض والانحطاط الفكري... (مرجع مذكور). يقول الكاتب: «لم يكن الركود عائداً إلى طبيعة الإسلام بالذات، بوصفه ديناً؛ بل، بالعكس، فقد ساعد التداخل بين الاجتماعي والديني على حدوث هذا الركود».

من المفيد، في هذا السياق، الرجوع إلى كتاب العشماوي **الإسلاموية ضدّ الإسلام** (مرجع مذكور) حيث يقول هذا القاضي المصري: «على امتداد التاريخ الإسلامي، بقيت الخلافة مؤسسة قبليّة في الإسلام، سواء عند السنة أم عند الشيعة؛ فقريش، قبيلة النبي، كانت تُصر على أن تبقى الخلافة فيها وحكراً عليها. وبالفعل، بقيت الخلافة في قريش طيلة ستة قرون. وقد أثارت مسألة الانتماء القبلي للخليفة مناظرات كثيرة.. والعقيدة الشيعية تجعل من الإمامة ركناً سادساً من أركان الإسلام، تُضيفه إلى الأركان الخمسة (السنّة): الشهادتان، الصلاة، الصوم، الزكاة والحج. والإمام معصوم بهَدْيٍ من الله؛ في حين أن النبي، بحسب القرآن، غير معصوم. في واقع الأمر، كان الخليفة (عند السنة) معصوماً على الدوام... كل نظام سياسي مرهونٌ بظروفه الاجتماعية والتاريخية... وبعد وفاة النبي، كان من المنتظَر ألا تكون الحكومة الإسلامية إلا حكومة الشعب، منبثقة عنه بالانتخاب المباشر، مفتوحة أمام مشاركته وخاضعة لرقابته ومحاسبته؛ أي باختصار، حكومة تقبل بالتغيير السياسي من دون عنف ولا تكفير».

٢- يقول العشماوي في كتابه المذكور آنفاً **الإسلاموية ضدّ الإسلام**: «(في الإسلام) لا يُشارك اللهَ في صفاته أحدٌ من البشر، ولا يمكن أن يكون أحدُ من البشر معصوماً، حتى النبي نفسه...».

تاريخ وخيال

في إزاء هذه الجمودية المخيّمة على البلدان الإسلامية، كتب في الخمسينات باحثٌ فرنسي مختصٌ بالإسلاميات، متسائلاً: «هل حُكِم على كل مجتمع إسلامي يريد أن يبقى وفياً للشريعة الإسلامية أن يلازمه الجمود والتحجّر؟ ألا توجد أحكام... تُقِرّ مبادئ أساسية، كما تُقِرُّ مبادئ أخرى، ليست ببالية ولا أكل الدهر عليها وشرب، كما يصفها أنصار الحداثة، ولكنها مطبوعةٌ بالظروف التي أملتها، مما يقتضي بالتالي أن يختلف تطبيقها باختلاف ظروف الزمان والمكان، أي اختلاف العصور والمجتمعات؟»[١].

على هذا التساؤل، يُجيب «الإسلاميون» على الفور: كلا. فالشرائع والقوانين وضعها الله مرة وإلى الأبد. وشريعة القرآن والسنة تغطي جوانب الحياة جميعاً وتحوي كل ما هو ضروري لتوجيه المؤمن وهديه في الحياة الدنيا.

لقد آن الأوان لنتوقف لحظةً عند الشريعة: ما معنى الشريعة بالضبط؟ هذه الكلمة بالذات تَردُ مرةً واحدةً في القرآن، كما ترد فيه ثلاث كلمات مشتقة منها. بحسب المستشار ورجل القانون المصري، العشماوي، لا تعني الشريعة القواعد التشريعية، بل تعني «السبيل» و«الطريق» إلى الله. فيما بعد، شملت هذه الكلمة القواعد القانونية التي يتضمنها القرآن وأحاديث النبي والتفاسير، وباختصار، «كل ما أُستُحدِث لاحقاً ليُكمِل ويوضِح هذه القواعد الأساسية التي سيقوم عليها بنيان التشريع الإسلامي»[٢].

لقد غدت الفكرة القائلة بأن القانون يجب أن يكون، كسائر الأنشطة البشرية الأخرى، محكوماً بالدين، عنصراً أساسياً في تفكير المسلمين؛ حتى أن التحديثيين

١- لوي غارديه، المدينة الإسلامية (بالفرنسية):

Louis Gardet, La Cité musulmane, Vrin, 1974.

٢- العشماوي (مرجع مذكور).

أنفسهم كانوا يشعرون بأنهم ملزَمون بالشرع التقليدي. وهذا يعني، ببساطة، إخفاء التاريخ؛ إذ لا يمكن لأي نظام حقوقي أو سياسي أن يكون شيئاً بذاته، خارج الزمن التاريخي. والحال، أن الشرع الإسلامي، بوصفه واقعةً تاريخية، قائمٌ في معظمه على التشريع الذي وضعه فقهاء العصر الأموي. يُضاف إلى ذلك أن القضاة، في ذلك العصر، كانوا يستندون إلى الممارسات الشعبية السائدة، أي ما يُعرَف بالعرف والعادة، وإلى نمط تفكير القضاة السابقين، الخ... وقد كتب أحد أصحاب الاختصاص في هذا المجال: «لقد تحوّل ذلك كلّه، بعملية وهم وتخيّل قد لا يكون لها مثيل في تاريخ الفكر البشري، إلى قوانين امتلكت سلطاناً هائلاً من خلال نسبتها إلى النبي، أو في أدنى الأحوال من نسبتها إلى صحابته»[١].

أتحدّث عن توهمٌ وتخيّل! بلى، ما دام معروفاً لنا كيف أن الكتّاب المسلمين «أمثلوا» صدر الإسلام، كي لا نقول زوّروه، عندما صوّروه نموذجاً لعصر ذهبي. وما أكثر المثقفين المسلمين المُدركين لمثل هذا التلاعب؛ يشهد على ذلك رواية الكاتبة اللبنانية الشيعية ليلى بعلبكي التي كتبت: «إن المعركة التي نخوضها داخل حدودنا الضيقة تهدف إلى فكّ طوق الوهم عن تاريخنا، عن مجتمعنا، عن دولتنا، وعن رجالنا...»[٢].

١- جوزف شاخت: **النهوض والسلفية والجمود في الشريعة الإسلامية** (بالفرنسية): Joseph Scacht, Classicisme, traditionnalsme et ankylose dans la loi religieuse de l'islam، في الكتاب الجماعي **النهوض والانحطاط الثقافي**... (مرجع مذكور).

٢- ليلى بعلبكي: **أنا أحيا**، بيروت ١٩٥٨. ورد هذا المقطع أيضاً في كتاب فون غرونباوم **هوية الإسلام الثقافية** (مرجع مذكور).

جائزة نوبل المصرية

يلعب الخيال دوراً كبيراً في العالم الإسلامي، حتى أن سرد الحكايات بات مسألة مهمةً في حياة الناس! وهذا ما يعرفه الجميع، والشاهد عليه شهرزاد و«ألف ليلة وليلة». ولا يمكن لنا من هذا المنظور أن نقيّم، وفقاً للمعايير الغربية، ثلاثية نجيب محفوظ الرائعة التي حازت جائزة نوبل للآداب. هذه الرواية العملاقة، التي تُرجِمت إلى الإنجليزية تحت عنوان «ثلاثية القاهرة» (Cairo Trylogy)، هي بحدّ ذاتها اتهام لنمط عيش محكوم بالفشل، حيث يصف الكاتب حياةَ «ربّ أسرة» قاسٍ، تنحل أواصر أسرته وتتفكّك: زوجته تعصى أوامره وتغادر من دون إذنه منزلها الزوجي؛ وابنه البكر ينخرط في العمل السياسي، ويشارك في التظاهرات ضدّ الإنجليز، وتلقى زوجته العاصية مصرعها في حادث سير، ويموت ابنه قتلاً على يد حسناء بريطانية. في الجزء الثاني من الرواية، يخرج «الأب» نفسه عن «الصراط المستقيم»، عندما يبدأ بارتياد الخمارات وبيوت الدعارة العامرة بالراقصات والغانيات؛ ويعيش ابنه الآخر أجواء طبقة الأثرياء التي ينجذب إليها وينفر منها في آن. أما الجزء الثالث فهو أشبه بنشيد جنائزي: فـ«الأب» يصاب بفالج يُقعِده في البيت، حيث يقضي سواد يومه في الاستماع إلى المذياع، وزوجته الأخرى تقضي معظم أيامها في زيارة أضرحة الأولياء الصالحين طلباً للبركة والدعاء، ثم يموت أولاده وأصدقاؤه الواحد تلو الآخر. أما الأحفاد فيشبّون ويشاركون في النضال من أجل استقلال مصر، من خلال انخراطهم في الحركات السياسية القومية والشيوعية والدينية (الإخوان المسلمين) ...الخ.

إن أسلوب الواقعية الجديدة الذي يعتمده محفوظ في سرد الأحداث ووصف شخصيات الرواية وتطوّرها على مدى ثلاثين عاماً من تاريخ مصر، يُتيح له الفرصة لإبراز التغيّرات الاجتماعية والثقافية فيها. فالنظام القديم زال واندثر

من دون أن يحل محله نظام جديد، وكأننا بين عالمين، كما في الصورة التي يرسمها الشاعر ماتيو أرنولد Matthew Arnold في إحدى قصائده: «عالَمٌ يحتضر كعالم مات وعالمٌ تتعذر ولادته»! وهكذا يُلقي الرجل العجوز وزوجته نظرة حنين إلى الماضي الذي يُجِلانه، والذي باتا يجدان فيه الآن «عصراً ذهبياً»: يتذكّر الزوج «سلطته» الأبوية، وتحنّ الزوجة إلى دفء حبّها المنزلي «الرائع»!

لقد قدّمتُ ملخصاً لهذه الرواية، لأنها تصوّر بشفافية أوضاع البلدان الإسلامية ومجتمعاتها المحاصَرة بين أحلام المستقبل والحنين إلى «ماضٍ سعيد» لم يوجد قَطّ!

كيف يمكن زحزحة الجمود الذي يعطّل العالم الإسلامي؟

خيال أم وهمٌ؟ جرى ذلك أثناء الحرب العالمية الثانية، وكنت في بيروت. كان رفاقي العرب في معهد «الليسيه» الفرنسي قد انخرطوا في الحركات السياسية القومية ضدّ فرنسا وإنجلترا. وكان معظمهم يدعون لألمانيا بالنصر لتخلّصهم من «المستعمرين». ذات يوم دعاني أحد هؤلاء الرفاق إلى الغداء في منزله، وفهمت أن والده غير موافق على نشاطه السياسي حينما قال له: «إن الله يريد أن تكون الأمور هكذا، وتلك نعمةٌ أنعم بها الله علينا، نحن المؤمنين. فالكفار لا يفكرون إلا بالملذات والمال، لكنهم سيلاقون في جهنّم جزاء هذه الشهوات العابرة. أما نحن فسيكون جزاؤنا الجنة خالدين فيها، وسنكون شاهدين على عذابهم في الجحيم إلى الأبد!».

وهو ذا وهمٌ آخر: الخلط بين المجالين الديني والدنيوي، كما نوّه بذلك مفكر مصري من العشرينيات من هذا القرن، هو علي عبد الرازق الذي شغل منصب قاضٍ شرعي، والذي كانت خلاصة رأيه في كتابه «الإسلام وأصول الحكم» أن الإسلام هو قبل كل شيء دين تعبّد روحاني، أما الخلط مع الزمني، فلم يكن

سوى حصيلة تأويل خيالي تراكم عبر قرون من الزمن، على يد السلطات التي تعاقبت على العالم الإسلامي ووجدت من مصلحتها فرض هذه الوجهة[١].

ليس المطلوب نقل مفهوم العلمانية الغربي إلى العالم الإسلامي وفرضه فرضاً عليه، وإنما المطلوب ببساطة أن يكفّ العالم الإسلامي عن اعتبار الدين والنظام السياسي الاجتماعي شيئاً واحداً. إن الرغبة اللاواقعية واللامعقولة والتضليلية معاً في «العودة» إلى «الدولة الإسلامية» على نحو ما كانت عليه في المدينة هي ضربٌ آخر من الوهم. كان النبي في ذلك الزمن يتلقى الأمرَ وحياً من الله. وكان الحُكمُ آنذاك حكمَ الله، إذا جاز التعبير، بواسطة النبي المختار. ولم يكن بمِكْنة الخلفاء الأوائل إلا أن يفصلوا الدين عن شؤون الدولة. كانوا «يحرسون» الرسالة؛ ولكن لم يكن بمكْنتهم الزعم بأن الله يوجّه أفعالهم! منذ العهد الأموي بدأ فقهاء الشريعة ينسبون إلى الخلفاء أفعالاً لا تُنسَب إلا إلى الأنبياء. ومذّاك فقط بدأ الخلط بين الديني والدنيوي. ثم، بعد ذلك بزمن طويل، ادّعى الخليفة المأمون (٨١٣-٨٣٣) أنه «ظِلُّ العناية الإلهية»، وكان قد كتب إلى أحد الولاة: [هذا ما أراده الله بحقّ، من ظلاله الذين أوكل إليهم حكمَ عباده، والذين شاء أن يحفظوا دينه ويرعوا خلقه... ويحاكوا عدله، ولا يدّخروا جهداً في خدمته...][٢].

ذلك الخلطُ بين مجالَيْ الدين والسياسة، وتلك التجاوزات، حملت القاضي المصري، العشماوي، على القول: «إن القانون العام الإسلامي كان يُطبَّق على حساب الشعوب وضدّ روحية الإسلام. لم يفعل الحكام سوى خدمة مصالحهم الشخصية ومصالح عوائلهم وأسَرهم والمقرّبين إليهم. فهم سادةُ القضاء، والقابضون على المال العام؛ ولذا كانوا يعفون أقرباءهم وفق ما يشتهون، من دون أن يكون للشعوب المحكومة أي حق. ولئن تطابقت أحياناً مصالح الشعوب ومصالح الحكام، فما كان ذلك إلا بحكم المصادفة المحض»[٣].

١- ذكره جورج قرم في كتابه **أوروبا والشرق** (مرجع مذكور).

٢- ذكره فون غرونباوم في كتابه **هوية الإسلام الثقافية** (مرجع مذكور).

٣- العشماوي (مرجع مذكور).

لا أحسب أني سأخوض هنا في جدال حول شرعية الحكم في البلدان الإسلامية؛ جل ما سأفعله هو أن أبيّن تعدد الآراء حول مسألة القانون الإسلامي. إن التداخل بين الدين والحكم لا يمكن فهمه إلا على ضوء الفحص التاريخي النقدي. لذا، يجب الكف عن اعتبار هذا التداخل عقيدة جامدة لا تحول ولا تزول. إن حل مشكلات العالم الإسلامي الراهنة يكمن بالضبط في الفصل بين الدين والسياسة (وهذا الفصل، أكرر مرة أخرى، يختلف عن العلمانية الغربية).

يعود أمر فكّ قيود العالم الإسلامي إلى المسلمين أنفسهم. وعلى المفكرين والمثقفين (بمن فيهم فقهاء الشرع غير الأصوليين) أن يبادروا إلى «تزييت» الأقفال القديمة التي صدئت بفعل مرور ثمانية قرون عليها، لكي يُسهموا في فتح الأبواب على المستقبل. ويجب – على حدّ قول علي مراد – إحداث تطوّر في الفكر وفي الحساسية، وتحوّلٍ اجتماعي وسياسي. ولا مفرَّ من حدوث توترات ووقوع صدامات[١]، وهذا بديهي، لأن التطوّر غير ممكن من دون تضحيات! بالحوار المفتوح وحرية الرأي، يتحرّك الفكر إلى الأمام وتتطوّر العقليات! ولا يمكن زحزحة الجمود، الذي بات له من العمر ثمانية قرون، من دون إثارة بلبلة، ولا يمكن، من دون إزعاج النائم، إيقاظه من نومه العميق.

في العام ١٩٤٦، كتب مفكر سعودي عاش منفيا في مصر: إن الجهل الذي تأسس على تأويل ديني، أحكم الطّوْقَ على أعناق شعوبنا، فجمّدها فكراً وثقافةً[٢]. وللخروج من هذا الأسر، لا بدّ من الشجاعة لرفع الصوت عالياً في

١- علي مراد (أستاذ الإسلاميات في المؤسسة الجامعية للدراسات العربية والإسلامية في ليون) «لوموند» (١/٦/٨٠). ويُضيف الكاتب: «إن المشكلة الكبرى هي أن الإسلام الذي يلجأ إليه الإنسان الضعيف والمكسور يحمل أفكاراً كتلك التي كانت سائدة في أوروبا في القرن الثالث عشر فهو دين من نمط قروسطي كانت له عظمةٌ وأمجادٌ. أما اليوم، فإن المنطق الذي يحمله يتنافى تماماً مع معطيات الحياة الحديثة».

٢- عبد الله القصيمي، **هذه هي القيود** (بالإنجليزية): These are the Chains (1964)، ذكره رافاييل باتي، **العقل العربي** (بالإنجليزية):

Raphael Patai, The Arab Mind, new York, 1983.

وجه هذا التأويل المزعوم، الذي هو لاهوتٌ أصولي يحكم البلدان الإسلامية ويتحكّم بها جميعاً، مع بعض الفروق بين بلدٍ وآخر، وذلك منذ القرن الثاني عشر! والمسلمون ليسوا بلا بصر، ولا بدون بصيرة: إنهم يريدون أن يردموا الهوّة التي تفصلهم عن الغرب بأسرع وقت ممكن. ولكن، من أجل ذلك، عليهم أن يأخذوا من حضارة «الكافرين». فماذا عليهم أن يأخذوا؟

ماذا يؤخذ من الغرب؟

يرفض فقهاء الشريعة، أصوليين وغير أصوليين، الحضارة الغربية، بسبب «نزعتها المادية» و«سعيها المحموم إلى الربح». وهم يعيّرون «الحداثيين» بكونْ المثقفين والمفكرين الغربيين أنفسهم ينتقدون الحداثة؛ فشبنغلر مازال يتوالد له أقران وأتباع، آخرهم ڤاكلاف هاڤل[•] Vaclav Havel الذي يغذي بأقواله دعايةَ «الإخوان المسلمين» وغيرهم من «أحزاب الله»: «إن عصراً قد ولّى، عصراً من الإيمان بالتقدّم الآلي بالطريقة العلمية...، من استبداد العقل...، وبات على الإنسان ألا يثق بالتفسير الموضوعي للواقع وحده، وألا يثق على الأخص بنفسه...»[١].

إن الامتياز الكبير الذي يتغنّى به العالم الإسلامي، وتفوّقه الذي لا يُضاهى، هو «روحانيته» (وهي تعني في فهم العامة تطبيق الشريعة بحذافيرها، أو تعني في فهم النخبة تقليد الصوفية). غير أن الفقهاء وعلماء الشريعة، على الرغم من رفضهم الحضارة الغربية، لا يأنفون من استهلاك سلعها واستخدام منتجاتها

•- ڤاكلاف هاڤل أديب وكاتب وسياسي تشيكي. ولد في براغ العام ١٩٣٦ وتولّى رئاسة الجمهورية التشيكية بين عامَيْ ١٩٩٠ و٢٠٠٣. من كتبه: **«قلق الحرية»**، **«سلطة من لا سلطة لهم»**، **«محاولة للعيش مع الحقيقة»**...

١- خطاب ألقاه ڤاكلاف هاڤل في المؤتمر الاقتصادي الدولي في سويسرا (٩٢/٢/٤) ونُشِر مترجَماً إلى الإنجليزية في صحيفة نيويورك تايمز (٩٢/٣/١).

المادية! وعلى الرغم من أن علماء الدين العرب وآيات الله الإيرانيين (ناهيك عن أتباعهم ومقلّديهم) لا يكفّون لحظةً عن نعت أوروبا وأميركا بالشياطين، فإن أسفارهم ورحلاتهم إلى هذه البلدان لا تنقطع، علاوةً على أنهم يستخدمون الأشرطة السمعية والبصرية ويشاهدون قنوات التلفزة ويتخاطبون بأجهزة الهاتف ويتناولون المضادات الحيوية والڤيتامينات، ويحثون حكوماتهم على شراء السلاح مِن بلاد الكفرة، ...الخ.

حتى أفلام هوليود السينمائية لا تُثير حفيظتهم (ربما لأن هذه المدينة الكاليفورنية تسمّى «مكة السينما»!). أسوق مثالاً على ذلك: في منتصف الخمسينات، أجاب قاض إسلامي أردني، على سؤال صحافي، بما يلي: «في الواقع، إني لا أرى ضيراً من مشاهدة فيلم جيد كفيلم "لص بغداد" مثلاً. فقد قال لي ولدي إن هذا الفيلم بعث فيه أملاً كبيراً، عندما رأى المشاهد التي تُظهر عظمة الخلفاء العرب وأمجادهم. عندما حدّثني بذلك ثارت لديّ، أنا أيضاً، مشاعر مماثلة، وتذكرت عظمة الخلفاء العباسيين»[١]. أما عامة الناس، فإنهم سرعان ما يألفون استخدام معظم الآلات والأدوات والأجهزة المستوردة. علاوة على ذلك، فإن ناطحات السحاب والسيارات على أنواعها، واللافتات الضوئية تجعل من مدن المسلمين شبيهةً بمدن «الكفار»، من غير أن يُثير ذلك ثائرة الفقهاء وعلماء الدين الذين باتوا يجهّزون مآذن الجوامع بمكبّرات الصوت والمصاعد الكهربائية!

هذا الاتجاه نحو التنميط يُثير بالأحرى حفيظة الغرب، حينما يأسف لـ«زوال السمات الأصيلة» التي تميّز المجتمعات الشرقية. وفي هذا الموقف ما يُثير الإعجاب حقاً: ألا تنادي الأديان و«القيم» جميعاً بوحدة الجنس البشري؟ ألا نحيا جميعاً على ظهر كوكب واحد؟ ألم تكن الحضارة الإسلامية وليدة تفاعل فكر الشعوب السامية مع الفكر الهند/أوروبي؟ أليست الحضارة الغربية وليدة تلاقح

١- دانييل لرنر، العبور من المجتمع التقليدي (مرجع مذكور).

الفكر الروماني واليوناني والعربي؟ وأي ضيرٍ في التوليف الذي «يساوي» بين الجميع؟ والحق أن عمليات المزج والانصهار هذه تُسفِر في شتى أنحاء العالم عن نتائج إيجابية. ويُثبِت التاريخ أن انحطاط الحضارات والثقافات لا يبدأ إلا مع محاولات الحيلولة دون عمليات الدمج والصّهر وبين الثقافات والأعراق المختلفة.

يرى الأصوليون اليوم أن النمط الغربي في التفكير والعيش يشكّل خطراً على الإسلام من حيث هو دين. والواقع أن الخطر الوحيد على الإسلام يتأتى من توسيع الهوة التي تفصل العالم الإسلامي عن الغرب. والحال أنه إذا كانت الشقة بين «الشمال» والعالم الثالث تزداد اتساعاً، فإنما بسبب تسارع وتيرة التطوّر في البلدان المتقدمة وتعمق أبحاثها ومبادراتها في ميادين العلوم المختلفة.

العلوم، إذاً، هي بيت القصيد! إن الضرورة الملحّة لسدّ الفراغ الذي تركته ثمانية قرون من التخلف لا تعني أن على العالم الإسلامي أن يتبنى الأنماط الغربية جملةً وتفصيلاً. فوحدها المهمّة هي العناصر الأساسية التي أتاحت للغرب أن ينجز تقدمه الهائل. وأول هذه العناصر الأساسية وأهمّها إطلاقاً العلم الحديث القائم على المنهج التجريبي، وعلى الذهنية العقلانية الموضوعية، وعلى رفض كل وثوقية ودغمائية (بما في ذلك الدغمائية العلموية).

خصائص العلم الحديث الأساسية هذه تجعله عسير الحلول والتوطّن في بلدان ومجتمعات تقليدية، وهذا ما يُفسح في المجال أمام القائلين ليقولوا بوجود تناقض جوهري بين الإسلام والعلم. أما الحقيقة فهي غير ذلك تماماً.

الاستمرارية الثقافية الحقيقية

عندما يعتمد العالمُ الإسلامي الفكرَ العلميَّ الحديث ونتائجَه، لا يكون قد فعل أكثر من استعادة فكره بالذات. فالواقع أن العلم الغربي نما وتطور منذ القرن الثاني عشر، من خلال الاتصال بعلوم المسلمين في ذلك العصر، ومواصلة أعمالهم العلمية والفكرية التي جمّدها الفقهاء والحكّام وعطّلوا حيويتها، في

الأندلس بخاصة. وكان المسلمون، بدورهم، قد أخذوا بالعلوم والمعارف اليونانية والفارسية والهندية، وعمّقوها.

ليس ثمة أي تناقض، إذاً، بين الفكر الغربي والحضارة الإسلامية. لكن تنكّر الأصوليين لهذه الحضارة هو ما أدّى إلى نشوء هوّةٍ بات واجباً ردمُها اليوم. وذلك، أولاً، بإعادة الاعتبار إلى الفلاسفة المنبوذين والمطرودين من الفكر الإسلامي؛ وتالياً، باستيعاب الإنجازات العلمية المعاصرة. إن الموقف الفكري الذي كان يتميّز به المسلم، قبل القرن الثاني عشر، لا يختلف عن الموقف الفكري الذي يميّز الغربيَّ المعاصر.

لا تعود المأساة التي يعيشها المسلم اليوم، إلى رفضه الانفتاح على العقلانية، بل إلى رفضه بالأحرى ارتياد مدرسة العلم في زمن بات يحتاج فيه حاجةً قصوى إلى فهم مقدارٍ لا يني يتزايد من الوقائع التقنية والطبيعية والاجتماعية... إن تجاهل أنماط التفكير الناجعة والفعّالة لا يُفضي إلا إلى كوارث. ومعلوم أن المجتمع الذي ينبذ العقل يغذي النزعة الغوغائية (الديماغوجية)، وأن المجتمع الذي يرفض العلم لا يمكن له أن يكون متسامحاً، وأن المجتمع الذي ينتشي باللاعقلانية يستسهل اغتصاب الجماهير! في المهرجان الإسلامي الذي انعقد في لندن، العام ١٩٧٦، أُعجِبتُ أيّما إعجاب بصحنٍ وُجِد في نيسابور (إيران) ويعود إلى القرن العاشر، وكان معروضاً في إحدى واجهات المهرجان، وقد نُقِشتْ عليه العبارة التالية: «إن طعمَ العلم في البداية مرٌّ كالعلقم، لكنه في النهاية حلوٌ كالعسل».

إن التقيّدَ بالحرفيّة الخارجية للدين، يرافقه تجمّدٌ في «الخلايا الرمادية»؛ فحين يكون الفقهاء عاجزين عن إدراك حقيقة عصرهم وعن استشفاف المستقبل، وحريصين على امتيازاتهم ومصالح الحكام، يحبسون النبوّة المحمدية في الماضي، متخيّلين بذلك أنهم يمنحونها حياةً دائمة، من دون أن يدركوا أنهم بفعلهم هذا إنما يقتلون حيويتها الروحانية قتلاً، ويقايضون ما هو خالدٌ فيها حقاً

بحياة شكلية شبيهة بحياة المومياء المحنطة، متخذين من المسلمين رهائن لتغطية طروحاتهم الأصولية، قاطعين العالم الإسلامي عن ماضيه وعن مستقبله في آن.

الانفتاح إذاً على الغرب، ولو جزئياً، ضروري مطلق الضرورة. صحيحٌ أن الغرب لا يُعدَم اعتداداً بنفسه واغتراراً بها، وغالباً ما يُظهِرُ استعلاءه وزهوّه بالتفوّق. ولا أزال أذكر أرنولد توينبي وتوكيده بأن بلدان العالم الثالث لا يمكن لها أن تتبنى جزءاً فقط دون سواه من إنجازات الغرب، وبأن عليها إما أن تأخذ بكل شيء، وإما أن تُهمل كلّ شيء. لكن توينبي مخطئ في ما ذهب إليه، ففي كل حضارة أمورٌ جوهرية وأخرى سطحية.

إن أكثر ما يحتاجه المسلم هو ذهنية الإنسان الغربي الذي يتصدّى لمهمة لا تحدّها حدود، انطلاقاً من اقتناعه بأن محيطه يمكن أن يتحسّن وأن يكون أفضل مما هو عليه. إن الحياة كفاح وعمل ــ كما يقول مين دي بيران Maine de Biran ــ وجهد لا ينقطع، في سبيل بلوغ الكمال! وعلى المسلم أن يضرب عرض الحائط بعلاقات التبعيّة والخضوع التي تربطه بـ«الكبار» و«القادة» و«المرشدين»... إن الإسلام هو، ولا ريب، دين الخضوع لله، لكنه خضوعٌ لله وحده، لا خضوع للبشر، حتى ولو كانوا ملوكاً أو فقهاء. وعوضاً عن إنتاج الماضي الأسطوري، فقد آن الأوان للمسلم كي يصنع المستقبل، أعني مستقبله الممكن والواقعي.

الهوية الثقافية

بحسب «الإسلاميين» و«إخوان مسلمين» آخرين، فإن القرآن والحديث يتضمنان حلولاً لكل المشكلات القائمة والتي يمكن لها أن تقوم. ومع ذلك، فإن الأصوليين، عندما يُمسِكون بالسلطة، كما في إيران والسودان، لا يجدون حلولاً لتلك المشكلات، سوى اللجوء إلى التكنولوجيات الغربية التي لا تفتأ أجهزتهم الإعلامية والدعائية تُدينها وترفضها بكل شدّة. والحق أن أياً من التوراة والقرآن

والإنجيل، لا يتضمّن وصفات جاهزة لتشكيل نظام حكم أو إدارة اقتصادية. إن أياً من الكتب السماوية لا ينصّ على كيفية تلبية حاجات الجماهير المحرومة في البلدان المتخلّفة.

إن «الموضة» الشائعة اليوم في الشرق، كما في الغرب، هي السعي وراء الهوية الثقافية، والعمل على صونها. فما حقيقة الأمر بالضبط؟ يُقال إنها مشكلة كبرى من مشكلات عصرنا، بل هي كبيرة إلى حدّ أن شخصيات مرموقة صرفت جهوداً فائقة وأموالاً طائلة من أجل تنظيم أول «مؤتمر دولي للهوية الثقافية» (كذا) انعقد في كندا، العام ١٩٨١. وبعد مناقشات حامية، اتفق المؤتمرون على وضع تعريف للهوية الثقافية: فهي «الصورة التي يحملها كل شعب عن نفسه، والتي يرغب في أن يعترف بها الآخرون».

لا أدري ما رأي القارئ في هذا التعريف. فإذا افترضنا أنه تعريف صائب، يظل بالإمكان اختراع هوية من العدم! وهو على أية حال يترك لكل شعب حرية اختيار هويته. ولمَ لا؟ وعلى أية حال، ليست التعريفات ذات أهمية مطلقة، إذ ينطبق على فكرة الهوية ما ينطبق على الأفكار الشائعة الأخرى. وحديث الهوية على كل لسان، وكلٌّ يعرف، إلى هذا الحدّ أو ذاك، ما هو لبّ الموضوع. وما من داعٍ للتدقيق في الأمر، أكثر من ذلك!

ومع ذلك، يسيل حبرٌ كثير في موضوع الهوية. فوراء كل الكتابات العلمية وغير العلمية، في هذا الموضوع، نجد في ما عنى البلدان الإسلامية، وكذلك في ما عنى البلدان الغربية، «دافعاً قهرياً إلى التكرار» كما يُقال في لغة التحليل النفسي: الإيمان إياه بعصر ذهبي اندثر، والحنين إياه إلى عصور قديمة مضمّخة بطيب الذكريات. ولا يختلف إلا مضمون هذا الحنين. يحنّ المسلمون إلى العصر الوسيط، إلى ذلك القرن الثاني عشر الذي قرّر مصيرهم (والذي يريد الأصوليون، على كل حال، أن يُعيدوهم إليه). ويحنّ الغربيون إلى عصور مختلفة. فالباحث الانتروبولوجي الكبير كلود ليفي ستروس، مثلاً، وبخاصة في

كتابه «المدارات الحزينة» Tristes tropiques، يهفو شوقاً إلى القرن الثامن عشر ويخلع عليه طابعا مثاليا. وذات يوم، في الفترة التي كنا نعمل فيها في «اليونسكو»، هاجم روجيه كايوا Caillois، وقد استفزه باحث في الأنثولوجيا، «مهنة كهذه تهنئ أبناء المجتمعات المتخلّفة على احتضانهم في رؤوسهم لصورة الإنسان الذي يعيش في الطبيعة وتشيد بعدم تفكيرهم بالمستقبل!».

في ما عنى المجتمعات الإسلامية، الأمور واضحة، كما رأينا، حيث أن الشعوب تمرّ في حالة من الإحباط. فالجنة الأرضيّة، التي وعدت بإنجازها مخططات التنمية والتحديث، لم تتحقق. وفي ظل هذه الأوضاع القاسية يجد الناس صعوبة قصوى في التكيّف مع متطلبات الحياة العصرية. ذلك أن المستقبل الصناعي يبدو لهم، من بعيد، عالماً مجهولاً مليئاً بالمكائد والفخاخ، في حين أن الشريعة والخطاب الأصولي يقدّمان لهم راحة البال في ظل اليقينيات الراسخة والعادات المألوفة منذ زمن بعيد. ومن البديهي أن يكون القيام بالأعمال المعتادة، وفقاً لما هو معروف ومتوارَث، أكثر سهولةً وراحة من مشقّة تعلّم العيش وفقاً لتفكير واعٍ ناضج ومستقل. لذا، فإن الشعارات المطروحة تكتسب قيمة الحقائق: «التكنولوجيا الشيطانية»، «الإسلام في خطر»، «التحديث الجهنمي»، ...الخ.

إن الذين يسعون وراء الهوية قد فاتهم أنها تتألّف من قطَعٍ وشظايا تجمّعت وتداخلت عبر التاريخ؛ يخالون أن المرء يولد وشجرة الإسلام نابتة في رأسه، ويُنكِرون التمازج الثقافي، وما أكثر حدوثه في الواقع. وكيف لنا أن نعرف ما هي الهوية الحقيقية للمصري والبربري والإيراني والسوداني (والفرنسي والإنجليزي والأردني ...الخ)؟ لقد أتاح التمازج الثقافي للغرب أن يبرأ من أمراض التعصّب والجهل والجوع... فهل في ذلك ما يُضير؟

كل الناس يبحثون اليومَ عن جذورهم... فما أربحها من تجارة! غداة حرب التحرير الجزائرية، لم يكن يشغل بال أصدقائي الجزائريين إلا «استعادة» هوية الجزائر العربية؛ فعرّبوا التعليم، واستقدموا المعلمين من مصر والسودان وبلدان

عربية أخرى... وكانت النتيجة التي آل إليها التعريب معروفة، إذ لا يمكن أن يحصد الإنسان إلا ما يزرعه؛ ففي العام ١٩٦٥، عندما قام بومدين بانقلابه العسكري، كنت في الجزائر. وفي حديث خاص مع وزير الخارجية بوتفليقة، قلت إن الجزائر تمكنت بسبب الاستعمار بالذات أن تتخلى عن قدْرٍ كبير من ارتباطها بالماضي؛ ولذا، فإن بإمكانها أن تخوض تجربة إنتاج نموذج عصري من المجتمع الإسلامي، يكون بمثابة قدوة للمجتمعات الإسلامية الأخرى... لكن بوتفليقة أجاب إن ذلك غير ممكن «لأننا نحتاج إلى جذور». في تلك اللحظة خطرت في ذهني الفكرة التالية: «وحدها النباتات تمتلك جذوراً»! وذكّرت صديقي بوتفليقة بالطرفة التي تروى عن نابليون الثالث الذي بعث، العام ١٨٥٨، روبير هودان Robert Houdin إلى الجزائر، ليُثبِت للمسلمين أن الخوارق والمعجزات التي يقوم بها «الأولياء» ليست إلا شعوذة.

إنني اتفق مع بعض المفكرين والمثقفين المسلمين بأن علينا أن نضطلع بهويتنا التعددية بعناصرها المختلفة. وعلينا أن نقبل ونضطلع أيضاً بالعنصر الغربي الذي يُسهِم كذلك في تكوينها (على الأقل، من خلال التعليم). وعلى الغربيين أيضاً أن يقبلوا ويضطلعوا بالعنصر العربي والإسلامي الذي أسهم في تكوين هويتهم منذ القرن الثاني عشر.

نعم، ينبغي لنا الاعتراف بالعناصر المختلفة التي أسهمت، وما زالت تُسهِم، في تكويننا. وعلينا أن نبقى منفتحين على كل جديد. هكذا نكون قادرين جميعاً، مسلمين وغربيين، على التعاون في سبيل تقدّم الجميع. ومن هذا المنظور، يصبح البحث عن الهوية عملاً خلاقاً إبداعياً. وما عدا ذلك، يصبح البحث عن الهوية شأناً لا يعني إلا الشرطة وحدها!

الفصل السابع

آفاق للمستقبل

لا تتعارض الهوية الإسلامية بالضرورة مع الهوية الغربية. صحيح أن المسلمين يشمئزون من بعض المظاهر «الإباحية» التي تنطوي عليها الحداثة؛ لكن الحضارة الغربية لا تُقاس بطول التنورة وقصرها، ولا بالمشروبات الروحية وتعاطي المخدرات وكثرة الإجرام. إنها تفرض نفسها بإنجازاتها العلمية والتقنية، واحترامها حقوق الإنسان، وتسامحها مع الآراء المخالفة، وهي كلها أمور عرفها المجتمع الإسلامي أو مارسها في القرون الأولى؛ ضمن الحدود التي كانت تتيحها الإمكانات المتوافرة في ذلك العصر. وقد بُنِيَت الحضارة الغربية على مجموعة من المعارف والمختَرَعات التي راكمها علماء الماضي، وبخاصة علماء اليونان والعالم الإسلامي.

ما مبعث حقد المسلمين على الغربيين، وهو حقدٌ يعبّرون عنه بصراحة تامة وعنف سافر؟

يمكن إعادة هذا الحقد إلى سوء فهم عميق، بدأ مع انتصار التطرّف في العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر، ثم ازداد حدّةً مع الحروب الصليبية ماضياً، ومع الاستعمار والإمبريالية حديثاً. قد يُقال إن هذا الحقد هو شعور لا تحمله إلا فئةٌ متطرّفة. لكني لا أوافق هذا الرأي، لأن هذا الشعور واسع الانتشار في أوساط المسلمين وقابل للانفجار في أية لحظة. فمثلاً منذ حرب الخليج وتفكك الاتحاد السوفياتي، رأى العرب في النظام العالمي الجديد «تحالفاً مسيحياً غايته الثأر»، وهو «ينبذنا جميعاً ليختار بعضنا، كالعراق وليبيا هدفاً للانتقام»، على حدّ ما كتب مؤخراً، صحافي مصري[١].

١- مراسل صحيفة «الأهرام» المصرية في باريس. ذكره يوسف إبراهيم في باب «ويك ريڤيو» في طبعة يوم الأحد من صحيفة نيويورك تايمز (٥/٤/٩٢).

تتخذ نزعة الحقد على الغربيين أشكالاً شتى: تظاهرات في الشوارع، ثورات مسلّحة، إرهاب، كتابات في الصحف، كتب، ...الخ. وليس أدنى هذه الأشكال التوكيد العدواني على تفوّق المسلمين في الماضي.

العرب أصل الملاحة الفضائية

في مطلع الثمانينيات صرخ بروفسور أميركي من أصل عربي، وهو يلقي محاضرة جامعية: «لولا اكتشافات العرب في ميدان العلوم الصحيحة، لما وطئ الأميركيون سطح القمر، ولا تم لهم تصوير المريخ»(١). لماذا لم يذكر أيضاً أوقليدس وفيثاغوراس والرياضيين الهنود القدامى؟ وصديقي العربي ذاك، الذي رافقني في مهرجان الإسلام (لندن ١٩٧٦)، ألم يتهجّم على الأوروبيين بقوله: «نحن أعطيناهم كل شيء!»(٢).

هذا التعويض الذاتي الرخيص عن الشعور بالدونية لدى المسلمين، في مقابل تقدّم «الكفار»، يُسهِم في إبقائهم على تخلفهم؛ هذا ما أدركه كاتب تركي في الثلاثينيات عندما كتب يقول: «إن هذا الاحتفاء الخاص بالثقافة الشرقية، بالحضارة الإسلامية، بالعلوم العربية، يتكرر في كل الكتابات وفي كل المناسبات، لتنويم الأمة ومنعها من اللحاق بركب الحياة الغربية»(٣).

١- عزيز س. عطيّة، **الثقافة العربية والثقافة الأميركية** (بالإنجليزية): Aziz S. Atiya, Arab and American Culture، ذكره ديڤيد برايس-جونز في الكتاب الجماعي **الدائرة المغلقة محاولة لفهم العرب** (بالإنجليزية): David Pryce-Jones, in The Closed Circle, an Interpretation of the Arabs, New York, 1989. يقول برايس-جونز: «في واقع الأمر، يعود ذلك إلى رغبة فارغة لا علاقة لها بالموضوع، رغبة في أن تنسب إلى الذات إنجازات الآخرين؛ لكن هذه الأسطرة للماضي العربي تسيء إلى العربي نفسه، لأنها تُثير مسائل أخرى من شأنها أن تدمّر الثقة بالنفس في الحاضر».

٢- راجع الفصلين الخامس والسادس.

٣- حسين قحط Husseyn Cahit. ذكره برايس-جونز في **الدائرة المغلقة محاولة لفهم العرب** (مرجع مذكور).

ربما أمكن غضّ الطرف عن تمجيد الماضي الأسطوري هذا، ولكن ماذا نقول في شيخ سعودي أصولي يحتدّ ويشتدّ في الستينات ليثبت أن الأرض مسطّحة، وأن الرحلة الاستكشافية إلى القمر هي «مزحة سمجة»؟ هل ما نسمعه من هذا الشيخ هو أضغاث أحلام؟ كلا، إنه كلام حقيقي وواقعي. فأحد مصادر قوة الأصوليين يكمن في إنكارهم، هكذا وبكل بساطة، لكلٍّ ما لا يتفق مع عقيدتهم.

لقد أوردت هذه الأمثلة القليلة لأنها تلقي الضوء على وجه من وجوه تخلف الشرق. إلى وقت قريب جداً، كان الاعتقاد يسود بأن الهوّة المادية وحدها هي التي تفصل بين العالمين الإسلامي والغربي، وأن البرامج التنموية قادرةٌ بسرعة على ردم هذه الهوة. أما الآن، فلم يعد ممكناً تجاهل هوّة «زمنية»، أي وجود «أزمنة تاريخية متفاوتة». فإذا كان الغرب يتهيّأ لدخول القرن الحادي والعشرين، فإن العالم الإسلامي لم يغادر بعد القرن الثاني عشر، ولا يزال أبناؤه، حتى المتعلمين منهم، يشدّهم الحنين، ولكن من دون جدوى، إلى عصور ذهبية. هل من سبيل آخر لتفسير حضور الطلبة والمثقفين الكثيف في صفوف المتظاهرين في طهران والجزائر دفاعاً عن التطرّف؟ طبقة «الانتلجنسيا»، شأنها هي الأخرى، شأن طبقة رجال الدين، مقتنعة بأن تطبيق الشريعة سيساعد على حل المشاكل. يتوق المسلمون إذاً للحصول على التكنولوجيا الغربية، ولكن مع احتفاظهم بالشكل التقليدي للحكم الإسلامي!

زحزحة الجبال

يجب ألا تخدعنا المظاهر «الليبرالية» لدى عدد كبير من المفكرين؛ فهؤلاء يظلون في أعماقهم منجذبين إلى التقاليد، بوعيٍ منهم أم بدون وعي. أوردِ هنا مثالاً شخصياً. ذهبت مع بعض الأصدقاء لزيارة المسجد الجديد بنيويورك، القائم عند ملتقى الشارع الثالث والطريق السادسة والتسعين. كانت الزيارة

بمناسبة احتفال نهاية الصوم في شهر رمضان. تتخلل بناء المسجد التقليدي بعض اللمسات العصرية، هنا وهناك. وتشهد المئذنة المنتصبة على أرض معشوشبة، بعيداً عن المبنى الرئيسي، على أزلية عنصرٍ لم يعد يُرجى منه أي نفع: فيما مضى، كان الأذان للصلاة عملاً مهماً، لعدم توافر الساعات اليدوية ووسائل الاتصال. وعند خروجنا احتدّ النقاش بيننا حينما قال أحدُ الأصدقاء: «العودة إلى التقليد الديني كفيلةٌ بجعلنا نلحق بركب التقدّم». فسأله أحدنا: «وكيف ذلك؟»، فأجابه: «لأن الإيمان يساعد على زحزحة الجبال»! لم أتمالك نفسي عن الردّ عليه: «ولماذا زحزحة الجبال؟ خصوصاً في هذا الزمن الذي يُصِر فيه أنصار البيئة على احترام الطبيعة ومجالها الحيوي».

نعم! ليس المطلوب زحزحة الجبال، بل زحزحة الحصار المفروض علينا منذ القرن الثاني عشر. هل يعلم القارئ أن «تاريخ التقنيات»[1] يصنِّف العالَم الإسلامي، إلى جانب الصين وأميركا قبل كولومبوس، في عداد ما يُسمّيه المختصّون بـ«الأنظمة المعطَّلَة»؟ وذلك بالمقارنة مع الغرب، إذ أن الغرب شهِد، منذ القرن الثاني عشر، وما زال يشهد، تحوّلات متتالية في نظامه التقني: الثورة «الصناعية» في العصر الوسيط، الثورة التقنية في عصر النهضة، ثورة القرن الثامن عشر التقنية والعلمية، الثورة الراهنة...

ففي الوقت الذي بدأت فيه أوروبا تقدّمها العلمي والتقني، عطّل المسلمون، بمحض إرادتهم، تقدّمَهم العلمي، وجمّدوا بنياتهم الاجتماعية، واضعين أنفسهم على هامش الغرب، إلى أن جاءهم الاستعمار في القرن التاسع عشر!

نعم! ليس المطلوب زحزحة الجبال، بل زحزحة الممنوعات والمحظورات التي فرضها التطرّف الأصولي منذ ثمانية قرون! إن ما يحتاجه العالم الإسلامي

١- برتران جيل، **الأنظمة المعطّلة**، في الكتاب الجماعي **تاريخ التقنيات** (بالفرنسية):
Bertrand Gille, Les systèmes Bloqués, in Histoire des techniques, Bibliothèque de la Pléiade, Gallimard, Paris, 1978.

اليوم، ليس العودة إلى المصادر، أو تكييف الدين مع الحياة المعاصرة، بل تحرير الفكر واستعادة العقل الخلاق المبدِع وتجديد العطش المعرفي... هذه الأمور النبيلة التي ظلّت سائدةً في المجتمعات الإسلامية، طيلة القرون الأربعة الأولى من تاريخ الإسلام.

اللباس يصنع الملا

مع «الإسلاميين» لا سبيل إلى للوصول إلى هذه الأهداف؛ فالانئخاذ بالماضي، ورفض التجديد والإبداع، وشحذ العنصرية وكراهية الآخر، وما إلى ذلك... لا يساعد على النهوض والتطوّر، بل يؤدّي إلى عكس ذلك تماماً، كما يتّضح من التجربة الإيرانية. في تموز-يوليو ١٩٨٩، أثناء تأبين آية الله الخميني، قال مذيع التلفزة باكياً: «أيتها النجوم كفّي عن اللمعان، أيتها الأنهار توقفي عن الجريان!». كتب أحد الصحفيين الفرنسيين آنذاك: «كان على الأغلبية الساحقة من الإيرانيين أن تُضيف، إلى هذه الكلمات السحرية، أمنيةً أقل شاعرية، لكن أكثر التصاقاً بالمشكلات والهموم التي تواجهها اليوم: عالجوا الأزمة الاقتصادية!»(١). فالمشكلات الاقتصادية والمعيشية اليومية تزداد حدَّةً، ولائحة المصائب التي أحدثها التطرُّف الأصولي تطول!

ألغتْ الثورة الإسلامية، فور قيامها، برامج التنمية كلّها، فطردت من إيران الخبراء والعمال الأجانب الأكفاء جميعاً، وغادر إيران في الوقت نفسه ثلاثة ملايين من الإيرانيين المتعلمين وأصحاب الاختصاص، ليبيعوا خبراتهم في أوروبا وأميركا. رأيت بعض هؤلاء في جنوب أفريقيا أيضاً، وحتى في بوتسوانا! فلا عجب إن تدهور الإنتاج الزراعي والصناعي، وتراجع العمل، وانتشرت البطالة، وتزايد التضخم عاماً بعد عام.

1- Yves Hiller, in Le monde 18 juillet 1989.

في الوقت نفسه، وكأن لا شيء يدعو للعجلة، استدعى النظام الحاكم لجنةً من «المختصين» في «الزيّ الإسلامي» لتصميم «موضة» الملابس للرجال والنساء! ولكن (ويكفي الحسّ السليم لإثبات صحة ذلك) ليس بتطبيق شعائر الدين وإطلاق اللحى ورمي ربطة العنق وحجب النساء وسجنهنَّ في المنازل وقطع يد السارق ورجم الزانية، سيتخلّص المسلمون من تخلفهم! وليس بتقليد الأجداد، الذين عاشوا في القرن الثاني عشر، سيدخلون عصر الألف الثالث على قدم المساواة مع الأمم المتقدمة!

المنافقون المتعطّشون للسلطة السياسية يصرخون في وجه العالم: «اللباس يصنع المسلم، والحجاب يصنع المسلمة». يجب الإقلاع عن هذه الترّهات التي تزيد من اتّساع الهوّة بين المسلمين وبين المتقدمين في العالم.

كفوا عن النظر في المرآة العاكسة

من كبرى دروس العلم الحديث أن تجربة الماضي باتت عاجزة عن توجيه العالم المعاصر. بل هي خلافاً لذلك، تُضِلُّ كلَّ من يثق فيها. سأروي في هذا الصدد حادثة تعود إلى سنوات قليلة (وتتكرر باستمرار). صيام رمضان يبدأ مع ظهور أوّل هلال يبدو لشاهدَيْن بالعين المجرّدة في الشهر القمري التاسع. في تلك السنة أعلنت السلطات السعودية بدءَ الصوم يوم السبت. استنكر ذلك فلكيٌّ كويتي صرَّح بأنه شاهد الهلال يوم الأحد! إيران الشيعية قالت يوم الاثنين... وعلى مدى أسابيع بقي رجال الدين في البلدان الإسلامية يتجادلون، ولم يَدُرْ في خلد أحد منهم أن يتّصل بمدير مرصد القاهرة، وهو الأفضل تجهيزاً من الناحية العلمية في العالم الإسلامي. تُرى، هل علينا أن نقول مراراً وتكراراً إن المراكز العلمية وعلماء الأرصاد الجوية يقدّمون في ميدان الزراعة معلومات وإرشادات أكثر دقةً وفائدةً مما يقدّمه الفلاحون المسِنون؟

على أية حال، ستُحدِث الثورة العلمية والتكنولوجية الراهنة انقلاباً في

البنيات الاجتماعية الإسلامية، وستكون الصدمة التي ستحدِثها أشدّ عنفاً، كلما كان حدوثها أقل توقعاً. وهذه التصدّعات أخذت تظهر في جدران قلاع التطرّف الصلبة. وقد طالت حتى العربية السعودية الوهابية المتزمتة التي باتت تحت مطرقة الحداثة. ما زلنا نذكر «ثورة سيارات» النساء اللواتي لم يبالينَ بقوانين المنع، ومضَيْنَ يَقُدْنَ سيارات أزواجهن. فضيحة سعودية! وهذا هو الملك يشكل لجنة للشورى (نوع من مجلس تمثيلي يعود إلى مئات السنين!).

على المرء أن يكون أعمى كي يعتقد أن نقل التكنولوجيا الضرورية لسدّ احتياجات الناس ممكنٌ مع الحفاظ على الهوية الثقافية القديمة. «يجب أن ينسجم منطق النظام الاجتماعي مع منطق النظام التقني»[١]: تلك هي القاعدة الأساسية في التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

لا يَحدث تقدّمٌ إلا بالعلم والتكنولوجيا الحديثين اللذين يتطلبان مراجعة المواقف الفكرية التي تكوّنت خلال الماضي الطويل، وهذا أمرٌ بديهي. ومع ذلك، لا بد من الجهر به مراراً وتكراراً، ومن أعالي الأسطحة، حتى يصل إلى آذان المتطرّفين الذين لا يسمعون إلا أنفسهم وخطاباتهم.

في المدارس الأصولية للتدريب على قيادة السيارات يتعلم المسلم كيف يقود وعينه على المرآة العاكسة، ينظر وراءه باستمرار. فلماذا الاستغراب إذاً من وقوع حوادث سير كثيرة على طرقات القرن الحادي والعشرين؟ إن السيارات الإسلامية، وهي تصطدم بشكل دائم متواصل، تعرقل سير حتى أبرع السائقين الغربيين في القيادة. كيف يمكن إفهام الأصوليين المتطرفين أن تجربة الجمّالين والخيّالة العائدة إلى عصر الخلفاء الذهبي لم يعُد منها نفعٌ في نهاية هذا القرن، كما لا نفع للباس ولا للطقوس الشكلية؟!

١- **تاريخ التقنيات** (مرجع مذكور).

«المتغرّبن» (*L'occidentalite*)

لو أن الأمور اقتصرت على تطبيق حرف الشريعة، لما وصلت إلى هذا الحدّ من التدهور المأساوي. لقد وضع علماء المسلمين الكبار (الكندي، الفارابي، ابن سينا، الخيّام، ...الخ) كتبهم في ظل شريعة إسلامية لم تفرض أي حظر على أي شيء (على الأقل، علانية وبشكل مكشوف). وكانت مؤلفاتهم ومخطوطاتهم تُتداول، حتى القرن الحادي عشر، من دون أي حظر أو منع أو تحريم. في أواخر القرن الحادي عشر، بدأ التصدّي للمفكرين والمؤلفين، حتى انتهى الأمر بالحكّام والفقهاء إلى خنق كل عمل فكري علمي في المهد، مدشنين بذلك مسلسلَ الانحطاط المستمر إلى يومنا هذا.

يكمن التحدّي الذي يواجه العالم الإسلامي، اليوم، في ردم الهوّة التي تفصله عن الأمم المتقدمة، كيما يتسنى له استعادة قرونه الأربعة الأولى ليمضي قدماً في طريق العلم والتقدم. أما زرع الأحقاد تجاه الغرب فلن ينفع في شيء. علي بلحاج، أحد المنظّرين الأصوليين في الجبهة الوطنية للإنقاذ في الجزائر، يريد أن يمحق ثقافياً وفكرياً تأثير أوروبا، وخصوصاً فرنسا. يريد «وضع حدّ لأنصارها الذين رضعوا الحليب السّام»(١).

في إحدى الروايات المغربية، لا يقلّ الأب المحافظ تشدداً عن المُنظّر الأصولي. فلنستمع إليه يعاتب ابنه: «منذ اليوم الذي ذهبت فيه إلى الثانوية، صرتَ كأنك السمّ. صرتَ ترى مظالم اجتماعية... مَن طلب منك أن تراها؟ مَن هذا الشيطان الذي علّمك ما هي المظالم؟... لقد نقلتَ السمَّ حتى إلى أمك الوديعة. فكرة الثورة لم تَطُف يوماً في ذهنها. لقد شحنْتَها بها شحنا. ماتت أمك الآن... سأقول لك شيئاً: لستَ وحدك. لا أعرف واحدا من جيلك لا يشبهك...»(٢).

1- Politique internationale, automne 1990.

٢- دريس الشرايبي: **الماضي البسيط** (بالفرنسية):

Driss Chraibi, Le passé simple, Denoël, Paris, 1977.

الكاتب الإيراني جلال علي أحمد (المتوفى العام ١٩٧٠) كان يرفض الحضارة الغربية التي «تنهش روح» بلاده. تعرّفت إليه شخصياً، في إحدى سفراته، حين كنت مقيماً في باريس. إنه، في نظري، يشخّص أفضل تشخيص ذلك الخليط الدائم الارتجاج من الطلاء الثقافي الغربي السطحي على جسمٍ مُشبَعٍ بالتشيّع الإيراني. فهو ينحدر من أسرة فيها عددٌ كبير من آيات الله، لكنه ناضل في الحزب الشيوعي (تودِه)، حتى أنه استحدث عبارة فارسية ليعبّر بها عن «مرض» أبناء وطنه المستغربين: «المتغربن» l'occidentalite (عنوان مقالة ذاع صيتها في إيران).

قلّةٌ قليلةٌ من الكتّاب المسلمين تُقِرُّ بضرورة التحوّل الشامل في العقلية والتنظيم الاجتماعي. أذكر منهم طه حسين (المولود العام ١٨٨٩) الذي رجع إلى مصر مصطحباً معه امرأةً فرنسية، بعدما أنهى دراسته في أوروبا. في رواياته ودراساته وسيرته الذاتية، يدعو طه حسين المصريين إلى إعادة النظر في عقائدهم وتقاليدهم التي يُجلّون ويبجّلون. مات طه حسين في السبعينيات، بعدما فرض علماء الأزهر حظراً على مؤلفاته[١].

أذكر من المفكرين المعاصرين عبد الله العروي الذي يفكر بصوتٍ مسموع، وبخاصة في كتابه «أزمة المثقفين العرب» (باريس، ١٩٧٤) الذي أقتطف منه المقطع التالي: «يرثُ المثقف العربي تبِعات كل معارك الحرية، الفردية منها والقومية، التي لم تخضها حتى نهايتها البورجوازية داخل حدود الدولة الوطنية. فإذا بقيت الأمور على هذا النحو، فسيتفاقم تخلّف العرب. لقد تردد المثقف العربي زمناً طويلاً في نقد الثقافة واللغة والتقاليد... وعليه أن يكفّ عن قمع نفسه بيده... وأن يعبّر أولاً، وبكلّ الوضوح، عن حقوقه في الإبداع، وعليه تالياً أن يدافع عنها بقوة وثبات، كي تأزف أخيراً نهاية فصل الشتاء العربي الذي طال وطال».

١- طه حسين: **الأيام**، القاهرة ١٩٢٩.

«ثقالات» العالم الإسلامي

لقد أصاب العروي في أرجح الظنّ، وملاحظاته تنطبق على المفكرين المسلمين قاطبةً. ولكن فلنقُل مع ذلك إنه يمكن للكاتب أن يكون أكثر شجاعةً في منفاه الغربي منه في بلده الأصلي. فهذا نجيب محفوظ، يرفض برغم حصوله على جائزة نوبل، أن يتكلم بحرية عن المشكلات الاقتصادية في بلده، أو عن العقبات التي تقف في وجه الديموقراطية في مصر. لا يريد أن «يزيد» هموم الحكومة، بمتاعب إضافية! تراجع أمام سلطة الأزهر، وسحب بيده إحدى رواياته من المكتبات[1]. مؤخراً، حُكِم على كاتب مصري، وعلى ناشر كتابه، بالسجن ثماني سنوات، بسبب رواية اعتُبِرت مُسيئةً للدين (موضوع الرواية رحلة ــ من وحي الخيال، بطبيعة الحال ــ إلى الجنة). ومع ذلك، تُعَدُّ مصر أقل الدول الإسلامية قمعاً!

إن حرية التعبير تشغل، بطريقة أو بأخرى، «الانتلجنسيا» الإسلامية. في العام ١٩٧٩، حين كان المثقفون الغربيون يُعربون عن دهشتهم وإعجابهم بثورة إيران الإسلامية التي قال ميشال فوكو إنها «تُدخِل بُعداً روحانياً في السياسة»، ضبطت الجمارك العربية بشمال أفريقيا كرّاسةً تحمل عنوان: «بيان من أجل الديموقراطية» كتبها سوريٌّ مقيمٌ في باريس، ينتقد فيها الأنظمة العربية: «معظم هذه الأنظمة وُلِد بعنف الانقلابات العسكرية، ولذا، فإنها تنتهج سياسة التجهيل والقمع حفاظاً منها على السلطة. وخطابها الذي يبدو تقدمياً، في الظاهر، لا يهدف البتّةَ إلى تحسين أوضاع الشعب. أكثر من ثمانين في المائة من السكان أميّون وتحرص الأنظمة على إبقائهم أمّيين، كيما تتحكّم فيهم أكثر فأكثر. وإذا كان الإنسان العربي يتمتّع، نظرياً، بحقوق سياسية واجتماعية وفردية، فإنه في

١- نيويورك تايمز ماغازين New York Times Magazine، الأحد ٣ حزيران-يونيو ١٩٩٠.

الواقع العملي لا يتمتع بأيٍّ من هذه الحقوق». وفي الختام، يدعو البيان المثقفين إلى فضح أجهزة القمع، وإلى النضال من أجل حرية الفكر والعقيدة والعمل السياسي.

الديموقراطية! إنها هي الحل، لكن هي أيضاً العقدة، في الوقت نفسه. يصفها الأصوليون كعلي بلحاج مثلاً، فيقولون مستفظعين: الديموقراطية؟ يا للهول! «إنها غائطٌ على مزبلة الفكر البشري»[١]. لكن غياب الديموقراطية هو ما يجعل الفشل مصيراً محتوماً لبرامج التنمية. وأيّ برهان على ذلك أكثر وضوحاً من انهيار الإمبراطورية السوفياتية وإصلاحات روسيا ودول أوروبا الوسطى؟

مهما يكن من أمر، فإن الصعوبات الحقيقية التي تعترض التقدم في العالم الإسلامي، ناجمة أساساً عن العوائق الداخلية. إنها تكمن في ما يسمّيه جاك بيرك «الثقالات» pesanteurs، وتكمن بخاصة «في تفسير الإسلام الذي يقدّمه المفسرون الأصوليون. إن حيوية الإسلام الجديدة، أينما وُجِد، ومهما كانت صيغته، ستواجه لا محالة الخيارَ التالي: إما أن تذوب حنيناً إلى أمجاد الماضي الذهبية... وإما أن تشقّ طريقها لتمضي في اتجاه المستقبل، أي إنجاز تحوّل في الهوية»[٢].

أسوق هنا مثالاً بسيطاً على الخسائر الجسيمة المترتبة على هذه «الثقالات»: يرى العلماء الأصوليون في المملكة السعودية أن التشريح منافٍ للشريعة؛ لذا تعمد كلية الطب بالرياض إلى إرسال طلبتها، على نفقتها الخاصة، لمدّة ثلاثة أشهر، إلى الولايات المتحدة الأميركية للتدريب على التشريح! قد يُقال إن آل سعود قادرون بذهبهم الأسود، أن يتحايلوا على الشريعة، بهذه الطريقة الباهظة الثمن... ولكن الآخرين ماذا يفعلون؟ ماذا بإمكانهم أن يفعلوا؟

١- حديث منشور في مجلة: Politique internationale, automne 1990.

٢- حديث منشور في مجلة: Proche-Orient et tiers-monde, juin 1983.

أندريه جيد ودور المثقفين المسلمين

لا يمكن لي أن أُنهي كلامي عن «الثقالات» من دون الرجوع إلى ملاحظة لا تخلو من غرابة كان سجّلها أندريه جيد التي سجّلها في الأوراق الملحَقَة بمذكراته لعام ١٩٢٥. فهو يورد فيها مقطعاً من الجزء الثاني من كتاب المؤرّخ السويسري جاكوب بوركهارت حول عصر النهضة، يبدو لي وثيق الصلة بموضوعنا: «إن هذه الأخيولة هي التي تشدّه إلى لعب القمار، بتلويحها له بالثروة المقبلة وما تحمل من المتع بأشكالها المختلفة وألوانها الزاهية... من المؤكّد أنه كان بمِكْنة الشعوب المحمّدية أن تسبقه على هذا الطريق، لو أن القرآن، ومنذ البداية، لم يحرّم لعب القمار، جاعلاً من هذا التحريم حمايةً للعقيدة الإسلامية، أو لم يدفع بخيال المسلمين إلى البحث عن كنوز خفيّة». ويُضيف أندريه جيد: «مهمٌّ جداً أن نلحظ غيابَ لعب القمار في "ألف ليلة وليلة"»[1]. هنا أيضاً يتحايل المسلمون، الأثرياء منهم على الأقل، على هذه العقبة، فيرتادون نوادي القمار والكازينوهات البعيدة في لاس فيجاس والريفيرا وأتلانتيك سيتي...

لا أعرف ماذا كان أندريه جيد يريد من وراء تلك الملاحظة بخصوص «ألف ليلة وليلة»، ولكني على يقين من أن معظم المسلمين لا يمكن لهم الأخذ بسهولة بالخيارات التي تتيحها لهم نهاية القرن هذه؛ فالتطرّف لا يزال ثقيل الوطأة، والمسلمون ضحايا تقاليدهم، لا ضحايا مؤامرات خارجية.

وحدهم المثقفون قادرون على شقّ الطريق الواجب إتّباعه. لكن، ويا للأسف، يضيق وقت التفكير لديهم ويقصر، وهم غالباً ما يُخطئون الهدف، فيسيرون مثلاً في ركب التطرّف والأصولية، كما هي الحال في الجزائر أو في الأراضي المحتلة بفلسطين. علاوة على ذلك، ينساق المثقفون بسهولة إلى العمل السياسي النشِط، فتأخذهم مشاغله اليومية، وتستنزفهم، وتصرفهم عن التفكير

1- Journal, Bibliothèque de la Pléiade, Gallimard, Paris, 1951.

السليم (التحرر الوطني، إعادة بناء المجتمع، التعليم، مساعدة حركات التحرر في البلدان الإسلامية الأخرى أو في بلدان العالم الثالث، ...الخ). أضِفْ إلى ذلك «القضايا العادلة» المحيطة بنا من كل جانب: (العدالة الاجتماعية، حقوق الفلسطينيين، الدفاع عن الأقليات المسلمة في العالم، ...الخ).

تتوزّع المثقفين المسلمين هموم شتى، فلا يدرون ما هم فاعلون (هذا إذا لم يُزَجّ بهم في السجون). تستنفدهم معارك لا تنتهي، معارك تبقى، حتى ولو كانت مهمّة، هامشية بالمقارنة مع المعركة الأساسية: فكّ الحصار المفروض منذ القرن الثاني عشر. لم يكن العالم الإسلامي يشكو يوماً من الفاقة إلى سياسيين أو إلى سياسيين دينيين مغامرين. فهل يحتاج إلى مثقفين؟ نعم! كيف؟ يقول أحد الكتاب العرب المعاصرين: «يجب ألا تسقط الفلسفة العربية في شراك التسييس»(١). ويُقِرُّ عبد الله العروي، الذي سبق ذكره، بأن القضية الفلسطينية رسّخت الاتجاه المحافظ إيديولوجياً وسياسياً؛ إذ يرى الأصوليون أن وجود إسرائيل دليل على إمكان تعايش العلم الحديث مع القومية الدينية. لكنّ وجود إسرائيل، من ناحية أخرى، يُعيق نموَّ الدول الإسلامية، لأن حكّام هذه الدول يرون في كل فكر حر حيلة من حيل الإعلام الصهيوني والإمبريالي. و«ليس ثمة ما يُظهِر هذا التخلف الفكري أكثر من الحملة التي شُنّت مؤخراً على مؤسسَيْ حركة الإصلاح المعتدلة: الأفغاني ومحمد عبده»(٢).

ينهض شاهداً على صحة التحليل الذي يقدّمه عبد الله العروي تطوّرُ الأوضاع السياسية في الأراضي المحتلّة في غزة والضفة الغربية؛ فالمتطرفون الأصوليون لا يكفون عن التغلغل بين الفلسطينيين. وفي رام الله، وهي مدينة

١- ناصيف نصّار: **نهضة الفلسفة في الثقافة العربية المعاصرة** (بالفرنسية): N. Nassar, Renaissance de la philosophie dans la culture arabe contemporaine، في الكتاب الجماعي **نهضة العالم العربي** (مرجع مذكور).

٢- عبد الله العروي: **أزمة المثقفين العرب** (مرجع مذكور).

غنية نسبياً ومنفتحة، فاز الإسلاميون بأحد عشر مقعداً، من أصل اثني عشر، في انتخابات الغرفة التجارية في شهر آذار-مارس ١٩٩٢، علماً بأن نصف سكان رام الله مسيحيون، وبأن المدينة بقيت حتى زمن قريب حصناً منيعاً لمنظمة التحرير الفلسطينية. كما فاز «الإخوان المسلمون» الفلسطينيون بأغلبية المقاعد النيابية في البرلمان الأردني، العام الماضي. يجتاح المدّ الأصولي الجامعات أيضاً والأسواق التجارية. وهدفه المعلَن: «إزالة اليهود عن وجه الأرض». ثم إن زعماء «الإخوان المسلمين» يتمّ تجنيدهم من بين صفوف الأساتذة والمثقفين المحليين الذين تعلموا وتكوّنوا في الغرب. وللمنظمة أيضاً «ذراعٌ عسكرية» هي «حماس» التي تقوم بعمليات مسلحة ضدّ إسرائيل، وتصفي في الأراضي المحتلة العملاء والعاهرات ومدمني المخدرات والمخمورين؛ وهذه التصفيات يفترض فيها أن تطول الأشخاص الذين يخالفون «الشريعة الإسلامية» لتكون بمثابة تحذير ودرس للآخرين.

يعبّر «الإسلاميون»، في مناطق أخرى، عن المشاعر نفسها، كما يقول الجزائري بلحاج: «حل المسألة الفلسطينية سهل جداً، يتمثل في تسهيل عمليات دخول الشباب المسلم إلى الأراضي الفلسطينية، ليصلوا إلى القدس، ويجاهدوا في سبيل الله، ويحرروا البلد من رجس اليهود والصهاينة.. ويجعلوه لهم قبراً.. أما عرفات، فإنني أخجل من ذكر اسمه، فهذا الرجل قايض البندقية بـ"ميكروفون" اليهود الذين لا يستحقون إلا السيف...»[١]. لقد طُرِح على بلحاج هذا، السؤال التالي: «كيف تنظرون إلى ملايين المسلمين الذين يعيشون في بلدان غير مسلمة في أوروبا والهند ...الخ في ظل قوانين غير إسلامية؟»، فأجاب: «لا يجوز للمسلم أن يخضع للقوانين الكافرة: عليه حيثما وُجِد أن يجاهد ضدّها».

١- حديث منشور في مجلة: Politique internationale, automne 1990.

تقودنا ملاحظة بلحاج هذه إلى مشكلة المهاجرين المعقدة في أوروبا. إن تصريحات منظّر جبهة الإنقاذ هذه تتأدى، بلا ريب، مباشرة إلى الصدام؛ فهي بمثابة دعوة صريحة إلى العصيان المدني. وبالفعل، إن القوانين الإسلامية التي يطالب الأصوليون بتطبيقها، هي تلك التي فرضها فقهاء القرن الثاني عشر، وهي تتعارض مع روح القوانين الغربية المعاصرة، وبخاصة ما يتعلق منها بحقوق الإنسان وحقوق المرأة.

علينا ألا ننسى، في سياق الكلام عن مشكلات المهاجرين، أن العالم الإسلامي، المجمّد في الماضي، ما زال يعيش في العصر الوسيط؛ في حين أن الغرب عرف تحوّلات كبيرة، ويعيش منذ الآن في القرن الحادي والعشرين!

إننا جميعا نعيش على ظهر كوكب واحد، لكن بدون أن نكون معاصرين بعضنا لبعض (أرنولد توينبي). وقد يكون ذلك مفهوماً باعتبار «المسافات الجغرافية» الفاصلة بين الدول، ولكن ليس داخل المدينة الواحدة، حيث الناس يتجاورون بلا انقطاع. وكما قلتُ أعلاه، لا يمكن لمن يقود سيارة، وعينه لا تفارق المرآة العاكسة، إلا أن يتسبب في حادث خطير يُضرُّ بكل السائقين.

لا يمكن لنا أن نكتفي بمناقشة هذه المسألة داخل إطار «التعددية الثقافية» وحده. إن تماسك اللحمة الداخلية في البلد الواحد يقتضي تفاهماً حول الحد الأدنى من المبادئ الأساسية. فإذا ما تفاهم المهاجرون في بلدٍ ما مع أهل البلد (كما كان يحدث في الماضي) فإن عملية الاندماج تحصل بسهولة. أما إذا تشددوا في التمسك بعاداتهم، برغم تعارضها مع قوانين البلد المضيف، فلا مفر عندئذ من المجابهة. لنأخذ المثال البسيط التالي: اللحم! يحق للمسلم أينما كان، في بلدان العالم أجمع، أن يُنشئ محلات لذبح المواشي وبيع اللحوم، طبقاً لشريعته الإسلامية وللقوانين الصحية والبيئية في البلد المضيف؛ ولكن لا يحق له البتة أن يذبح خرافاً أو جِمالاً على عتبة بيته!

لا يفوتني، في هذا السياق، أن أذكر حكاية حدثت لخال أمي نصر الدين شاه: كان في زيارة رسمية لإنجلترا، فأمر بذبح خروف، لمناسبة عيد الأضحى، على سجادة فاخرة (إيرانية بالتأكيد)، في قصر «وندسور»؛ فكظمت الملكة ڤيكتوريا غيظها من هذا التصرف، حفاظاً منها على العلاقة الدبلوماسية بين البلدين. لكن هذا هو الاستثناء الذي يؤكّد القاعدة.

كان المسيحيون في المجتمعات الإسلامية يتمتعون بكامل الحرية في تنظيم أنفسهم وفق معتقداتهم، من دون المسّ بالشرائع الإسلامية المتبَعة في هذا البلد الإسلامي أو ذاك. وكان ذلك شأن اليهود أيضاً. بيد أن الأوضاع كانت تتغير في كل مرة تستيقظ فيها الأصولية. في أوروبا، لم يطرح وجود المهاجرين، ولزمن طويل، أية مشكلة عصية على الحل. إلا أن الأمور اختلفت منذ قيام الثورة الإيرانية، وعودة الأصوليين وانتشار الإرهاب.

في الولايات المتحدة الأميركية، ليست هذه المشكلة بمطروحة، برغم سرعة نمو الجاليات الإسلامية، وتضاعف عدد المساجد فيها. فالمواطنون، على اختلاف عقائدهم، يتمتعون بالحقوق والحريات نفسها، لكن عليهم جميعاً أيضاً أن يكونوا خاضعين للدستور: كل مخالفة للقوانين يترتّب عليها جزاء، أياً كان مرتكب المخالفة. ولا يمكن التسامح مع من يخالف القانون، سواء أكان مسلماً أم من دين آخر، أم ملحداً لا دين له...

والحق أن مشكلة الهجرة في أوروبا، بغضّ النظر عن توظيفها السياسي، تعكس أوضاع العالم الإسلامي الداخلية. إذ في أوروبا أيضاً تثور المشاحنات الدائمة بين السّاعين إلى الحداثة وبين المحافظين الأصوليين... وتبدو الكفة، في الوقت الراهن، راجحة لصالح الصراطيين.

الغرب والعالم الإسلامي

اتّسمت العلاقات بين الغرب والشرق منذ البداية بالحذر والعدوانية. فنزوع العرب إلى الغزو والفتح (الجهاد) أثار ردود فعل دفاعية. ولم تنقطع حالة الحرب، ولو مرة واحدة، حتى سقوط الإمبراطورية العثمانية. وبعد الحرب العالمية الأولى نشبت هنا وهناك الثورات داخل حدود الإمبراطوريات الاستعمارية.

لا أودّ أن أرسم صورة شاملة للعلاقات بين الغرب والشرق، فقد صدرت في السنوات الأخيرة كتبٌ عدّة تناولت هذا الموضوع[١]. وإنما أودّ فقط أن أُشير إلى تأثير السياسات الغربية على العالم الإسلامي. إن الدول المصنّعة تتّبع، إفرادياً أو جماعياً، سياسات مبنية على المصالح الاقتصادية والإستراتيجية. وهي، في نهجها هذا، تقف إما إلى جانب أنصار الحداثة في هذا البلد، وإما إلى جانب الإسلاميين في ذاك، تبعاً لموقع البلد الجغرافي، أو لموارده وثرواته.

تُثير تناقضات الدبلوماسية الغربية الدهشة والاستغراب. وليس أقل هذه التناقضات غرابةً دعم المتطرفين في الكثير من البلدان (باكستان، أفغانستان، ...الخ). أتذكّر هنا مناقشة طويلة دارت بيني وبين مختصين في شؤون الشرق

١- من بين أسماء كثيرة، نذكر:

توماس كرنان (بالإنجليزية):

Thomas Keirnan, The Arabs, their History, Aims and Challenge to the Industrialized World, Londres, 1978.

روبن رايت، **الغضب المقدّس** (بالإنجليزية):

Robin Wright, The Sacred Rage, New York, 1985.

أمير طاهري (بالإنجليزية):

Amir Taheri, The Cauldron, the Middle-East Behind the Headlines, 1988.

جورج قرم، **أوروبا والشرق** (مرجع مذكور)

ديفيد برايس – جونز، **الدائرة المغلقة**... (مرجع مذكور)

الأوسط، في ندوة[١] عقدت سنة ١٩٩٠. فبعد أن ضقت ذرعاً بنظريتهم عن الإسلام بوصفه «درعاً واقيةً ضدّ أعداء الديموقراطية»، قلتُ لهم: «إن الله لم يُنزِل القرآن على النبي محمد ليُقيم حزاماً أمنياً حول الصين والاتحاد السوڤياتي»!

لا يمكن لهذه السياسات المتناقضة إلا أن تُذكي الصراع داخل العالم الإسلامي. إن المملكة العربية السعودية، وهي نظام ثيوقراطي[•] متحالف مع الغرب، تحارب اليوم على جبهتين متناقضتين: ضدّ «الإسلاميين»، من جهة، وضدّ «غزو» الفكر الديموقراطي من جهة أخرى[٢].

يقول عالم الاقتصاد والاجتماع اللبناني جورج قرم: «في الوقت الذي كان فيه الإسرائيليون يهاجمون "الإرهابيين" بالقصف المتواصل للمدنيين اللبنانيين والفلسطينيين، كان السعوديون يرسخون بكل هدوء ركائز سلطانهم، بأسلوبهم الخاص: فيقطعون يد السارق، ويجلدون أمام الناس التاجر الذي لا يُقفل باب متجره أوقات الصلاة، ويرجمون الزانية، ويمنعون النساء من قيادة السيارات، ومن السير في الشارع بلا حجاب، ومن العمل في المؤسسات العامة، ويصادرون حرية الرأي السياسية والدينية، ويطبعون ويوزعون في سائر أنحاء العالم العربي مؤلفات الإخوان المسلمين المصريين والسوريين، ويموّلون بناء المساجد في كل مكان، حتى في البلدان النائية من أفريقيا وآسيا وأميركا، ويضغطون على الحكومات الفقيرة من أجل حملها على تطبيق الشريعة الإسلامية، وفقاً للمذهب الوهّابي، حتى ولو أدّى ذلك إلى حرب أهلية، كما في

١- نظمتها الهيئة القومية الأميركية للسياسة الخارجية (N.C.A.F.P) في نيويورك، العام ١٩٩٠.

•- الثيوقراطية théocratie (من اليونانية: theos إله وkratos حكم أو حكومة، أي حكم الله) هي نظام سياسي تُمارَس فيه الشرعية السياسية باسم الدين، ويُمسِك فيه رجال الدين بالسلطتين الدينية والزمنية معاً. (م)

٢- حديث الملك فهد إلى صحيفة نيويورك تايمز (١٩٩٢/٣/٣٠) بالإنجليزية: King Fahd rules out free elections.

السودان، أو إلى صراعات عقائدية حادّة وخطيرة، كما بين الأقباط والمسلمين في مصر»[١].

يتحدّث جورج قرم في كتابه عن تناقض آخر في السياسة الغربية: «ومع ذلك، ففي الشرق الأوسط، لا يشنّ الغرب الليبرالي حربَ "حقوق الإنسان" إلا على الأنظمة الوطنية والعلمانية... فكم من مرة هاجم الغربُ ديكتاتورية البكباشي جمال عبد الناصر، وطغيان شاه إيران، مُفسحاً في المجال، أمام نجم الإسلام العالمي، الخميني، للاستيلاء على الحكم بأيسر السبُل، بفضل الحماية التي منحتها له فرنسا في "نوفل لو شاتو"! وكم من مرة هاجم هذا الغرب نفسه جنرالات الجيش التركي، ورثَة علمانية أتاتورك، والرئيس الأسد في سوريا، وملك المغرب... أما المملكة السعودية، فلا ينبس ببنت شفة حيالَها، بل يلزم الصمت المطبق...»[٢].

يتحمّل الغرب، إذاً، قسطاً ولو محدوداً من مسؤولية إيقاظ التطرّف الأصولي الذي عاد ليرتدّ ضدّه اليوم. وقد بات القلق شاملاً، بعدما أطبق الإرهاب، وعلا صوت الخطابات الحاقدة على أوروبا، حيث يستغل المرشحون للحكم «خوف العام ٢٠٠٠» هذا[•]، للمطالبة بطرد المهاجرين، وينسون أن إسبانيا التي أرعبها، في القرن الخامس عشر، عددُ المسلمين الكبير (مُردِفةً بهم اليهود) أرغمتهم على الخيار بين تغيير دينهم أو النزوح، وأن هذا النزوح الكثيف لم يحل مطلقاً مشكلات شبه الجزيرة الإيبيرية.

١- جورج قرم، **أوروبا والشرق** (مرجع مذكور). نقتطف منه أيضاً المقطع التالي: «... مملكة إسلامية، بإسلام متشدد وعروبة بدوية خالصة، موصدَة في وجه الحداثة، انتزعت بحدّ السيف حقّ حماية الأماكن المقدّسة، تبدو في نهاية المطاف أنها أفضل ورقة يلعبها الغرب لاسيّما في زمن المناورات النفطية. مملكة بدوية لا همّ لها سوى فرض نظام إسلامي بدائي... يُتيح للدول الكبرى مواصلة مناوراتها الكبرى...».

٢- المرجع نفسه.

•- عرف الغرب في تاريخه خوفاً كبيراً، متعدد الأسباب، عُمِّد باسم «خوف العام ١٠٠٠». من هنا صيغة المؤلف عن «خوف العام ٢٠٠٠». (م)

يبدو أن السياسة الأميركية، بل السياسة الغربية قاطبةً، تغيّرت في الشرق الأوسط. فقد أوضح دبلوماسي أميركي بتهكم وخبثٍ معاً: «ليست هناك قيمٌ مشتركة بين الغرب والعرب. وإن واحدةً من كبرى مصالح الغرب في المنطقة، النفط، باتت اليوم في مأمن تام بعد أن زال الخصم السوفياتي وضعُفَ التهديد المعادي للغرب، بما فيه تهديد الأصوليين الإسلاميين»[١]. أوهام جديدة؟ إنها على أية حال، سياسة قصيرة النظر، لا تقل خطورة عن السياسة السابقة!

ماذا يمكن للغرب أن يفعل لفك عطالة العالم الإسلامي

على أية حال، لا تمثل سياسات الدول المصنِّعة سوى عوائق غير ذات شأن في وجه تطور العالم الإسلامي بالمقارنة مع ما ورثه من تعطيل وتجميد منذ القرن الثاني عشر. بل أكثر من ذلك، إذ يمكن لهذه السياسات أن تُسهِم في فكّ هذه العطالة، إن هي تغيرت، ولو تغيّراً بسيطاً.

وعليها، من هذا المنظور، أن تكفَّ أولاً عن التدخل في شؤون الدول الإسلامية، وإن استمرّت في تشجيعها على الديموقراطية. ولا يمكن للدعم الذي تقدمه للأنظمة الأصولية أو الأنظمة التي ترفضها شعوبها إلا أن يكون مضراً بمصالح الغرب. فالمسلمون يواجهون ما فيه الكفاية من العقبات الداخلية، ولا طاقة لهم على احتمال المزيد من العوائق تأتيهم من الخارج!

علاوةً على ذلك، لا بدّ من الاعتراف بأن ما تفعله الحكومات الأوروبية والأميركية ليس هو المصدر الوحيد للعقبات. لم أعد أذكر من القائل بأن المجتمعات الإسلامية لا وجود فيها لرأي عام، وإنما فيها انفعال عام فحسب.

١- ذكره يوسف إبراهيم في مقالته، في صحيفة نيويورك تايمز (بالإنجليزية):

Youssef Ibrahim, The Arabs Feud a world in which they count less, in New york Times (05/4/1992).

بالمقابل، في الغرب، يأتي الرأي العام في مقدَّم القوى الفاعلة في المجتمع. وفي الدول المتقدمة تتمتع وسائل الإعلام بقوة عالمية هائلة. ففي المجتمعات التي يستولي عليها وهم التآمر والمؤامرات، والتي لا حرية للرأي فيها، تكتسب المعلومات والتحليلات والتعليقات القادمة من العواصم الغربية الكبرى قوة لا تقاوَم. وباختصار، يمكن للصحافة ووسائل الإعلام الغربية أن تغيّر كل شيء في الشرق. لقد عاينت بنفسي إلى أي حدّ لعبت برامج الـ«BBC» وتعليقات صحيفة «لوموند» دوراً مهماً في وصول الخميني إلى السلطة. وخلال حرب الخليج كان أصدقائي العرب يصغون باستمرار إلى إذاعة الـ«BBC» أو إلى «صوت أميركا»، وجميعهم كانوا جميعاً مشدودي الأبصار إلى قناة الـ«CNN».

قد يكون نفوذ المثقفين في الغرب قد تراجع، ولاسيما بعد انهيار الماركسية السوفياتية. لكن ما زال لهم بعضُ البريق السحري في الشرق، وما زال لآرائهم تأثيرٌ فيه. ولا بدّ، يوماً ما، أن يضع الباحثون المؤرخون قائمةً بالأضرار التي سبّبها لإيران أشخاصٌ مفكرون من أمثال سارتر وفوكو. ويُستحسَن أن تلزَمَ الانتلجنسيا الغربية اليومَ جانب الحذر، عندما تتكلم عن العالم الإسلامي. وكما نصح مكسيم رودنسون، العام ١٩٧٩، حينما قال: «علينا ألا ننسى عقلانيتنا معلَّقةً على المشجب عندما نخرج للحديث عن الإسلام»!

علينا هنا، في معرض كلامنا عن المثقفين، أن نُفرِدَ حيّزاً خاصاً للمستشرقين والباحثين في شؤون الإسلام. فبعض هؤلاء لا يهتمّ إلا بالفترة الزاهية الزاهرة من تاريخ الحضارة الإسلامية، ويُهمل الفترة التي خبا فيها نورها إهمالاً تاماً. وهم، بعملهم هذا، يرسمون صورةً حالمةً تُسهِم في ترسيخ الغموض، في حين يذهب بعضهم الآخر إلى نقيض ذلك تماماً، فيسلّطون الضوء على خفايا النفسية الإسلامية، ويجعلونها مسؤولةً عن كل ظواهر العنف!

لا يمكن لنا تقديم أية خدمة للمسلمين بالإطناب في امتداح ماضيهم التليد، أو بالتهوين من خطورة أصوليتهم، ما دامت تعتمل لديهم تلك النزعة الجارفة

للهروب إلى التراث. ولعل النفور من مواجهة الحقائق التاريخية، ماضياً وحاضراً، بات سمةً تطبع المسلم المعاصر. ولن يتمكّن هذا المسلم من إعادة كتابة تاريخ أبناء دينه كتابةً موضوعية. وفي هذا المجال بالذات، يمكن للمؤرّخين الغربيين أن يُسهِموا إسهاماً بالغ الأهمية.

مسألة زائفة

يُثبِت التاريخ أن الشعوب المسلمة قادرة، في نهاية المطاف، على التحرر من الهيمنة الأجنبية، ولكنها غير قادرة على التحرر من الصراطية التي تكبلها وتشلها عن التقدم منذ القرن الثاني عشر. هذا العجز عن كسر قيد الماضي يزيّف مسألةَ التنمية. وقد رأينا كيف يتساءل المسلمون عمّا إذا كان يمكن لهم أن يتطوّروا من دون أن يهلكوا، وعما إذا كان يمكن لهم أن يشقوا طريقهم إلى العلم الحديث من دون أن يتخلوا عن معتقداتهم؟ فالصراطية التي تحكمهم منذ القرن الثاني عشر تمتزج بالدين، في أذهان العامّة على الأقل. هكذا يتساءل الناس: هل سيبقون مسلمين في ظلّ التحديث؟ ويجيبهم الفقهاء الصراطيون بالنفي، لأن اتّباع أفكار العلم، والعمل بموجبها، يعنيان السقوط في البِدَع، والارتداد عن العقيدة القائلة بأن الله قادر في أية لحظة يشاء على أن يغيّر الكون حسبما يشاء.

هل هذا صحيح؟

كلا، بطبيعة الحال! رأينا في الفصول السابقة أن العلم والتقنية الحديثيْن، اللذين يرى عددٌ كبيرٌ من علماء الفقه أنهما «غريبان» عن الإسلام، هما في واقع الأمر متحدّران، ولو من بعيد بشكل ما، من الأفكار التي أنجبها العقل الإسلامي ذاته؛ لكن الفقهاء القدماء وقفوا لهما بالمرصاد، وطردوهما من دار الإسلام.

والحقّ أن التحديثيين أو الإصلاحيين، الذين يعملون في سبيل تنمية مجتمعاتهم المتخلّفة، ليسوا «أعداء الله» (كما يتهمهم الأصوليون)، بل هم على العكس يسيرون على طريق الرسول وعلى طريق أولئك الذين حملوا القرآن إلى شواطئ الأطلسي.

إنهم هم الذين يخدمون الدين حقاً، لأنهم يستعيدون حيوية التراث والانفتاح الذي امتاز به عصر الإسلام الأول. ليس ثمة تناقض بين الإسلام والعلم الحديث، ولا بين سنّة الرسول والتقدم التكنولوجي. في المقابل، هناك تناقض ـ لا سبيل إلى حله ـ بين الإسلام والجهل، بين الإسلام والدغمائية. فليطمئنّ القارئ: لن أُدخِلَه في متاهات اللاهوت. والموضوع الذي أنا بصدده الآن ـ وأقول تكراراً ـ هو التاريخ. ما أريد أن أقوله هو أمرٌ بديهي يعرفه كل مسلم: في القرآن ما يكفي من الحجج التي تعزز مطلب التقدّم المستمرّ. وعلى عاتق المثقفين المسلمين تقع مسؤولية الكشف عن هذه الحجج، والتعريف بها، وجلوها، وتجديد فكرٍ حسِبه الفقهاء الصراطيون قد جمد إلى الأبد.

ثمة بديهيات أخرى، وأولها أن المفهوم الثيوقراطي للدولة يقود حتماً إلى الاستبداد بالحكم، وما ينشأ عن ذلك من قمع سياسي واجتماعي وفكري. تشبه المملكة العربية السعودية وإيران الخمينية معسكرات اعتقال ثقافية ضخمة يحظر فيها على الكتابة أن تنحرف عن الفكر الرسمي (الوهابي والخميني). وليس هدفنا مما نقول أن نُنكِرَ إيمان معظم الناس (بل جميعهم في الغالب)، وإنما هدفنا محو البنيات السياسية والاجتماعية التي تتناقض مع روح الدين. وإلا، فكيف يمكن للقرآن أن يُستخدَمَ وسيلةً لتسويغ الأنظمة القمعية، وهو يأمر المسلم بالتمرّد والانتفاض على الظلم والاستبداد؟

أخيراً، إن الإسلام يتنافى مع الجمود؛ أفلا يهدف القرآن إلى الرقيّ بالإنسان إلى الكمال؟ ألا يفرض على المسلم تحصيل العلم والمعارف المستجدة؟

البديهية الأخيرة، هي أن القرآن لا يرفض فكرة التطوّر والتغيير المستمر. إنه ينصّ على النهاية المحتومة لعالمنا هذا، وأن الأرض ستُبدّل بأخرى، والسموات بغيرها. فكيف يمكن لنا، والحالة هذه، تجميد المجتمع وتجميد مؤسساته وقوانينه؟

الرهان الحقيقي

تتملّكنا الرغبة في رفع الصوت عالياً لنقول: «الله بسيط، أما اللاهوتيون فليسوا كذلك!» (جوليان غرين Julien Green)(*). نعم، لأنهم بألاعيبهم التشريعية، وتلاعبهم بالنصوص القديمة، أرادوا أن يجعلوا التأويل عملية صعبة معقدة، ونجحوا في تعطيل تطور المجتمع. وعندما أسقطوا الإجراءات اللازمة الواجب اتخاذها، راكموا المشكلات غير المحلولة، وتركوها للأجيال التي من بعدهم. وكلما طال الانتظار من أجل إنجاز الإصلاحات اللازمة، تعقدت الأمور وتفاقمت وازداد حلها صعوبةً.

تجد الدول الإسلامية نفسها فريسةَ مشكلاتٍ مادية جمّة، لا حل لها إلا بالعلم والتكنولوجيا الحديثيْن. من هذا المنظور، يصبح مصير المسلمين شبيهاً بمصير شعوب أخرى. أذكر، في هذا السياق، حواراً شيقاً جرى بين ليوبولد سيدار سنغور، رئيس جمهورية السنغال آنذاك، وأندريه مالرو، وزير الشؤون الثقافية الفرنسية، حذر فيه مالرو الرئيس السنغالي من مغبّة المكننة، لأن الآلة «هي أيضاً شيطان»، على حدّ قول مالرو؛ فأجابه الشاعرُ السنغالي، صاحب مؤلّف «القربان الأسود»: «أريد أفريقيا، لكنني لن أقف ضدّ الآلة، لأنها هي الوحيدة التي يمكن لها أن تقهر الفقر»[1]. قال لي سنغور، في آخر لقاء لنا، العام ١٩٨٦: «ليس المطلوب في نهاية هذا القرن من دول العالم الثالث أن تعيّن ما هو ممكن، وإنما عليها بالأحرى أن تعيّن ما هو ضروري».

فما هو الضروري للبلدان الإسلامية؟

يمكن لنا أن نعدّد المهمّات التالية: فرض رقابة على التزايد السكاني الفائق

• جوليان غرين روائي أميركي كتب بالفرنسية وكان ذا توجه رؤيوي (١٩٠٠-١٩٩٨).

١- أندريه مالرو، **ضيوف عابرون** (بالفرنسية):

André Malraux, Hôtes de passage, Gallimard, Paris, 1975.

السرعة، تغذية الناس وتوفير العمل لهم، تأمين الماء والطاقة الضروريين، تعليمهم وتربيتهم التربية اللائقة، العناية بصحّتهم، توفير الازدهار وضمان الأمن لهم، ...الخ. نملّ من التكرار بأن هذه الأهداف لا يمكن لها أن تتحقق إلا بالعلم والتكنولوجيا الحديثة. وقد أثبتت التجارب، فضلاً عن ذلك، أنه لا يكفي شراء المصانع وتوظيف الخبراء، بل يجب الأخذ بالعقلية العلمية وتوطينها، لأن التكنولوجيا لا يمكن لها النمو في مناخ مناقض للمناخ الذي وُلِدت فيه. ففشل برامج التنمية في العالم الإسلامي ناتج عن أن المشرفين على هذه البرامج، سواء أكانوا تحديثيين أم غير تحديثيين، استوردوا المنتجات وحاولوا التكيُّف معها، ولكنهم رفضوا في الوقت نفسه العقلية التي أنتجتها. فمن دون حرية الفكر والتعبير لن يكون هناك تقدّم علمي، وهذا ما يُثبِته تفوّق البلدان المصنِّعة وفشل البلدان الأخرى.

لكن ثمة من يخالف هذا الرأي؛ فمن الخميني إلى الإخوان المسلمين في القاهرة، ومن القذافي إلى الإسلاميين في الجزائر، يردد التقليديون المحافظون بأن القرآن يحوي حلولاً لكل مشكلات العالم! إنهم يتباهون بـ«الفضائل التعْبويّة» للإسلام. ولكن، لماذا لا تظهر هذه الفضائل إلا في السياسة، ولا تتجلى خارج نطاق السياسة؟ لماذا لم يستطع المسؤولون أن يعبّئوا المسلمين في سبيل التنمية؟ الحق أنه يجب البدء بتربيتهم تربية عصرية، وذلك منذ الصفوف الابتدائية الأولى، وتدريبهم على التفكير النقدي الحر. لكن شعار «الرجوع إلى الأصول» لن يقود إلا إلى تكريس الثيوقراطيات أو الدكتاتوريات المدنية القمعية!

في مواجهة التقليديين المحافظين يقترح أنصار الحداثة استعارة النموذج الغربي، على غرار ما فعل أتاتورك؛ لكن أتاتورك كان جدَّ انتقائيٍّ في نقل النموذج الغربي، وبخاصة ما تعلق منه بحرية التعبير والحوار. حتى اليوم، وبعد سبعين سنة من العلمانية، ما زال علماء الدين في تركيا لا يتركون فرصةً إلا واغتنموها لفرض آرائهم.

«إسلام متحجر»

هكذا نرى أن دروس التنمية المستفادَة من تجربة الدول المصنِّعة لا تلقى آذاناً صاغية. لماذا؟ لأن الحقيقة لا تكون حلوة المذاق، إذا أيقظت الإنسان من أوهامه. يرى توماس كولم Thomas Culm أن الأفكار الجديدة لا تفرض نفسها بقوة فعاليتها، وإنما لأن أصحاب الأفكار التقليدية يموتون في آخر المطاف. هذا الرأي، البديهي في ظاهره، لا يصدق إلا نصفه في البلدان الإسلامية: فعندما يموت أنصار الأصولية يعوّضهم على الفور تلاميذهم الذين يحرصون حرصاً شديداً على إبقاء العوائق قائمةً في وجه التجديد.

يمتدّ رفض الأفكار الجديدة ليطول محاولات التحديث. لم تَحُلْ إنجازات إيران المادية في الستينيات دون نزول جماهير الشعب إلى الشوارع من أجل الخميني، تاركين أنفسهم يعودون القهقرى إلى العصر الوسيط. وكذلك في تركيا، لم تمنع ثورة كمال أتاتورك أنصار الأصولية من إشعال الاضطرابات المتتالية التي جعلت الجيش في النهاية يضع يده على السلطة ويُمسك بها.

سيُقال: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان»! وهذا صحيح! لكن، صحيحٌ أيضاً أن الإنسان، بلا خبز، يموت جوعاً!

لا أذكر من هو الفيلسوف الذي نَعَتَ نزعة الجمود لدى الإنسان، بأنها «الهوى الأكثر رسوخاً عند الإنسان». لكن كل شيء يدل على أن المسلمين دخلوا في حلقة مفرغة؛ فعلى الرغم من أن علماء الدين الفقهاء لا يشكّلون كنيسة على غرار زملائهم المسيحيين، فإن لديهم حساً قوياً بكونهم جماعة واحدة متماسكة تدافع عن نفسها وتفرض سلطتها. فهم يَقِظون باستمرار، ويُعيدون بناء صفوفهم باستمرار. ومثلهم مثل التنانين في القصص والأساطير، يحرصون حرصاً شديداً على تراثٍ حنَّطه أسلافهم في القرن الثاني عشر. أما التغيّرات التي يقبلونها، بين حين وآخر، فهي تجميلية اصطناعية، أكثر منها تغييرات حقيقية فعلية!

«إسلامٌ متحجر»[1]. هذا ما كتبه مالرو من خلال مشاهداته في العالم الإسلامي. والحق، أننا نجد في كل مكان من العالم الإسلامي الأفعال نفسها وردود الفعل نفسها تتكرر منذ قرون. وفي كل بلد تستعبد الأنظمة السياسية وجدان الناس وتصادر الحريات وتكمّ أفواه المثقفين. يُعيد العشماوي هذا المفهوم السلطوي للحكم إلى زمن بعيد جداً: «على الصعيد الداخلي، لم يكن الناس معتبَرين مواطنين وإخوةً في الدين، بل مجرّد رعايا لا أكثر. مثلاً، كان بمِكْنة الخليفة أن يفرض على المسلمين جزية، هي غير الضريبة التي عليهم أن يدفعوها بوصفهم مسلمين. أما المشاركة والشورى فكان يمنعهما عمّن يشاء من معارضيه، ويتّهمهم بأنهم أصحاب بدعة. لذا، كان التاريخ الإسلامي عبارة عن سلسلة من الدسائس والاغتيالات والحروب الداخلية بين أصحاب السلطة وبين الطامعين فيها»[2].

إسلامٌ «منفتح وأُخوي»

خلال الحرب العالمية الثانية، رأيت في مدينة صور اللبنانية، وكنت فيها برفقة زميلي في الكليّة، وهو من الطائفة السنيّة، رأيت مشاهد النّدْب واللّطْم والجَلْد التي يقوم بها الشيعة، يومَ ذكرى عاشوراء (المجزرة التي وقعت العام ٦٨٠، وقُتِل فيها حفيد الرسول، على يد عساكر الخليفة الأموي). رجالٌ نصف عُراة يلطمون صدورهم وظهورهم حتى يدمون، وهم يهتفون هتافات الحزن والحداد، والمتفرجون الواقفون على جانبَي الشوارع يذرفون الدمع بسخاء، والنساء يولوِلْنَ على النوافذ. قال صديقي السني بصوت خفيض: «يا لهم من متوحشين». فذكّرتُه بالتظاهرة التي جرت في بيروت ضدّ تاجر فلسطيني باع

١- أندريه مالرو: **مذكرات مضادّة** ,André Malraux, Antimémoires.

٢- العشماوي (مرجع مذكور).

أرضه بالقدس، لمهاجرين يهود، وكادت جموع المتظاهرين تأكل الرجل حياً. تذكرت أيضاً مشاهد الجَلْد في شوارع مدينة جدّة السعودية التي رأيتها في طفولتي عندما كان أبي ممثلاً لإيران في المملكة.

ما زالت ممارسات العصر الوسيط مستمرة إلى يومنا هذا، في السعودية والسودان وباكستان وغيرها... وفي إيران، كما في السعودية، يدخل أفراد شرطة مختصّة («المطوّعون») إلى البيوت، متى يشاؤون، لمراقبة مدى ممارسة الناس في بيوتهم فروض الشريعة، وبخاصة ما يتعلق بتحريم تناول المشروبات الروحية. لكن، في الوقت نفسه، تُباع الخمور على أنواعها بأسعار باهظة في السوق السوداء! فضلاً عن ذلك، كل المناسبات تصلح لأن تكون أيام حداد؛ فـ«الأولياء» لا يُحتَفَل بأعياد ميلادهم، بل بذكرى وفاتهم.

يعمل الساهرون الأشاوس على «تطبيق الشريعة» على تشديد العقوبات في معظم الدول الإسلامية، ولا يكفّون عن توسيع دائرة المحرّمات. يُجيدون استعمال الشريعة كهراوة يقضون بها على كل فكر خلاق. وكما يتضح من تجربتهم في إيران وغيرها من البلدان، فإنهم يتفادون ببراعة فائقة مواجهة التحدّيات الكبرى المطروحة في نهاية هذا القرن. في هذا الصدد، لا أجد أفضل من ذكر ما قاله جمال الدين بن شيخ، هذا المثقف العربي الشجاع الذي لا يخاف من مجابهة الإسلاميين بحقيقة أمرهم: «بأية لامبالاة تُهمَل تحدياتُ القرن الحادي والعشرين الفعلية: الرياضيات، البيولوجيا، فيزياء الفضاء، المعلوماتية، وكلُّها تفتح في زمننا الراهن آفاقاً خلاقة. فقوة المستقبل العلمية تسير في كل مكان، على قدم وساق... أما نحن، فإننا نتخصص في إنتاج "دراويش الطريقة المولوية"».

أودّ أن أضم صوتي إلى صوت هذا العالِم العلامة الذي سخّر علمه الغزير في مكافحة التطرّف، وأورِد مرة أخرى شيئاً من كتاباته: «على أية حال، فإن رغبتنا الروحانية الجامحة لن نتنازل عنها للكنيسة ومحاكم التفتيش، ولا

لحاخامية التعصب المتزمت، ولا لمهدوية تبشيرية لا تحتفل إلا بالموت؛ ثمة تراث إسلامي منفتح وأخويٌّ، كريم ورحيم، لن يُخيفه عواء الضباع. هذا الإسلام لا تنقصه الشفافية ولا رهافة الحسّ ولا الحرص على الفرح الإنساني. إسلامٌ ليست الأعياد فيه مآتم، وإنما أغنيات وضحكات، بين نساء ورجال سعداء يرغبون في الإنصات عند الأماسي إلى قصائد حبّ أندلسية، قبل أن يرتّلوا مع الفجر سُوَراً تنطق بالرحمة. إن الذين يؤمنون بالله يحتاجون إلى الحنان، لا إلى حقد المتعصبين»[1].

ما العمل؟

طبعاً، ليس يسيراً تغييرُ عادات وتقاليد تعود إلى مئات السنين، ولا فك عِقَدٍ تعود إلى القرون الوسطى. فما من مرة خاض المثقفونَ والمفكرون في الميدان الديني إلا قوبلوا بهجوم عنيف يشنه الفقهاء الذين يعتبرون «علم الدين» حقاً مقدّساً لهم، وحكراً عليهم وحدهم!

ولكن القرآن يشدد على أن الله لم يجعل وسيطاً بينه وبين العباد، إذ قال الرسول فيه مرتين، بلسان عربي مبين: «إنما أنا بشرٌ مثلكم» (سورة الكهف، الآية ١١٠، وسورة فُصِّلَتْ، الآية ٦). والقرآن يحث المسلم على تطبيق تعاليم الإسلام وعلى التعلم والمعرفة والثورة على الظلم. كما أن للمسلمين الحق في طرح الأسئلة ومناقشة كل شيء. أما المثقفون فذلك واجبٌ عليهم، بحكم معرفتهم وعلومهم، ويجب ألا يحولَ شيءٌ بينهم وبين استخدام العقل لإيجاد الحلول الملائمة.

على المثقفين أن يكفوا عن تغذية الخلط الذي يكتنف الحديث عن الإسلام داخل العالم الإسلامي (وخارجه). فغالباً ما يفوت المتغنين بالحضارة الإسلامية،

١- جمال الدين بن شيخ، لوموند دبلوماتيك ٧ نيسان-أبريل ١٩٨٩.

من مسلمين وأجانب، ذكرُ الحقبة التاريخية التي يتحدثون عنها؛ فيرسّخون الوهم بأن الحضارة الإسلامية استمرت بعد القرن الثاني عشر. والحال أن إدانة الفلاسفة والمفكرين ما زالت مستمرة منذ أن فُرض الجمود على الفكر الإسلامي في ذلك القرن. فكيف يمكن الحديث إذاً عن حضارة لم تكن موجودة، ولا تزال علاوةً على ذلك، موضع سخط علماء الدين؟ فيا له من تناقض يقع فيه التقليديون والأصوليون، عندما يفاخرون بماضٍ يُدينونه!

على المثقفين المسلمين أن يحذروا، بكل الفطنة والنباهة، من الوقوع في فخ الإطناب في مديح التقدم العلمي الذي حصل في القرون الأربعة الأولى من تاريخ الإسلام، وكأن هذا التقدّم ما زال يؤخذ به في العالم الإسلامي الراهن. لقد بلغ الفكر الإسلامي ذرىً رفيعةً حقاً! ولكن، كان ذلك قبل القرن الثاني عشر، أي قبل الإدانات والتحريمات التي فُرِضت في ذلك العصر واستمرّت حتى يومنا هذا.

يمكن تقسيم القرون الإسلامية الثلاثة عشر إلى حقبتين كبيرتين متمايزتين، الأولى حيوية متوثّبة، والثانية رجعية جمودية. وإغفال هذا التوضيح الدقيق يعني حجب جزء من الحقيقة. في حين أن واجب المثقف هو جلاء الحقيقة كاملةً، حتى ولو كانت مُرَّةً. فعلى المثقفين أن يشجعوا النقد والنقد الذاتي، وأن يكونوا قدوةً لغيرهم في ممارسة هذا النقد. ولا علاقة للإسلام المنفتح المتطوّر، الذي يتكلّم عليه بن شيخ، بإسلام ملالي إيران والإخوان المسلمين، أو بجبهة الإنقاذ الإسلام الجزائرية؛ فهؤلاء لا همّ لهم إلا البقاء في الحكم، أو الوصول إليه.

على المثقفين المسلمين أن يحملوا مشعل العلم الحديث الذي لا يوجد اليوم إلا في الغرب وحده، وليس بذي بال أن يكون هذا الغرب قد غرف على سعةٍ من العلم الإسلامي بعد القرن الثاني عشر (مع أن هذا يجب أن يشكل سبباً إضافياً لحفزهم على هذه المهمة). قال الكندي في القرن التاسع: «وينبغي لنا أن لا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس

القاصية عنّا والأمم المباينة لنا. فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق، وليس ينبغي بخس الحق، ولا تصغير قائله ولا الآتي به». يجب أن يُقال للمسلمين بأن العلم والتكنولوجيا الحديثين كادا أن يكونا من صنعهم، لولا أنّ فقهاء القرنين الحادي عشر والثاني عشر عطّلوا تطورَ المجتمع برمته بتعطيلهم جهودَ علمائهم ومفكريهم، ولولا أنّ الفقهاء المعاصرين استمروا بالتشبث بفقه ذلك العصر وبما فرضه من محرمات.

الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية

إن العناصر التي أسست الروح العلمي الحديث كانت متوافرة لدى الفلاسفة والعلماء المسلمين في القرون الأربعة الأولى، وهي: المناقشة والملاحظة والتصنيف والاستدلال المنطقي والتجريب وتطبيق الرياضيات وغيرها. ولولا العطل الذي لحق بالعالم الإسلامي خلال القرن الثاني عشر، لتمكّن المسلمون من المضيّ في تطوّرٍ كان من شأنه أن يُشبه، إلى هذا الحدّ أو ذاك، التطوّر الذي عرفه الغرب بعد عصر النهضة. إن بين الثقافتين الغربية والإسلامية استمرارية تتضح من خلال تبني الجامعات الأوروبية لمؤلفاتِ ابن سينا وابن رشد وكثيرين غيرهما.

ليس من تعارض، إذن، بين الثقافتين إلا عندما ترجح كفة المقولات الأصولية المهيمنة على العالم الإسلامي منذ القرن الثاني عشر. إذّاك، يصبح التناقض مستحكماً بين مجتمع خاضع لقانون إلهي أبدي، ومجتمع تستقلّ فيه الدولة عن الدين، وتصدر فيه القوانين كلّها عن الإرادة البشرية. وذلك، علاوةً على التناقض القائم بين المجتمعين في مجالات الحريات السياسية وحقوق الإنسان (ومنها بطبيعة الحال حقوق المرأة).

عطّلت الأصولية العالم الإسلامي وجمّدته في القرون الوسطى. وما يفصل المسلم اليومَ عن الغرب، هو مسألة عصر تاريخي، لا مسألة عدم توافق في

العمق والجوهر. فالمهاجرون، مثلاً، يعيشون مع الأوروبيين في مكان واحد، ولكنهم لا يعاصرونهم. ولكي أوضح ذلك استعين بعلم الخيال، الأثير لديّ: لو تمكّنا ــ باختراعٍ تقنيٍّ ما ــ من نقل فرنسي أو إنجليزي من العصر الوسيط إلى باريس أو لندن الحاليتين، فهل سيتمكّن، هو بدوره، من التكيّف بسهولة مع وضعه الجديد؟ هل سيفهم معنى حقوق الإنسان وتحرير المرأة وقوانين العمل وانتخاب المسؤولين؟ ولو مكّننا اختراعنا التقني أيضاً من إحضار آلاف الفرنسيين أو الإنجليز من القرون الوسطى إلى عصرنا هذا، لاجتمعوا بلا ريب، في طائفة مستقلّة. فهل سنكون محقين لو انتقدنا تمسّكهم بعاداتهم التي تخطّاها الزمن؟ ألا ينبغي عندئذٍ، للأذكياء منهم أن يشرحوا للباقين حقيقة الوضع، وأن يسعوا إلى ردم الهوّة «الزمنية»؟

هذا هو الدور المنوط بالمثقفين المسلمين. لقد تساءل الأردني البارز: «هل يمكن لنا أن نشق طريقنا إلى الحداثة من دون أن نهلك؟» إنه، كسواه من أبناء دينه المثقفين، يجد نفسه موزّعاً بين قطبين يتجاذبانه: الأول في العصور الوسطى، والثاني في القرن العشرين. ولا يحتاج المرء لأن يكون طبيباً نفسانياً بارعاً لكي يُدرك أن مسافةً «زمنية» كهذه من شأنها أن تتأدّى في الحياة اليومية إلى اضطرابات، هذا إذا لم تُحدِث انفصاماً في الشخصية. وتزداد المسافة الفاصلة بين القطبين مع تسارع التطوّرات التكنولوجية في الغرب. وإذ يعجز المسلم عن اللحاق بالقطار، وهو يمضي سريعاً على إيقاع الثورة العلمية الجديدة، فإنه ينصرف إلى الاستماع إلى ما اعتاد أن يسمعه من الأصوليين، ويستسلم لأوهام العصور الوسطى؛ فإذا عجز مفكّرو المجتمع الإسلامي عن توعيته وتنويره، أو أشاحوا عن فعل ذلك، فمن يمكن له أن يفعل ذلك بالنيابة عنهم؟

ثمة مهمّة معرفية شاقة جداً ولا بدّ من الاضطلاع بها؛ وهي تبدأ قبل كل شيء بإعادة كتابة تاريخ الإسلام. فعلى المسلم أن يعي الصدمة التي أحدثتها الأصولية في القرن الثاني عشر، والتي لا يزال يعيش آثارها وعواقبها. لا

يكفي نقد الماضي، بل لا بدّ أيضاً من تنقية الحاضر من شوائب هذا الماضي. وفي الجملة، يجب القيام بنوعٍ من التحليل النفسي للعالم الإسلامي. ولِمَ لا؟ فمن الشرق جاءت، على كل حال، كلمة «ديوان»(•) المعتمَدَة اليوم في لغة التحليل النفسي!

معركة ثقافية

وما التحليل النفسي إن لم يكن معركة بين الماضي والحاضر بهدف استبصار مستقبلٍ متوازن؟ في ما يخصّ العالم الإسلامي، تتعدّى هذه المعركة المستوى الفردي، وهي لا تتّصل بالسياسة لا من قريب ولا من بعيد. إنها معركة ثقافية طاحنة بين القرنَين الحادي والعشرين والثاني عشر، بين الجديد والقديم، بين الحرية والقمع، بين التسامح والتعصّب، بين الديموقراطية والطغيان... صراعٌ شرس بين عصرين!

لا تتطابق خطوط هذه «الجبهة» الواسعة مع خطوط المعارك السياسية الراهنة؛ لا بل إن هذه في واد، وتلك في واد آخر. من هنا مبعث الخلط والغموض اللذَين يكتنفان عمل الانتلجنسيا ويجعلانه مشكوكاً في نتائجه. فعلى هذه «الانتلجنسيا» أن تلزم جانب الحذر واليقظة، لتتفادى الوقوع في أفخاخ الأحداث السياسية الراهنة. وليس لأن قضية ما من القضايا السياسية تكون بحدّ ذاتها عادلة جاز لنا أن نغض الطرف عن التجاوزات التي ترتكب باسمها. ولا يجوز لنا أن نتعامى عن جرائم القادة والمسؤولين في بلد ما بحجة أن هذا البلد يتعرّض لعدوان خارجي، كما يجب ألا نلزم الصمت حيالَ القمع الذي يمارسه نظامٌ تجاه شعبه، بحجة أن هذا النظام هو هدفٌ لأطماع الإمبريالية.

ليست الحرب الثقافية ضد القرون الوسطى معركة تكتيكية. فهي لا تهدف

•- الديوان Divan: المقعد المستطيل الذي يتمدّد عليه «المريض» أمام محلله النفساني. (م)

إلى قلب نظام حكم والاستيلاء على السلطة، ولا إلى مساعدة جماعة أو حزب للانتصار على جماعة أخرى أو حزب آخر. فهدف هذه الحرب هو شقّ طريق التقدّم أمام الشعوب الإسلامية جمعاء.

لا يزال المسلمون رهائن تأويل لدينهم فرض نفسه منذ القرن الثاني عشر، وترسخ مع الزمن. ولا يعني إنقاذ المسلمين من براثن هذا التأويل إهمال تاريخهم وماضيهم، بل يعني استعادة الروابط المتينة مع تراث حيوي منفتح، أتاح لهم بين القرنين السابع والحادي عشر إبداع حضارةٍ هي من أكثر حضارات الإنسانية إشراقاً؛ كما لا يعني المسّ بالدين الإسلامي، بوصفه ديناً، بل يعني فك الجمود الذي طرأ في القرن الثاني عشر.

هكذا، أجدني من جديد، أمام التساؤل الذي طرحته في مستهلّ هذا الكتاب: هل سينجح المسلمون في الخروج من العصور الوسطى؟

لا يقوى على الإجابة عن هذا السؤال سوى المسلمين أنفسهم. إن الخيار الذي يواجهونه في نهاية القرن العشرين هذه، واضح جليّ: إما الانطواء على الذات في أقبية الأصولية، وإما استعادة نداوة العصور الإسلامية الأولى وانفتاحها.

في القرن السابع، تمثّل البدو الخارجون من الصحراء العربية ثقافاتٍ غريبةً عنهم كل الغربة، كانوا يصادفونها في طريقهم. أما اليوم، فالمسلمون يجدون أنفسهم أمام ثقافة علمية وتقنية كانوا قد أسهموا في بلورتها في زمن سابقٍ على القرون الوسطى، وبالتالي فهي ليست غريبةً عنهم.

أكّد سنغور في حواره مع مالرو، وقد أشرتُ إليه أعلاه، أن: «أولئك الذين تقع على أكتافهم مهمة بناء العالم الثالث، ينتمون إلى ثقافتين على الأقلّ». وقد أضاف يقول: «منذ ثلاثين عاماً وأنا أدعو إلى حضارات مهجنة. علينا أن نبني معاً نوعاً من الثقافة المختلطة الراقية، على طراز ما كانت عليه ثقافة المصري والهندي واليوناني...»[1].

١- أندريه مالرو: **ضيوف عابرون** (مرجع مذكور).

كان بمكنة سنغور أيضاً أن يذكر الثقافة الإسلامية التي عرفت كيف تلائم وتؤلّف بين الإسهامات المختلفة.

إن الماضي الذي يرفعه الإسلاميون رايةً لبرامجهم هو من نسج الخيال المحض؛ فالثقافة الغربية ليست معادية للإسلام، بل عدوّه اللدود هي الأصولية، لأنها جمّدت حضارته منذ ثمانية قرون؛ هذه الأصولية التي تغلّب، على التقدّم العلمي والثقافي للأمة، إستراتيجية الاستيلاء على السلطة أو المحافظة عليها.

إن موجة الأصولية التي تجتاح المسلمين حالياً، ليست سوى الاختلاجة الأخيرة للمجتمع التقليدي المريض، المأزوم بين الحنين إلى الماضي وبين مقتضيات التطوّر والتغيير. وكما قال جاك بيرك: «لا ريب في أن التطوّر ممكنٌ في الإسلام، بل وبالإسلام، شريطة أن يتطوّر الإسلام نفسه»[١].

على المثقفين أن يتحرّكوا كيما يتمكّن العالم الإسلامي من اختيار السياسة التي تفتح أمامه طريق المستقبل، لا تلك السياسة التي تردّه إلى ماضيه؛ وإلا فلن يَثِبَ تلك الوثبة النوعية التي ينصحه بها العلم الحديث.

في قصيدة ضمّنها أمير غرناطة الأموي وصيتَه إلى ولده، يقول:

«كما يجمع الخياطُ ثوباً بإبرة   جمعتُ بسيفي شتى الممالك»[٢]

وعلى القلم (وبالأحرى الكومبيوتر) أن يحلّ اليومَ محلّ الإبرة والسيف معاً.

١- ورَد في لوموند ديبلوماتيك (آب/أغسطس ١٩٨٤).

٢- أورده دوزي في **الإسلام الإسباني** (مرجع مذكور).

يعيد هذا الكتاب طرح السؤال النهضوي:

لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟

ولكنه لا يعيد طرح السؤال إلا ليجيب عنه بجذرية لا تعرف المهادنة: فالإسلام لم يتخلف بعامل خارجي، بل من داخله وبأيدي المسلمين أنفسهم. لا إسلام الدين بل إسلام التفسير الديني. إذ ابتداء من نهاية القرن الخامس الهجري فُرِض تفسير بعينه للإسلام نفسه هو التفسير الأصولي. والأصولية، التي خنقت كل صوت آخر وعممت المنطق القائل بأن كل جديد بدعة، وبدعة أيضاً كل دخيل يأتي المسلمين من الغير، هي التي أغلقت كل دوائر الانفتاح التي عرفها الإسلام مع فلاسفته وعلمائه وشعرائه، وقادت المسلمين إلى ليل الانحطاط الطويل.

وفي هذا الزمن الذي يبدو فيه العالم العربي والإسلامي مهددا بالانكفاء نحو قرون وسطى جديدة يكتسب هذا الكتاب راهنية ساخنة.

1 0 7 8 3 2
عالم المعرفة
ار الاسلام معطلا العالم الاسلامي ومعضلة الق
فلسفة 3
S.P200
1 4 9 2 8 5